كتاب

تاريخ

دولة آل سلجوق

من انشاء الامام عماد الدين محمد بن محمد بن حامد الاصفهانى
رحمه الله

اختصار الشيخ الامام العالم الفتح بن على بن محمد البنداري الاصفهانى
رحمه الله ورضي عنه

﴿ طبع على نفقه شركة طبع الكتب العربية ﴾

(بمطبعة الموسوعات بشارع باب الخلق بمصر سنة ١٣١٨ هـ — ١٩٠٠ م)

قرر مجلس ادارة الشركة فى جلسته المنعقدة فى يوم الثلثاء ١١ ربيع آخر سنة ١٣١٨ (٧ اغسطس سنة ١٩٠٠) طبع هذا الكتاب على نفقة الشركة لاحتوائه على تاريخ دول اسلامية مكثت نحو قرن ونصف ولم يوجد لها للان مؤلف خاص بها بل ذكرت عرضاً فى كتب التواريخ ولما لمؤلفه من الشهرة الفائقة فى عالم التحرير والانشاء

بسم الله الرحمن الرحيم

أما بعد حمد الله على نعمه الجسام . ومننه العظام . والصلاة والسلام على خير الأنام . سيدنا نبيه محمد وعلى آله البررة الكرام . فانى لما فرغت من انتخاب الكتاب الموسوم بالبرق الشامى من انشاء الامام السعيد عماد الدين محمد بن محمد بن حامد الاصفهانى الكاتب رحمه الله طالعت كتابه الموسوم بنُصْرة الفَترة وعُصْرة الفطرة فى اخبار الوزراء السلجقيه فصادفته قد سلك فيه منهجه المعروف فى اطلاق أعنة أقلامه فى مضمار بيانه . واسباغ ازيال القرائن المترادفة من وشائع ما يحبره راقم بنانه . بحيث صار المقصود مغموراً في تضاعيف ضمائر الاسجاع . وربما كان لا يرفع للاصغاء الى بدائعها حجاب بعض الاسماع . فانتخبت منه هذا المختصر الذي هو بعد اشتماله على جميع مقاصد الكتاب محتو على عيون قرائنه البديعة . وزواهر الفاظه الفصيحة . خدمة لملك اجتمع فيه من الفضائل ما تفرق فى جميع سلاطين الأمم . وصار نظاماً لمحاسن يتزين بافرادها سائر ملوك العرب والعجم . مولانا السلطان الملك المعظم ابى الفتح عيسى ابن السلطان الملك العادل ابى بكر ابن أيوب لا زالت معارج دولته راقية في مدارج الاقبال . وعتبات مجده مطمحاً

لعيون الاعظام والاجلال . ومصابيح علومه متوقدة يهتدى بها الشاردون فيخرجون من ظلم الزيغ والضلال . وينابيع أياديه متفجرة يكرع فيها الهائمون فينقعون غلل الآمال . وقد افتتحت به فى شهر ربيع الأول سنة ٦٢٣ مستعيناً بالله تعالى ومستمداً من حوله وقوته ومبتهلا اليه وسائلا اياه ان يوفقنى فى ذلك وفى جميع أمورى بفضله ورحمته وهو حسبي وكفى

ذكر نبذة من بداية حال السلجقية

قال رحمه الله كانت السلجقية ذوى عُـدَدٍ وعَدَدٍ . وأيدٍ ويدٍ .
لا يدينون لاحد ولا يدنون من بلد وميكائيل بن سلجق زعيمهم المبجل .
وعظيمهم المفضل . وقد سكنو من اعمال بخارا موضعا يقال له نور بخارا
وما زالوا فى أنصر شيعة . وانصر عيشة . وهم فى الرعي يكلأون الكلأ . وفى
لربيع يملأون الملأ . لايذعرهم ذاعر . ولا يردعهم داعر . والسلاطين يرعونهم
للملمات ولا يروعونهم . ويدعونهم للمهمات ولا يدعونهم . حتى عبر السلطان
يمين الدولة محمود بن سبكتكين الى بخارا لمساعدة قدر خان فرأى مكيال
ميكائيل يحصى الحصافة معيرا . وصاع مصاعه يأس البسان موفرا . فرغب
فى استرغابه . وانجذب الى اجتذابه . وأراد ان يعبر الى خراسان به وباهله .
وبكنف اكنافها لذى الحفظ والحفيظة بنبله ونبله . وامتنع ميكائيل عليه ومال
عنه ولم يمل اليه فغاظ السلطان تمنعه فقبضه واعتقله . وعبر به وباصحابه الى
خراسان ونقله . وقال له ارسلان الحاجب انى ارى فى أعين هؤلاء عين
الهول . وانهم لمعروفون بالجراءة والقوه والحول . والرأى عندى ان تقطع
أبهام كل من تعبره منهم ليؤمن ضره . ولا يخاف شره . فما قبل خطابه
في هذا الخطب . وقال له انك لقاسى القلب .

فلما اقاموا بخراسان تقربوا الى عميدها أبي سهل أحمد بن الحسن
الحمدونى وأهدوا اليه ثلاثة افراس ختلية . وسبعة اجمال بختية . وثلاثمائة
رأس غنم تركية . وهداه اقبالهم الى قبول الهدية وكانوا سألوه ان يمرجهم
فى المروج . ويسد بمواشيهم مخارم ثلاث الفروج . فعين لهم مروج دندانقان

فقروا بها وبما قاربها . وتحاماها من عداهم وجانبها . وتوفى محمود بن سبكتكين وهو كاره لامرهم . مشفق من وميض جرمهم . مستشف ستر القضاء فى قضية شرهم . وعد أبو سهل الصعب فيهم سهلا . واتخذهم لارتفاقه بهم صحباً وأهلا . ونفد مسعود بن محمود بن سبكتكين عسكراً من غزنة الى خراسان فواقعهم وقتل منهم عدة واسر منهم جماعة حملهم الى غزنه منهم بيغو ارسلان فاستعطفوه فلم يعطف . واستعفوه فلم يعف . ولما غلق رهنهم وتوثق سجنهم . شربوا كأس اليأس وأبدلوا ايناس الناس بايحاش الحاشية . ومشى شحنة طوس لاستياق مالهم من الماشية . وأستلان خشونتهم . واستسهل صعوبتهم . ولما ظن انه آب بالغنم والغنيمة . وبآء بعز العزيمة . ركبوا اليه صهوات الخنَق . وصرفوا نحوه أعنة الخبب والعنَق . حتى لقوه فتركوه لقىً وتبعوا المنهزمين ودخلوا الى طوس فملكوها . وجاسوا خلال ديارها وسلكوها . وتشاوروا فيما بينهم وقالوا هـذا بحر خضناه . وفتح ابتكرناه . وطوس مدينتنا التى تؤوينا . وحصننا الذى يحمينا . فلا نفرج عنها . ولانخرج منها . وشرع أبو سهل الحمدونى فى استدراك ما فرط . واستمساك ما اختبط . وكادوا يجيبونه بالجميل ويجملون فى الجواب . ويميلون بمالأته الى صوب الصواب . فتسرع شحنة نيسابور وتعسر . وجنّد وعسكر . وشن على سرحهم غارة على غرة . ونهض لمنفعة نهضت بمضرة . فركبت السلجقية اليه والى جماعته ارسالا . ونشبوا معهم وشبوا قتالا . وهزموهم وكسروهم وقتلوهم واسروهم وامتدوا الى نيسابور فدخلوها . ووجدوا فى خلوها فرصة فاهتبلوها . وذلك فى شهر رمضان سنة ٤٢٩ وعزموا على مد ايد . ونهب البلد فمنعهم طغرلبك محمد بن ميكائيل بن سلجق وهو اميرهم وكبيرهم وقال لهم

نحن فى شهر حرام لا نهتك حرمته . ولا نهك عصمته . ولا يحصل من النهب ارب وانما تسوء به السمعة ويشيع الشنعة. فنفرت جماعته من مقاله وسخفوا رأيه فى تبيين حرام الفعل وحلاله . فما زال بهم طغرلبك يقول لهم امهلوا بقية هذا الشهر واعملوا ما شئتم بعد الفطر وفى أثناء ذلك وصل اليهم كتاب القائم بأمر الله أمير المؤمنين يخوفهم ويذكرهم بالله ويحملهم على رعاية عبادته وعمارة بلاده فخلعوا على الرسول المعروف بابى بكر الطوسى ثلاثة عشرة خلعة . وتباهوا برسالة الخليفة وازدادوا بها قوة ورفعة .

ولما كان يوم العيد اجتمعوا من القريب والبعيد وهموا بالنهب فركب طغرلبك لمنعهم . وجدّ فى ردعهم . وقال الآن وقد جاء كتاب الخليفة . المفترض الطاعة على الخليقة . وقد خصنا من توليته ايانا بالحق والحقيقة . فلح عليه أخوه جغرى بك داود وأخرج سكينة وقال إن تركتنى والا قتلت نفسى بيدى فرق له وسكنه . وأراه انه مكنه . وأرضاه بمبلغ أربعين الف دينار قسطه . ووزن أهل البلد معظمه . وأدى هو من ماله الباقي وغرمه وجلس على سرير الملك الذى كان لمحمود بن سبكتكين فى نيسابور ونهى وأمر وأعطى وأخذ وأبرم ونقض . وأحكم وفوّض . وجلس يومى الاحد والاربعاء لكشف المظالم . وبسط المعدلة وبث المكارم . وسيّر أخاه داود الى سرخس فملكها . ونهج له طريقة فى العدل فسلكها . وسيّر الى دار الخلافة المعظمة رسولا يعرف بأبى اسحاق الفُقّاعى صبيح البهجة . فصيح اللهجة . بكتاب مضمونه انهم لما وجدوا ابن يمين الدولة مائلا عن الخير والسمو . مشتغلا بالشر والعتو . غاروا للمسلمين وللبلاد . وهم عبيد أمير

المؤمنين فى حفظ البلاد والعباد . وقد سنّوا سنة العدل . وأسنوا سنا الفضل . وبطلوا مراسم العسف . وعطلوا مواسم الحيف . ومضى رسولهم . وقضى سؤلهم . وتواصلت مع مسعود بن محمود بن سبكتكين حروبهم وهزموه فى سنة ٤٣٠ واشتدت منعتهم . وقويت شوكتهم . واستولوا على خراسان وتجاوزوها الى العراق وطرؤا على ملك الديلم . ورموه بالصيلم . وغلبوا الاملاك . وبلغوا الافلاك . واقتسموا البلاد . وطرفوا طرافها والتلاد .

قال وللسلطان طغرلبك محمد بن ميكائيل بن سلجق ولأخيه جغري بك أبي سليمان داود بن ميكائيل بن سلجق من نهر جيحون الى نيسابور ولاخيه من أمه وهو ابن عمه ابراهيم بن نيال بن سلجق قهستان وجرجان ولابن عمه أبي عليّ الحسن بن موسى بن سلجق هراة وبوشنج وسجستان وبلاد الغور

قال وامتدّ طغرلبك الى الريّ وقد كانوا جعلوا له جميع ما يفتحه من هذا الصوب فحمد الرأى بالريّ . ونجزت عدة جدته بمد الليّ . ووجد في دور الديلم دفائن وخزائن . سفرت بها أيامه عن أيامن . فتأثل وتأثث . وورى زندسعده بما ورّث . وقدّم قدامه ابراهيم بن نيال فقرّ بقرميسين وانتزعها من الامير أبى الشوك فارس بن محمد بن عناز وحل بحلوان وتوفى أبو الشوك فى شهر رمضان وذلك سنة ٤٣٧ وفى هذه السنة وزر رئيس الرؤساء أبو القاسم عليّ بن الحسن بن مسلمة للقائم بأمر الله وهي أول سنة ورد فيها الاتراك الى العراق . وانتشروا منها فى الآفاق .

قال وكان عند طغرلبك رسول الخليفة وهو أبو محمد هبة الله بن محمد

ابن الحسن بن المأمون مقيما يدعو الى بغداد ولا يدعه يقيم . ويروم منه صدق القصد ولا يريم . وطال بالحضرة حضوره حتى حرك عزمه فعزم على الحركة واندفع كالسيل . وكسا الملق عجاج فيلقه صبغة الليل . ولم يترك الترك ورداً الا شفهوه . ولا حسناً الا شوهوه . ولا ناراً الا أرثوها . ولا داراً الا شعثوها . ولا عصمة الا رفعوها . ولا وصمة الا وضعوها . وأجفل الملوك من خوف اقدامهم . وتنحوا من طريق ضرامهم . فما جاؤا الى بلدة الا ملكوا مالكها . وملأوا مسالكها . وأرعبوا ساكنيها وأسكنوها الرعب . وغلبوا ولاتها وولوها الغلب . وازروا الى الزوراء . وأشاعوا مد اليد بالغارة الشعواء .

ذكر دخول السلطان ركن الدولة طغرلبك أبي شجاع محمد
ابن ميكائيل بن سلجق الى بغداد في ٢٥ من رمضان
سنة ٤٤٧ ومعه الوزير عميد الملك أبو نصر محمد
ابن منصور الكندري وهو أول وزراء السلجقية

قال : كان حصيفاً نصيحاً رجيحاً نجيحاً متسلطاً بمكانه . متمكناً من سلطانه . يرجى ويخشى . ويقصد ويغشى . والسلطان بأذنه وناظره يبصر ويسمع . وباذنه ونظاره يرفع ويضع . وله البهجة المهيبة . واللهجة المصيبة . وكان مع السلطان طغرلبك يوم وصوله الى بغداد وقد خرج رئيس الرؤساء وزير الامام القائم لاستقبال السلطان ومعه أرباب المناصب . وأصحاب

المراتب • وقاضى القضاة والشهود • والجنود والبنود • فلما وصل الى نهر بين • لقيه صاحب للسلطان من المقربين • وقدم للوزير فرساً وقال هذا مركوب السلطان وقرّبه • فنزل عن بغلته وركبه • وجاءه بعد ذلك عميد الملك أبو نصر الكندرى فى موكب ضخم • ونخر نخم • وقد وقف يتوقع مطامه فلما بصر به قصد عميد الملك أبو نصر أن يترجل فمنعه وتعانقا راكبين • وخلطا الموكبين • ووصل السلطان الى بغداد ونزل على دجلة • عند مسناة عز الدولة • رائع الهيبة • رائق الهيئة • قد ضاقت الارض بجنوده • وضاقت السماء عذبات بنوده • فقبض على الملك الرحيم أبى نصر الديلمى من نسل عضدالدولة وسيره الى الريّ فقطع عليه الاجل الطريق فى طريقها وآذنت جموع ممالك الديلم بتفريقها وقبض عميدالملك أبو نصر الكندرى الوزير الاعز أبا سعد وزير الملك الرحيم • ثم استدام صحبته حين القاه فى الكفاية صحيح الاديم • وأطلقه وأطلق يده فى الحل والعقد والحبس والاطلاق • وعول عليه وفوض اليه النظر فى العراق •

قال : وتوفى فى هذه السنة قاضى القضاة الحسين بن على بن ماكولة فخاطب عميد الملك فى تولية قاضى القضاة ابي عبدالله محمد بن الدامغانى فتسنت قاعدته فى ذى القعدة من السنة • وأحسن العناية به لمعانيه الحسنة • وقال هو قدوتنا بخراسان الموصوف بجميع الألسنة • وحضر عميد الملك الكندرى في بيت النوبة الشريفة • وخص من دار الخلافة بالمنزلة اللطيفة • وانفذت معه برسم السلطان خلع سنيه • وتشريفات سريه • قال : وتقدم طغرلبك ببناء مدينة على دجلة وهى التي جامعها اليوم باق • وكانت حينئذ ذات أسوار وأسواق • قال : ودخلت سنة ٤٤٨ وفى المحرم منها

عقد الخليفة على ابنة أخي طغرلبك ارسلان خاتون خديجة بنت داود بن ميكائيل . وقصد بذلك تعظيمه والتبجيل . ولئلا يجد الاعداء بهذه الوصلة الى قطع سبيل المودة بينهما السبيل .

ذكر الحال فى ذلك

قال : فى المحرم جلس الامام القائم بامر الله أمير المؤمنين . وأحضر عميد الله الكندرى وقدمه على المقدمين . وتقدم اليه باحضار من يجوز احضاره . ويقع عليه ايثاره . فشد وسطه وأخذ دبوساً فى يده . وجرى فى حفظ أداب الخدمة على جده . واستدعى أماثل دولة السلطان فخدموا الخليفة . وشاهدوا السدة الشريفة . ثم شرع رئيس الرؤسآء فى خطبة النكاح . وجاء بها على وفق الاقتراح . واستوعب شرائط الايجاب بالذكر من تسمية المخطوبة والمهر ثم قال : إن رأي سيدنا ومولانا أن ينعم بالقبول فقال الخليفة قد قبلنا هذا العقد بهذا الصداق . فامتزجت الدولتان بالاستحقاق . واستمرت البركة . واستقرت المملكة . قال وفى هذه السنة كانت ولادة المقتدى سحرة الاربعآء ثامن جمادى الاولى وسمى عبد الله وكنى ابا القاسم وامه جارية لذخيرة الدين أبى العباس بن القائم بامر الله وكانت وفاة الذخيرة فى ذى القعدة سنة ٤٤٧ وعمره ١٤ سنة وبوفاته قامت قيامة القائم فانه كان ولى عهده ولم يكن له ولد سواه فلما ولدت جاريته ابناً استجد به جداً وبهاء

ويمناً وامناً وجلس رئيس الرؤساء ثلاثة أيام للهناء . وحضر عميد الملك وجماعة الامراء . قال : وتوفي في هذه السنة عميد الرؤساء أبو طالب بن أيوب عن ٧٠ سنة وقد كتب للخليفه ١٦ سنة . وكانت حسناته سارة وسيرته حسنة .

ذكر عوارض عرضت وحوادث حدثت

قال : كان ابن عم طغرلبك بالموصل وديار بكر وهو قتلمش بن اسرائيل بن سلجق . متسق الأمر . متسع الصدر . فاجتمع البساسيرى وهو أبو الحارث أرسلان وقريش ابن بدران العقيلي ونور الدولة دبيس بن علي بن مزيد الاسدى على حربه . وأوقعوا به وبحزبه . وكانت الوقعه بسنجار ومضى قتلمش الى همذان موليا فانتحى طغرلبك من ذلك وتوجه الى الموصل فاجفل البساسيرى الى الرحبة فاذعنت لطغرلبك البلاد وواتاه الادب . ووافاه العرب . وأطاعه الاميران دبيس وقريش واتصل به أخوه ياقوتى بن داود فزادت قوته . وأرعبت بالناس صولته . وكان على أهل سنجار حاقداً فأنهم مثلوا بقتلى قتلمش وتركوهم بالعراء . وأظهروا الرؤوس على القصب . وأخذوا النفوس بالوصب . فسار طغرلبك الى سنجار واجتاحها واستباحها . وسلب أرواحها وأشباحها . الى أن شفع فيهم ابراهيم بن ينال فعفا بعد أن عفى . وكف بعد ما اكتفى . قال : وفى هذه السنة مات أبو العلاء المعرى .

ذكر عود السلطان الى بغداد وحضوره بين يدى الخليفة

قال : وعاد الى بغداد ظافر اليد وافر الايادي وجلس له الخليفة يوم السبت ٢٥ من ذى القعدة فركب دجلة مجريا طياره فى تيارها . حتى وصل الى باب الرقة من السدة الشريفة ودارها . وقدم له فرس فركبها ودخل راكبا الى دهليز صحن السلام . وحصن الاسلام . ثم نزل ومشى والامراء بين يديه بغير سلاح يمشون الى حيث الجلالة مقيمة . والدلالة بالقائم قائمة . والرسالة ملائمة . والأمامة دائمة . والنبوة مستمرة الأرث . والمروة مستقرة البث . وستارة البهاء مسدولة على البهو . وطهارة الانتماء مجبولة بالزهو . والقائم بامر الله جالس من وراء الستر على سدة مشرفة مشرقة فى ايوان منه للجلال ايواء . ودار أرضها للاقبال سماء . وعلى كتفه وبيده البردة والقضيب النبويان . وهما بماء الطهر المحمدى رويان .

ولما قرب طغرلبك من المقر الاشرف . والمرقى المسجف . ورفعت ستارة البهو وانار وجه الخليفة كالقمر فى سدفة السدة الشريفة أدي الفرض . وقبل الأرض . ثم مثل قائما للقائم . ووقف لترقب مايقف عليه من المراسيم . وصعد ريس الرؤساء الى سرير لطيف فقال له الخليفة اصعد ركن الدولة اليك ومعه محمد بن المنصور الكندري مفسراً ومترجماً . ومعرباً عنه ما كان معجما . ثم وضع لطغرلبك كرسى جلس عليه . وفسر عميد الملك له تفويض الخليفة اليه . ثم قام طغرلبك الى مقام الرفعة . ومكان الخلعة . واحتبى بعز الاحتباء . واجتاب خلع الاجتباء . وتوج وطوق وسور وأفيضت عليه

سبع خلع سود فى زيق واحد اتخذت له بها مملكة الاقاليم السبعة وشرف بعمامة مسكية مذهبة تجمع له بين تاجى العرب والعجم . وسما بهما وتسمى بالمتوج والمعمم . وقلد سيفاً محلى بالذهب . فخرج فى أحلى الحلى وأهيب الاهب . وعاد وجلس على الكرسى . ورام تقبيل الأرض ولم يتمكن لموضع التاج الخسروى . وسأل مصافحة الخليفة فاعطاه يده دفعتين . فقبلها ووضعها على العين . وقلده سيفاً آخر كان بين يديه فتم له بتقليد السيفين تقلد ولاية الدولتين فخاطبه بملك المشرق والمغرب واحضر عهده وقال هذا عهدنا يقرأه عليك محمد بن منصور ابن محمد صاحبنا ووديعتنا عندك فاحفظه واحرسه فانه الثقة المأمون وانهض فى دعة الله محفوظاً . وبعين الكلاءة ملحوظاً . قال ولابى الفضل صردرّ فى عميد الملك من قصيدة

ملك اذا ما العزم حث جياده * مرحت بازهر شامخ العرنين
بأغر ما أبصرت نور جبينه * الا اقتضانى بالسجود جبينى
عمت فواضله البرية فالتقى * شكر الغنىّ ودعوة المسكين
لو كان فى الزمن القديم تظاهرت * منه الكنوز الى يدى قارون

قال: وفى سنة ٤٥٠ انتقض على طغرلبك أمر الموصل فقد كان استخلف بها الاميرين أردم وباتكين فقصدهما البساسيرى وقريش بن بدران وحاصراهما أربعة أشهر واخرجاهما بأمان فعاود طغرلبك الخروج الى الموصل لطب الداء المعضل ونصب بنصيبين مضاربه فخالفه ابراهيم بن ينال خالعاً للطاعة ومضى الى همذان ناويا للمناوأة فسار السلطان وراءه من نصيبين الى همذان فى سبعة أيام ونفذ وزيره عميد الملك وزوجته خاتون الى مدينة السلام ثم كتب اليهما يستدعيهما فتمسك بهما الخليفة . وتواترت الاراجيف

الخليفة . فتارة بوصول البساسيرى وتارة بانهزام السلطان من أخيه

قال : وشرع عميد الملك الكندرى فى أخذ العهد بالمملكة لانوشروان ابن خاتون . وأنفق من ماله الظاهر والمخزون . فما وفقا . ولا استوثقا . وأرادت خاتون القبض عليهما فهربا فاما عميد الملك فانه انحدر الى الأهواز . وأمن عند هزارسب بن بنكير بن عياض من الاعواز . وسارت خاتون تطلب السلطان . ولحق بها ولدها أنوشروان . وذلك في سنة ٤٥١ وفى هذه الفترة تمت فتنة البساسيرى ودخل الى بغداد سادس ذى القعدة سنة ٤٥٠ وخرج سادس عشر ذى القعدة سنة ٤٥١ وكانت سنة سيئة كادت تكون لنور الله مطفئة فانه دعى الى الدعىّ بمصر مصراً . ولم يجد الخليفة بمقره من دار الامامة مقراً . وحصل من تلك الحادثة بالحديثة . وتوالت منه الى طغرلبك امداد كتبه ورسله المستصرخة المستغيثة . وهو مشغول بحرب أخيه . مهموم بما هو فيه . مغلوب الجند . مسلوب الجد

قال : وصلب البساسيرى رئيس الرؤساء وأبا محمد بن المأمون رسول الخليفة فى استدعاء السلطان طغرلبك وقتل أصحاب قريش بن بدران عبد الرزاق أبا نصر احمد بن علىّ واختل نظام الاسلام . واعتلت دار السلام . وطالت غربة الامام . وهالت كربة الانام . الى أن استنجد السلطان أولاد أخيه الب ارسلان وياقوتى وقاورد بني داود وهو بالرىّ فأنجدوه وأسعفوه واسعدوه فخرج بهم الى ابراهيم بن ينال بهفتان بولان فكسره ثم وجده وقد وقف به فرسه فأسره وخنقه بوترلوتره وحنقه واستراح من حث ذميله اليه وعنقه وعاد سعده وسعد عيده . وكثفت عدّته وكثر عديده . وسار اليه عميد الملك وجهزه هزارسب جهازمثله . وأفضل عليه افضله . ولم يبق لطغرلبك بعدها

همٌّ سوى رد الخليفة الى داره . واظهار قره من سراره . ورحل نحو بغداد فأحس البساسيري بريحه . وأيقن بتياره ووقع فى تباريحه . ولما قربت العساكر السلجقية من بغداد بعد وقامت قيامته وما قعد وكان الخليفة بحديثة عانة فطالبه قريش بن بدران من ابن عمه مهارش بن مجلى فحماه . وما أباح حماه .

قال: وخرج مهارش بالخليفة الى تلعفر فقصد بدر بن مهلهل ومعه الفقيه ابن فورك وقد تيمن به وتبرك . وهناك فاز من وحد وهلك من أشرك . ولما وصل السلطان الى بغداد سير الى الخليفة عظماء مملكته وصدر وزارته عميد الملك وأنوشروان بن خاتون ومعهم المهد والسرادق . والخيل السوابق . ولما مثلوا بالحضرة الشريفة . وشاهدوا أحوال الخليفة . أراد عميد الملك أن يكتب الى السلطان كتاباً بشرح الحال . وبوصف ما اجتلاه من المهابة والجلال . ولم يكن بين يدى الخليفة دواة . ولا اداة للكتابة مسواة . فأحضر من خيمته دواة عليها من الذهب الف وسبعمائة مثقال وأضاف اليها سيفاً ذافرند وصقال وقال هذه خدمة محمد بن منصور أصغر الخدم . وقد جمع فى هذه الدولة بين خدمة السيف والقلم . وأحسن الخليفة قبوله وخطابه . وتوج بخطه الشريف كتابه . ولما وصل الخليفة الى النهروان . وصل اليه السلطان . وتباشرت بقدومه الاوطار والاوطان . واستأذنه عميد الملك فى حضور السلطان فأذن ودخل وقبل الارض سبع مرات وأتى من أدب الخدمة الممكن وقدم له الخليفة مخدة من دسته وقال اجلس فقبلها وجلس . وآنسه فأنس . وجعل عميد الملك يفسر لهما ويترجم . ويعرب ويعجم . والسلطان يعتذر عن تأخره وتراخيه . بما شغله من وتر أخيه . فمهد عذره . وحمد ذعره . وقلده الخليفة سيفاً تبرك به وكان قد خرج معه من الدار .

وذلك يوم الاحد الرابع والعشرين من ذى القعدة واستقر أن يدخل الى الدار غداً . ويعيد بعوده عيش الاسلام رغداً . فلما أصبح السلطان تقدم الى باب النوبى وجلس مكان الحاجب فلما قرب الخليفة قام وأخذ بلجام بغلته . ومشى فى خدمته الى باب حجرته . وذلك يوم الاثنين الخامس والعشرين من ذى القعدة سنة ٤٥١ فعادت الانوار الى الطلوع . والانوار الى الهموع . وحل الشرف فى موطنه . وفاض الكرم من معدنه .

قال : وهرب البساسيرى الى حلة دبيس بن علىّ بن مزيد وقد ولت سعادته فهو مطلق فى زىّ مقيد . فسير السلطان وراءه عسكراً مقدموه سرهنك ساوتكين وأنوشروان وخمارتكين الطغرائى وأردم وأنفذ معهم ابن منيع الخفاجى فواقعوا البساسيرى وأوقعوه ووقع فى فرسه سهم رميت به فرمته . وحام حوله حماته فما حمته . وصادفت وجهه ضربة أدمته . وكمش كمشتكين العميدى فأسره ثم احتز رأسه وحمل الى بغداد وعلق قبالة باب النوبى وزالت بزواله نوبة النبوة الحالّة بالمحل النبوى واستقام الامر . وأرّج النشر . وتولت النعماء . وتوالت النعماء . وكان طغرلبك بواسط فقدم بغداد فى صفر سنة ٤٥٢ فعمل له الخليفة فى روشن التاج سماطا . وأحضر عليه من أكابر دولته رؤساء وأوساطاً . ثم عمل للسلطان فى ثاني ربيع الاول سماطاً آخر . فاضل به مَن قبله من الملوك وفاخر . وتوجه فى خامس الشهر الى الجبل ودخل عميد الملك الى الخليفة فأقامه فى موضع الاصطفاء . ولقبه سيد الوزراء

قال : وفى سنة ٤٥١ احترقت ببغداد دار الكتب التى وقفها الوزير شابور ابن أردشير بين السورين وأخذ عميد الملك ما سلم من النار وكان أحد الحريقين وتوفيت فى ذى القعدة سنة ٤٥٢ خاتون زوجة السلطان بزنجان

قال : ولما رحل السلطان استصحب معه ارسلان خاتون ابنة أخيه زوجة الخليفة فلما استقر بالرىّ . عزم على نشر ما كان من رغبته فى الطىّ . وسير قاضى الرىّ ابا ساعد صاعداً الى دار الخلافة رسولا . وضمّن رسالته فى خطبة السيدة ابنة القائم سؤالا وسؤلا . وذلك فى سنة ٤٥٣ فندب الخليفة للجواب ابا محمد ابن التميمى للاستعفاء، وانه لم تجر بهذا سنة الخلفاء ثم قيل له ان عدمت فى الاستعفاء الوسائط فاطلب صداق ثلثمائة الف دينار واعمال واسط فلما وصل ابن التميمى أعلم عميد الملك بالحال فقال اما الاستعفاء فلا يحسن مع رغبة السلطان وضراعته فى السؤال . واما طلب المال والاعمال . فيقبح لانه يفعل اكثر مايدور فى خواطر الآمال . والصمت اولى من هذا المقال . فخلنى أخل سرك من هذا السر . ودعنى اتول هذا الامر . فقال ابن التميمى الامر اليك . والاعتماد عليك . والصواب ماتدبره والتدبير ماتستصيبه . وانت اعرف بما تخاطب به صاحبك وبما تجيبه . فقال عميد الملك للسلطان ان القضية قد تسهلت . وان العقدة قد تحللت . وان المنية قد امكنت . وان البغية قد تمكنت

فأشاع السلطان خطبته . واذاع رغبته . وتقدم الى عميد الملك بالمسير مع ارسلان خاتون بنت أخيه زوجة الخليفة الى دار الخلافة واستصحب ماجاوز حد الكثرة من الدنانير المبدرة والجواهر المثمنة وسير معها عدة من الاكابر وذوى العلى ومن عظماء الديلم فرامرز بن كاكويه وسرخاب بن كامرْوا وكان قد وزّر للخليفة فى تلك السنة مجد الوزراء ابو الفتح منصور بن احمد بن دارست فخرج لتلقى الواصلين الى قرب النهروان والتقى هو وعميد الملك وهما راكبان ودخل عميد الملك بغداد وجلس على باب النوبى فلما وصلت خاتون سار فى خدمتها الى دارها ثم حضر بيت النوبة وأخذ دواة الوزير بن دارست وأنهى

حضوره وحضور الامراء الذين معه . وادى من الرسالة ماأودعه . فنفر الخليفة وغضب . وغاض ماء بشره ونضب . وقصد الامتناع ومنع المقصود . وسد الباب ولم يفتح الباب المسدود . فشرع عميد الملك يتكلم بكل فن . ويقعقع بكل شن . ويقول ما بالكم افترحتم . ثم امتنعتم . وفيم ذهبتم الى أبعد غاية فى الطلب ثم رجعتم . وقد خاطرتم عند السلطان بدمى . وازلتم عما قدمتم من التقدم قدمى . فأخرج الى النهروان مضاربه وخلع الاهبة السوداء ولبس البياض فاستوقفه ابن يوسف وقاضى القضاة . ليستنزلوه من المضارة الى المراضاة . وما زالا يتلطفان به حتى حضر بعد ذلك عند الخليفة دفعتين ومعه جماعة من الامراء والحجاب والقضاة والشهود . وبالغ فى الخطاب وبذل المجهود . وذلك فى جمادى الآخرة سنة ٤٥٣

وقال الخليفة « نحن بنو العباس . خير الناس . فينا الامامة والزعامة . الى يوم القيامة . من تمسك بنا رشد وهدى . ومن ناوأنا ضل وغوى » وكان الخليفة قد كتب الى عميد الملك نحن نرد الامر الى رأيك ونعول فيه على امانتك وديانتك فقال عميد الملك أسأل مولانا أمير المؤمنين التطول بذكر ما شرف به الخادم الناصح شاهنشاه ركن الدين فيما رغب فيه وسمت نفسه اليه وأراد أن يقول الخليفة ما يلزمه من الاجابة ففطن لذلك وغالطه وقال قد سطر فى الجواب ما فيه كفاية فانصرف عاتباً . وذهب مغاضبا . وراح راجلا ورد المال الى همذان . وأخبر بالحال السلطان . وكان الخليفة قد كتب الى خمارتكين الطغرائى يشكو من عميد الملك والحاحه فكتب فى جوابه يشير بالرفق والتلطف . وينص على التثبت والتوقف . فنسب عميد الملك قطع الحديث فى الوصلة الى مخامرة خمارتكين فتغير السلطان عليه فرهب وهرب . وتسرع

وتسرب . وكتب السلطان الى قاضى القضاة والشيخ أبى منصور بن يوسف بالعتب الممضّ . والخطب المقضّ . وقال هذا جزائى من الامام القائم وقد قتلت اخى فى طاعته . ووهبت عمرى لساعته . وانفقت اموالى فى خدمته . وطلبت فقرى لثروته . فما باله مابالى بردّ قولي . وقال بردّى . وصدّ قصدى . وقصد صدى . وكتب الي عميد الملك بان يقبض الاقطاعات ولا يترك للخليفة الا ما كان باسم الامام القادر قديماً . وان يكون لمعارضة أسبابه مستديماً . فحضر العبيد رئيس العراقين بيت النوبة وعرض الكتب . واعاد العتب . فخرج جواب الخليفة ما رجونا من ركن الدين ماصنع . وما توقعنا ما وقع . وبين يديك الاقطاعات فاقطعها . وقد ارتفعت الموانع فامنعها

قال : وخرجت السنة والوحشة القائمية قائمة . وعين التأنيس عن ازالة أسبابها نائمة . فلما دخلت سنة ٤٥٤ أجاب الخليفة فى المحرّم منها الى الوصلة وكتب وكالة باسم عميد الملك شهد فيها قاضى القضاة وابن يوسف بما سمعاه من تلفظه بالاجابة . وضبطت الشهادات بالكتابة . وسير أبو الغنائم بن المحَلبَان فى الرسالة . واستصحب كتاب الوكالة . فسر السلطان واحتفل . ووفى له القدر بما كفل . وعقد العقد فى ظاهر تبريز بالمخيم وكان رئيس العراقين بالمعسكر فأعيد الى بغداد فى صحبة ابن المحلبان وسيرت على يده الهدايا وأصحبه برسم الخليفة ثلثين غلاما وجارية أتراكا على ثلثين فرساً وخادمين وفرساً بمركب ذهب وسرج مرصع بالجواهر الثمينة وعشرة آلاف دينار وبرسم السيدة عشرة آلاف دينار وتوقيعاً بيعقوبا وما كان لخاتون المتوفاة بالعراق وعقداً فيه ثلثون حبة كل لؤلؤة مثقال وبرسم عدة الدين خمسة آلاف دينار . وبرسم السيدة والدة المخطوبة ثلثة آلاف دينار وذلك فى شوال من السنة فلما قرب

رئيس العراقين من بغداد تلقاه الناس واستبشروا بانتظام الالفة بين الامامة والسلطنة فلما وصل الى باب النوبي نزل وقبل الارض . ثم وصل الى باب ارسلان خاتون زوجة الخليفة وأدى من خدمتها الفرض . وأوصل اليها ما حمله فتولت تسليمه . وباشرت عرضه بالمقام النبوى وتقديمه

ذكر سبب تولى ابن دارست وزارة الخليفة الى حين انصرافه

قال: كانت وزارته فى سنة ٤٥٣ وسبب ذلك ان الخليفة لما عاد الى الدار عدم الوزير . وفقد من يتولى التدبير . فحدث رأيه بأنه يستخدم رجلا خدمه بالحديثة وهو ابو تراب الاثيرى وقد وجده أثير الأثر فلقبه حاجب الحجاب عن الامة . واستخدمه فى الانهاء وحضور المواكب وتنفيذ الاوامر المهمة

قال: وكانت بين ابن يوسف وبين الاثيرى وحشة حملت ابن يوسف على أن ذكر ابن دارست وقرّظه وقال انه مع أمانته يخدم بغير اقطاع ويؤدى مالا فمضت الكتب اليه وهو فى شيراز باستدعائه . فقدم الجواب باستعفائه فخرج اليه ابن رضوان ومعه ظفر الخادم لاستقدامه . وقوى عزمه أبو القاسم صهر ابن يوسف فورد بقوة اعتزامه . وكتب عميد الملك عن السلطان الى الخليفة بأنه كاره لاستقدامه واستخدامه لاملاقه مع ثروة المال من الكفاية وإعدامه . فأجاب الخليفة انه مع وصوله الى واسط ومفارقته وطنه لا يجوّز رده . ولا يخلف وعده . وقدم بغداد ثامن ربيع الاول سنة ٤٥٣ ووصل الى

الخليفة فى منتصف شهر ربيع الآخر وأُفيضت خلع الوزارة عليه. وافيضت مع الوزارة الامور اليه. وبقي فى المنصب منتصباً الى رابع ذى الحجة سنة ٤٥٤ فانه صرف من تلك المراتب بل ترك الخدمة مستعفياً. ولرقة جاهه مستجفياً. قال: وكانت وفاته بالاهواز حادى عشر شعبان سنة ٤٦٧

ذكر حوادث فى هذه السنين

قال: فى سنة ٤٥٠ توفى القاضى أبو الطيب طاهر بن عبدالله بن طاهر الطبري ببغداد عن مائة سنة وستين وكان صحيح السمع والبصر سليم الاعضاء يناظر ويفتى ويستدرك على الفقهاء وحضر عميد الملك الكندري جنازته ودفن بالجانب الغربى عند قبر الامام أحمد ابن حنبل

قال: وفى آخر هذه السنة توفى أقضى القضاة أبو الحسن علىّ بن محمد ابن حبيب الماوردي وقد كان فى العلم بحراً زاجراً. وفى الشرع بدرا زاهرا. قال «بسطت الفقه فى أربعة آلاف ورقة (يعنى الحاوي) واختصرته فى أربعين» (يعنى الاقناع) فيا لهما من بحرين نضبا. وبدرين غربا. وطودين وقما. وجودين. أقلما.

قال: وفى سنة ٤٥٣ توفى قريش بن بدران وتولى ولده مسلم امارة بني عقيل وتوفى فى شوالها نصر الدولة أبو نصر بن مروان بميافارقين عن نيف وثمانين سنة وفى يوم عرفة من سنة ٤٥٤ وزر فخر الدولة أبو نصر محمد ابن

محمد بن جهير للخليفة وسبب ذلك انه كان مقيما بميافارقين عند ابن مروان في جاه وعز آمرّ ناه فسمت همته وعلت سعادته . وكتب الى الخليفة يرغب في زيارته لوزارته وانه يبذل بذلا ويحمل حمولا فندب اليه من دار الخلافة نقيب النقباء الكامل أبو الفوارس طراد بن محمد الزينبي وقرر ما أراد تقريره . ودبر ماشاء تدبيره . فخرج من ميافارقين عند انفصال نقيب النقباء ليودعه وسار معه . وفات ابن مروان ولم يلحقه لما تبعه . وخرج الناس عند وصوله الى بغداد لاستقباله ونزل بالحريم الطاهري ومكث ثمانية أيام حتى جاوز الكسوف . ونشق نشر العز المشوف . وتيمن بيوم عرفة فحضر بيت النوبة وقد أسعدته السعادة . واجتمع هناك من طبقات الناس من جرت به العادة . واحتفل له الخليفة بالجلوس وطلع نور اليمن من أفقه . وقرأ أمين الدولة أبو سعد ابن الموصلايا توقيعاً خرج في حقه

ذكر وصول السلطان طغرلبك الى بغداد

قال رحمه الله : فى محرم سنة ٤٥٥ توجه السلطان الى بغداد من أرمية بعزم الدخول على الزوجة وخرج فخر الدولة بن جهير وتلقاه بالقفص فى الموكب الاعظم والابهة الباهرة . والاهبة الزاهرة . ونزل عسكره بالجانب الغربى فزادت به الازية . وارتاعت الرعية . ووصل عميد الملك الى السدة الشريفة مطالباً بالشريفة السيدة فوقعت الاجابة فى نقل الجهة الى دار المملكة . ونزلت منها فى الهجرة الشرقية باليمن والبركة . وزفت فى ليلة النصف من صفر وجلست على سرير ملبس بالذهب . يخطف النواظر منه أشعة الذهب . ودخل اليها وقبل الارض وخدمها وجلس بازائها على سرير ملبس بالفضة وقد كان انفذ لها مع بنت اخيه زوجة الخليفة عقدين نفيسين ثمينين . وجاما خسروانيا من ابريز العين . وفرجية من نسيج الذهب مكللة بالحب . وصارت نفسه لها موكلة بالحب . وظهر منه بها سرور . وسره منها لشرفه ظهور . وبقى مدة اسبوع يهب ويخلع . ويمنح ولا يمنع . وخلع على عبيد الملك وعلى الامراء . وأفاض التشريفات على الاكابر والعظماء . فقد كان ورد معه الى بغداد أبو على ابن الملك أبي كاليجار وهزارسب وفرامرز بن كاكويه وسرحاب ابن بدر بن مهلهل فما منهم الامن أفيضت عليه الخلع الرائقة . وأضيفت له المطايا اللائقة .

قال : وحضر عميد الملك فى تاسع شهر ربيع الاول بيت النوبة . واستأذن

للسلطان فى الأوبة . وان يستصحب السيدة والخاتون . وذكر أنهم بعد مضيهم عن قريب آتون . فأذن فى ذلك الخليفة وكانت ارسلان خاتون قد حملت من اطراح الخليفة لها غماً . وأما السيدة فقد كره الخليفة مسيرها فلما مضت أمضت بألم فراقها . وومضت لامل رفاقها . ولما انفصل السلطان عن بغداد اذن لهذارسب فى المضى الى الاهواز . مرعياً بالاعزاز . فأنه مكث على بابه ثلث سنين لا يؤذن له فى الانفصال . ولا يؤذن اربه المفارق بالوصال . وعقد ضمان بغداد على ابى سعد القاينى بثمانية وخمسين الف دينار فاعاد كل ما أبطله رئيس العراقين من ضر الضرائب . وشر النوائب . وقد كان هذا يتولى مطبخ عميد الملك وهو استاذ داره . فجرى المقدور برفع مقداره .

ذكر وفاة السلطان طغرلبك بالرىّ

قال : وفى يوم الجمعة ثامن شهر رمضان سنة ٤٥٥ توفى طغرلبك بالرىّ فاضطرب بهلكه الملك وبلغ عميد الملك نعيه وهو على سبعين فرسخا من الرىّ فقطعها فى يومين اشفاقاً من تشويش يتم . وتشوير يتم . فوصل وهو بحاله لم يدفن ولم يقبر فتولىّ دفنه وتوخى سكون الخلق وأمنه ومنع الغلمان من شق الثياب . وأخرج جميع ما كان يملكه على العسكر حتى الدواب . وأجلس سليمان بن داود ابن أخى السلطان وكانت أمه عنده ونصّ عمه عليه . وقرر الامر له وفوضه اليه . فسكنت الممالك . وأمنت المسالك .

ذكر سيرة طغرلبك رحمه الله

قال : كان كريماً حليماً محافظاً على الطاعة . وصلاة الجماعة . وصوم الاثنين والخميس وكان يلبس الواذاريّ والبياض . وأشبهت أيامه بمحاسن سيرة الرياض . وكان لا يرى القتال ولا يسفك دماً . ولا يهتك محرماً . وكان شديد الاحتمال . سديد الافعال . حكى عنه أقضى القضاة الماورديّ أنه توجه فى رسالة القائم اليه فى سنة ٤٣٣ فكتب فيه كتاباً ضمنته الطعن عليه والقدح فيه . وغمط محاسنه وبسط مساويه . ووقع الكتاب من غلامى فخل اليه فوقف عليه ثم ختمه وكتمه ولم يتغير عن عادة اكرامي . وشيمة احترامى . قال : وكذلك ذكر أن بعض خواصه كتب ملطفات الى الملك ابى كاليجار . يطلعه فيها على بعض الاسرار . فوقعت فى يده فاخفاها . وداوى هفوته بحلمه وشفاها . وكان كثير الصدقات حريصاً على بناء المساجد متعبداً متهجداً . ويقول استحى من الله أن أبنى داراً ولا أبنى بجنبها مسجداً

قال : وحكي عميد الملك أنه لما مرض قال انما مثلى فى مرضى مثل شاة تشد قوائمها لجز الصوف فتظن انها تذبح فتضطرب حتى اذا أطلقت تفرح ثم تشد قوائمها للذبح فتظن أنها لجز الصوف وتسكن فتذبح وهذا المرض شد القوائم للذبح وكان كما قال . قال : وتوفى وعمره سبعون . قال : وحكي عميد الملك أن طغرلبك قال له رأيت منامي فى مبتدا أمرى بخراسان كأنى رفعت الى السماء وقيل لى سل حاجتك تقض فقلت ما شئ أحب اليّ من طول العمر فقيل عمرك سبعون . قال : قال عميد الملك وكنت سألته عن السنة التى ولد

فيها فقال السنة التى خرج فيها الخان القلانى بما وراء النهر فلما توفى حسبت المدة فكانت سبعين سنه كاملة . قال : ولما وصل خبر وفاته الى بغداد جلس الوزير فخر الدولة ابن جهير للعزاء به في صحن السلام فى السادس والعشرين من شهر رمضان

ذكر جلوس السلطان عضد الدولة الب ارسلان أبي شجاع محمد بن داود بن ميكائيل بن سلجق

قال : توفى أبوه داود ببلخ سنة ٤٥٠ وقام مقامه ولما خطب لاخيه سليمان بالري بعد وفاة طغرلبك مضى ارسغن وأردم الي قزوين وخطب لالب ارسلان وبلغ عميد الملك ذلك فاقام الخطبة بالرىّ لالب ارسلان وبعده لسليمان . وأقبل عضد الدولة الب ارسلان من نيسابور . يطوى السهول والوعور . وأقبل اقبال الضيغم الضارى . وأقدم اقدام للخضم الجاري . وكان ابن عم أبيه قتلمش بن اسرائيل في كردكوه وقد طمع فى الملك . ولم يعلم أن ذلك يورطه فى الهلاك . فعارضه في جموعه فتقابلا وتقاتلا وأنجلت المعركة عن قتل قتلمش وكانت منيته في عثور الفرس به . وقتل الب ارسلان من التركمان عدة وافرة . وحاز من أموالهم غنيمة ظاهرة . وساق حتى وصل الى خوار الرىّ ظافر الجند . ظاهر الجدّ . ومعه وزيره نظام الملك أبو علىّ الحسن بن على بن اسحاق الطوسىّ فتلقاه عميد الملك فى حشمه وخدمه . وكوسه وعلمه . وعربه وعجمه . وأجلسه على السرير . وجرى

على عادته معه فى التدبير . فغار نظام الملك من استقلاله . واحتال مدة فى قبضه واعتقاله . فلما كان فى محرم سنة ٣٥٩ زار عميد الملك نظام الملك زيارة ايناس واعتذار . وترك بين يديه منديلافيه خمسمائة دينار . فلما انصرف من حضرته . سار أكثر العسكر فى خدمته . فتخوف السلطان من عاقبة ذلك ومغبته . فأمر بقبضه وأنفذه الى مرو الروز ومكث سنة فى الاعتقال بها ثم سير اليه غلامين فدخلا عليه وهو محموم . وأخبراه بأن قتله أمر محتوم . وأنظراه حتى اغتسل وتوضأ وتاب ودخل لوداع أهله وخرج الى مسجد فصلى ركعتين . واستسلم للقضاء المقدّر بالحين . ووجد الغلظة من الغلامين . وضرباه بالسيف وأخذا رأسه وحملاه الى السلطان بكرمان وأما جثته فانها لفت فى خرقة كانت لفافة البردة النبوية كان استهداها من الخليفة . وفي قميص دبيقى من ملابس القائم الشريفة . وقبر فى قبر أبيه بكندر . وكانت مدة وزارته ثمانى سنين وشهورا . ولم يزل موسم جاهه فيها مشهوداً مشهوراً . وكان عمره نيفاً وأربعين سنة . وكانت محاسنه مفضلة وفضائله محسنة . لكنه لكنه تهوره وتهوينه . وغاية غيّه فى سوء التدبير وتوهينه . قصرت يده الطولى عن استمالة القلوب الجافية . واستلانة الخطوب الآبية . قال : وكان يرجع الى حسب ونبل . وأدب وفضل . وهو الذى يقول

الموت مرّ ولكننى اذا ظمئت ❊ نفسى الى المجد مستحل لمشربه
رئاسة باض فى رأسى وساوسها . ❊ تدور فيه وأخشى أن تدور به

قال : وكان خصياً وسبب ذلك ان طغرلبك انفذه فى ابتداء حاله . وريعان اقباله . ليخطب امرأة فزوّجها لنفسه وعصاه . ولما ظفر به اقره على خدمته بعد ان خصاه . وكان حنفىّ المذهب كثير التعصب لمذهبه والذهاب

مع عصبه . ثم فارق التعصب وجمع بين العصابتين . وحسن رأى اجتهاده في الاصابتين . وكان سبب معرفته بطغرلبك انه لما ورد نيسابور افتقر الى كاتب يجمع فى العربية والفارسية بين الفصاحتين فدله عليه الموفق والد أبى سهل فظفر منه بشاب فى رأى كهل

ذكر نظام الملك

قال : ولما صرف عميد الملك وعزل . ونقل الى حيث اعتقل . استوى أمر نظام الملك وبزغت بالسناء شمسه . وبلغت المنى نفسه . وعلا علمه . وجرى قلمه . وترفعت وسادته . وتفرعت سيادته . ومضت مضاربه . ومضت سحائبه .

ذكر ماجرى لألب ارسلان بعد ملكه

قال رحمه الله: كان قاورد بن داود أخوه قد استولى على كرمان فى زمان عمه طغرلبك فى سنة ٤٤٧ وملك شيراز فى سنة ٤٥٥ وقتل كل ديلمى بها وسفك وهتك . وبطش وأوحش . وخالف أخاه الب ارسلان . واعتصم منه بمدينة برد شير بكرمان . فسار اليه الب أرسلان وآمنه وأخذ قلعة اصطخر وأتاه مستحفظها بتحف فيروزج وكأس زمرد لم ير مثلها . وشمل بلادفارس احسان الدولة وعدلها.

قال : ووصل اليه شرف الدولة أبو المكارم مسلم بن قريش فى سنة ٤٥٧ فأكرم وفادته . وأكثر افادته . وأجرى فى اقطاعه هيت والأنبار وحربى والسن والبوازيج ووصل شرف الدولة هذا الى بغداد فى شهر ربيع الآخر سنة ٤٥٧ فتلقاه الوزير . فخر الدولة ابن جهير . وألفى من اقباله عليه خير ظهير . قال : وأوغل السلطان فى بلاد الخزر من طريق نخجوان . وكثر لاعانة الايمان ونصره الانصار والأعوان . والجأ ملك الابخاز بقراط ابن كيوُرَكى الى طلب هدنته . وعرض ابنته . فتزوج بها وهادنه . وقبل بذله وامنه . ثم طلق الملكة الكرجية وزوجها لنظام الملك وزيره وسار وفتح بلد آنى وعنت له البلاد . واذعنت العباد . وسرّي البأس وسرّ الناس .

ذكر وصول شرف الملك أبي سعد محمد بن منصور بن محمد مستوفى المملكة الي بغداد

قال : وكان وصوله الى بغداد فى صفر سنة ٤٥٩ وقد كان جليل النسب. جلى الحسب. وما تولى للسلجقية مثله كرماً وخيراً وفضلا كثيراً وغنى وغناء. وسنا وسناء. قال عماد الدين رحمه الله: وكان جدى لامى أمين الدين علىّ المستوفى رحمه الله كاتباً له فى ريعان عمره. وعنفوان أمره. الى ان صار بعد كاتبا لخزانة السلطان محمد بن ملكشاه وكان يحدثني فى صغرى وهو شيخ كبير عن شرف الملك بكل ما يدل على سيادة نفسه ونفاسة سودده. وذكر أنه كان مع فضله ذا تفضل. ومع اجماله ذا تجمل. وحكى أنه كانت له ثلثمائة وستون كسوة مكملة. مفضلة معزلة على عدد أيام السنة من الملابس الفاخرة فيلبس كل يوم ما يناسبه من أيام الفصول الاربعة. فاذا خلع منها أو وهب. أعاد خازنه الى الخزانة عوض ما ذهب. فلما وصل الى بغداد حضر بيت النوبة فى ثانى عشر صفر فبشر باقباله سفيرا وجه القبول. وسفر وخدم الخليفة بمصحف جليل وقطعة بلخش فى منديل. وأوصل كتاب السلطان فى خريطة سوداء. وسرّ الاودّاء. وساء الاعداء. قال : ووجد نواب نظام الملك الوزير قد شرعوا فى بناء المدرسة فاغتنم اقداره على الاقتداء وبنى على ضريح ابى حنيفة رحمه الله بباب الطاق مشهداً ومدرسة لأصحابه. وأعلم بعلمها ثوب ثوابه. قال : وكتب الشريف أبو جعفر البياضىّ على القبة

ألم تر هـذا العلم كان مشتتاً * فجمعه هذا المغيب فى اللحد
كذلك كانت هذه الارض ميتة * فأنشرها فضل العميد ابى سعد

قال : ووصلت ارسلان خاتون زوجة الخليفة الى بغداد فى مستهل جمادى الاولى سنة ٤٥٩ واستقبلها الوزير فخر الدولة على فراسخ . وجلا بفجر فخره السافر وطود وقاره الراسخ . ووقفت موكبها له عند القرب من الالتقاء . وخدمها على ظهر فرسه بالدعاء . وأقبلت وقبلت . ودخلت وخلت وعادت الى عادة السعادة . ووافت للزيادة . للأيفاء على الزيادة .

ذكر حوادث طوارئ وطوارق واتفاقات وموافقات

قال : فى شهر رمضان سنة ٤٥٨ توفى محمد بن الحسين بن الفراء شيخ الحنابلة . وناهج طريقهم السابلة . وفى هذه السنة استتم بناء المدرسة النظامية ببغداد وانتظمت أحوالها . وسكنها من حملة الشريعة رجالها . ودرس فيها الشيخ أبو اسحاق الشيرازى رحمه الله فأحيي من العلم مادرس . وكشف من الحق ماالتبس . وشرح الأصول وفرعها . وأوضح الادلة ونوعها . وفى سنة ٤٦٠ توفى الشيخ عبد الملك أبو منصور بن يوسف وكان من أماثل بغداد وأعيانها . والمرجوع اليه فى نوائب الليالي وحدثانها . وكان قد أجمع الناس على صلاحه واستجادة رأيه واسترجاحه . ومن جملة خيراته انه تسلم

البيمارستان العضدى وقد استولى عليه الخراب . وناب أوقافه بالنوائب النواب فعمره وطبقه وأحسن فى أحواله ترتيباً . وأقام فيه ثلاثة خزان وثمانية وعشرين طبيباً . قال : ورثاه أبو الفضل صر در بقصيدته التي أولها

لا نبلنا فى ذا المصاب عزاء * أحسن الدهر بعده أم أساء

قال : وفى هذه السنة توفى أبو الجوائز الواسطى وكان شاعر زمانه . وفارس ميدانه . وفى هذه السنة توفى أيضاً ابو جعفر الطوسى بمشهد أمير المؤمنين على عليه السلام وكان امام الشيعة وهو الذي صنف التفسير . ويسر من أمورهم العسير . وفى جمادى الأولى من هذه السنة كانت زلزلة بأرض فلسطين أهلكت الديار وأتلفتها . وخربت مبانيها ونسفتها . وفيه توفى صاحب ديوان الزمام ابو نصر محمد بن أحمد المعروف بابن جميلة ورثاه أبو الفضل بقصيدة منها

إن يكن للحياء ماء فما كا * ن له غير ذلك الوجه مزنا
لهف نفسى على حسام صقيل * كيف صارت له الجنادل جفنا
ونفيس من الذخائر لم يـ * ـؤمن عليه فاستودع الأرض خزنا

قال : فرتب فى ديوان الزمام أبو القاسم بن فخر الدولة بن جهير . ولقب عميد الرؤساء . واجتاب خلعة الاجتباء . ومدحه أبو الفضل بقصيدته التى أولها

صبحها الدمع ومساها الأرق * كم بين هذين بقاء للحدق

وفى ثانى عشر رجب ورد الي بغداد ابو العباس الخوافى عميدا . وقدم بخوافى جاهه وقوادمه حميدا . قال : وعزل الوزير فخر الدولة بن جهير ليلة المهرجان فى ذى القعدة بالتوقيع الامامى بمحضر من قاضى القضاة أبي عبد الله الدامغانى فسار الى نور الدولة دبيس وهو بالفلوجة فآواه . وأكرم مثواه

وقد كانت الوزارة تقررت لأبي يعلي والد الوزير أبي شجاع وهو كاتب هزارسب بن بنكير فكوتب للزيارة . وخوطب بالوزارة . فورد الخبر بمرضه يوم صرف ابن جهير . وبوفاته يوم وصوله الى الفلوجة كما جرى به قلم التقدير .

وفى سنة ٤٦١ عول الخليفة فى الوزارة على أبي الحسن ابن عبد الرحيم . فثار العوامّ وقالوا لا طاقة لنا من ظلمه بورود الجحيم . فهو الذى أتى بالبساسيرى وأعلن احداث الليالى . وقالت خاتون هو الذى نهب مالى . فصرف قبل التصريف . ونكر قبل التعريف . ولم يزل الخليفة فيمن يستوزره يفكر حتى كاتب نور الدولة الخليفة فى معنى ابن جهير وذكر أنه خير وزير وظهير فاجاب الى اعادته . الى عادته . ووصل فى ثانى عشر صفر وجلس له فى التاج . ووجد أمله بالنجح مفتوح الرتاج . وقال له « الحمد لله جامع الشمل بعد شتاته . وواصل الحبل بعد بتاته » وفى تلك النوبة مدحه صردر أبو الفضل بقصيدته التى مطلعها

قد رجع الحق الى نصابه * وأنت من دون الورى أولى به

وركب هو وولداه فى موكب واجتاز فى جميع محال الجانب الغربي ونثر عليه أهل الكرخ اكياس الدراهم والدنانير وخرج اليه توقيع من انشاء ابن الموصلايا . وتسنت له المراتب السنايا .

قال : وفي النصف من شعبان هذه السنة احترق جامع دمشق ففجع الاسلام بمصابه . وصلّت النيران فى محرابه . واشتعل رأس القبة شيباً بما شبت . وأكلت أم الليالي منها ما ربت . وطار النسر بجناح الضرام . وكاد يحترق عليه قلب بيت الله الحرام . وكأن الجحيم استجارت به فتمسكت بذيله . أوكأن النهار ذكر ثأراً عنده فعطف على ليله . فواهاً له من مسجد

أحرقته نفحات أنفاس الساجدين . وعلقت فيه لفحات قلوب الواجدين . وقبل أصابت حسنها العيون . وأتهم بذلك الولاة المصريون . ثم تداركه الله بالالطاف والاطفاء . وأتاه بالشفاء . بعد الاشفاء . وقال حسبه اصطلاء واصطلاما . وحقق فيه قوله قلنا يا نار كونى برداً وسلاما .

قال : وفى سنة ٤٦٢ أقبل كلب الروم فى جموعه وأخنى على من بمَنبج واجتاحها . واستبي حاميتها واستباحها . وعاد الى قسطنطينيته وقدساءت آثاره . والدين قد ثار ثأره . وفى هذه السنة زوج نظام الملك بنته لعميد الدولة ابى منصور محمد بن فخر الدولة الوزير بن جهير . وصارت له مصاهرته خير ظهير . وكان عميد الدولة قد توجه الى السلطان بالرىّ فى رسالة فتلقى بكرامة وجلالة . واستتمت له هذه المصاهرة . واستتبت المظاهرة . ووصل فى رجب وفى صحبته رسل محمد بن ابى هاشم وقد كان بعثهم الى السلطان وضمن لهم اقامة الخطبة بمكة حرسها الله تعالى له وخلع الخليفة على عميد الدولة فى بيت النوبة فرفل فى ملابس الاصطناع . وجعل اليه الانهاء والمطالعة ومراعاة الاقطاع . وقرئ له توقيع من انشاء ابن الموصلايا تمكن به من افتراع عذرة الأرتفاع وتصدر فى الوسادة . وتصدى للسيادة . وفى هذه السنة توفى تاج الملوك هزارسب بن بنكير بن عياض منصرفاً من باب السلطان الب ارسلان . وهو خارج من اصفهان على قصد خوزستان . وكان قد علا أمره وعرض جاهه وتزوج بأخت السلطان . واستظهر منه بالمكانة والامكان . وتزوج بعده مسلم بن قريش بأخت السلطان زوجته . وتدرج الى درجته . وفى هذه السنة ورد أمير الحرمين محمد بن أبي هاشم الحسنى الى بغداد على قصد الوفادة الي السلطان فكتب الخليفة معه بعد ان شرفه ورفعه . وعاد فى

محرم سنة ٤٦٣ من المعسكر السلطاني على باب آمد . وقد استفاد الفوائد . وأفاد المحامد .

ذكر أحوال الب ارسلان بديار بكر والشام

قال رحمه الله : ولما توجه الب ارسلان الى ديار بكر خرج اليه نصر بن مروان وتلقاه وحمل له مائة الف دينار فقبل احسانه وأحسن قبوله . وسأل عن قضاياه وقضى سوله . وقيل أنه قيل له إن هذا المال قد قسطه على البلاد فامر برده . وعف عنه وعاف وبيل ورده . وانتهى الى أمد آمد من قصده . فوجد ثغرها ممتنعاً . وسورها مرتفعاً . فمسح السلطان للتبرك به يده على سورها وأمرّها على صدره . ثم توجه منها الى الشام وعبر بالرّها . وتعذر عليه أمرها . فحل بحلب وشرع فى حصارها . وأحاط باسوارها . وصاحبها حينئذ محمود بن صالح بن مرداس . وكان قد خطب فى تلك السنة لبني العباس . وقد وجد لتشريف الخليفة خاف سروره جافلا . وأصبح فى ملابس الجلال وخلع الجمال رافلا . وعنده من جانب الخليفة نقيب النقباء الكامل أبو الفوارس طراد بن محمد الزينبي فضايقه الب ارسلان وأخذ بمخنقه . ووقف على طرقه . وخرج نقيب النقباء وسأل أن ظل الاكرام عنه لا يقلص . وأن ورد الانعام عليه لا ينتقص . فأبى الرضى عن محمود الا بدوس بساطه حامداً راضياً . ولعفوه عافياً . ولحق طاعته وضراعته متقاضياً . فلم يخرج اليه فاحتد القتال . واحتدم النزال .

وطال الحصار . وطارت الاحجار . ووقع فى فرس السلطان حجر استشاط من وقعه . وخاف محمود لما ضاق به الامر من اتساع خرق يعجز عن رقعه . فخرج ليلا الى السلطان ومعه والدته منيعة بنت وثاب النميرىّ يخضعان ويضرعان وقالت للسلطان « هذا ولدى قد جئتك به فافعل ما تحب . وقد اعترفنا وعرفنا أن سلامتنا الا بسلمك لا تستتب » قال : فعفا السلطان وصفح وأعاد محموداً الى مكانه محمود المكانة . وقد ارتفع بالتواضع وتسامى بالاستكانة . وأمنت الشهباء . وسكنت الدهماء .

ذكر خروج ملك الروم وكسره وقسره وأسره

قال : وبلغ السلطان خروج أرمانوس ملك الروم فى جمع لا يحصى عدده . ولا يحصر مدده . فلما سمع هذا الخبر أخذ السير الى آزربيجان اذ سمع أن متملك الروم أخذ على سمت خلاط . وكان السلطان فى خواص جنده فلم ير أن يعود الى بلاده ليجمع عساكره . ويستدعى من الجهات للجهاد قبائل الدين وعشائره . فسير نظام الملك وزيره وخاتون زوجته الى تبريز مع أثقاله . وبقى فى خمسة عشر الف فارس من نخب رجاله . ومع كل واحد فرس يركبه وآخر يجنبه والروم فى ثلثمائة الف ويزيدون ما بين رومى وروسى وغزى وقفجاقىّ وكرجىّ وأبخازىّ وخزرىّ وفرنجىّ وأرمنىّ . ورأى السلطان انه ان تمهل لحشد الجموع ذهب الوقت وعظم بلاء البلاد . وثقلت أعباء العباد . فركب فى نخبته وتوجه فى عصبته وقال « انا احتسب عند الله نفسى وان سعدت

بالشهادة ففى حواصل الطيور الخضر من حواصل النسور الغبر رمسى • وان نصرت فما أسعدنى • وأنا أمسى • ويومى خير من أمسى »

ثم توكل على الله وسار بهذه العزيمة الماضية القوية • والصريمة الصارمة الروية • وكان متملك الروم قد قدم رؤساء مقدمين من الروس فى عشرين الف فارس ومعهم عظيمهم الأصلب وصليبهم الأعظم وخالطوا بلاد خلاط بالبلاء • والسلب والسباء • فخرج اليهم عسكر خلاط ومقدمهم صنداق التركى فصب صبح البيض على ليل النقع المظلم • وخاض الى العز مشمراً نار الحريق المتضرم • وقتل منهم خلقاً كثيراً وقاد قائدهم فى القيد أسيفاً أسيراً • فأمر السلطان بجدع أنفه • وارجاء حتفه • وذلك يوم الثلثاء رابع ذى القعدة سنة ٤٦٣ وعجل الصليب السليب الى نظام الملك ليجعل انفاذه الى دار السلام • مبشراً بسلامة الأسلام • وتلاحق عسكر الروم ونزل على خلاط محاصراً • وأهلها واثقون بالله الذى لم يزل لدينه ناصراً • ونزل متملك الروم على منازكرد فى انصار نصرانيته • وعمداء معموديته • فانزعج سكانها • وتزعزعت أركانها • وعلموا انه ليست لهم بما نزل بهم طاقة • وان دماءهم لاشك بسيوف الكفر مهراقة فخرجوا بأمان وسلموا البلد فبيتهم تلك الليلة عند بلاطه • تحت احتياطه • فلما بكر يوم الأربعاء سيرهم بأسرهم فى أسر وأردفهم بعسكر مجر وخرج ليشيعهم بنفسه • وهو فى جماعة حماته وحمسه • ووافق ذلك وصول أوائل العسكر السلطانى ووقعت العين فى العين • واجتمعت على المجالدة اجادل الجمعين • وجرى الخيل • وجرف السيل • وانجر من الأرض على السماء الذيل • وصحت على الروم كسرة اردتهم • وصدقتهم عن مقصدهم وصدتهم • فانكسوا الى مجثمهم فى مخيمهم وانكشفوا بما تم من عرس الاسلام بمأتمهم • وشرعت المنازكردية يتسللون،

فقتل الروم منهم من أدركه أجله ونجا الباقون . وعرف الروم انهم للموت ملاقون . وعاد متملكهم الى مضاربه وبات تلك الليلة والكوسات تصرخ . والبوقات تنفخ . ولما أصبحوا بكرة يوم الخميس وصل السلطان الب ارسلان ونزل على النهر ومعه من المقاتلة الاتراك خمسة عشر الف فارس لايعرفون سوى القتل والقهر . وكان الروم نازل بين خلاط ومنازكرد فى موضع يعرف بالزهرة وهو فى مائتى الف فارس من ذوى القلوب المدلهمة والوجوه المكفهرة وبين العسكرين فرسخ . وبين مجرى التوحيد والتثليث برزخ . فارسل الب ارسلان رسولا . وحمله سؤالا وسولا . ومقصوده ان يكشف سرهم . ويتعرف أمرهم . ويقول للملك ان كنت ترغب فى هدنة اتممناها . وان كنت تزهد فيها توكلنا على الله فى العزمة وصممناها . فظن انه انما راسله عن خور فأبى واستكبر . ونبا وتعسر . وأجاب بانى سوف أجيب عن هذا الرأى بالرىّ . وانتهى عن النهي الى غاية الني . فاغتاظ السلطان وارتفعت بينهما المخاطبة . وانقطعت المواصلة . ولبث يوم الخميس الخميسان يعبيان . ولداعى المنون يلبيان . والشمس تشكو حرّ ماتصاعد اليها من زفرات الاحقاد . وكأنما شعاعها دم اراقته على الآفاق وخزات تلك الصعاد . والطلائع . على المطالع . والمنايا . على الثنايا . والعزم السلطانى الى اللقاء مشرئب . وللمضاء مستتب . فقال له فقيهه وامامه أبو نصر محمد بن عبد الملك البخارى الحنفى «انك تقاتل عن دين الله الذى وعد باظهاره فالقهم يوم الجمعة بعد الزوال والناس يدعون لك على المنابر» فلما أصبحوا يوم الجمعة ارتجت الارض بالضجاج . وارتجت السماء بالعجاج . وقد لقحت الحرب العوان بالمهندة الذكور . والمسوّمة الفحول . والكماة الحماة يحمون حمى الحمام ويحومون حول الدحول . ووقعت الطوالع

فى الطوالع . وقرعت القواطع بالقواطع . وغنت الظبى ورقصت المرّان .
ومال القنا وجالت الفرسان . ودارت الكؤس . وطارت الرؤس . وما
فتئت الفتيان تجور وتجول . والخرصان تصوب وتصول . الى ان دنا وقت
الزوال . ودان لمقت الدين مقت النزال . وصدحت أعواد المنابر بالخطباء .
وصدقت نيات أهل الجمعة للمجاهدين فى اخلاص الدعاء . فنزل الب ارسلان
عن فرسه وشد للحزم حزامه . وأحكم سرجه ولجامه . ثم ركب جواده . وثبت
فؤاده . وقوى قلبه . وسوى قلبه . وفرق أصحابه أربع فرق كل فرقة منهم فى
كمين . وراح وله من الروح الأمين مجير أمين . ولما علم أن الكمين مكين .
وأن الضمير شاهد بما يشهده من النصر ضمين . تلقى بوجه الحر حر الحرب
واستحلى طعم الطعن وضرب الضرب . وحمل متملك الروم بجمعه . وأخذ
ببصر الدهر وسمعه . وأقبل كالسيل يطلب القرار . والليل يسلب النهار .
وثبت لهم خيل الاسلام ثم وثبت . وجالت وما وجلت . واستجرت الروم
الى ان صار الكمين من ورائها . ووقفت المنون بازائها . ثم خرج من خلفها
وذوو الأقدام من قدامها . ووقعت نار البيض فى حلفاء هامها . فآذنت
بانهزامها . وانكسرت كسرة لاتقبل جبراً . فطائفة لم تثبت للقتال ولم
تصبر وطائفة تثبت فقتلت صبراً . فما نجت من أولئك الألوف آحاد . وما
سلمت من أعداء الاسلام اعداد . وملك الملك ووقيد وقيد وقيداً . وأسر
ولم يجد له معيناً ولا معيذاً . وركب المسلمون اكتافهم . وقتل الآحاد آلافهم
وطهرت الأرض من خبثهم . وفرشت بجثثهم . وصارت الوهاد باشلاء القتلى
أكماً . والمروت من قصد القنا أجماً

قال : وكانت مع الروم ثلثة آلاف عجل تنقل الاحمال . وتحمل الاثقال

ومن المنجنيقات التى تحملها منجنيق هو أعظمها وأثقلها . له ثمانية أسهم ويمد فيها الف ومائتا رجل ويحمله مائة عجل يرمي حجراً وزنه بالرطل الكبير الخلاطى قنطار . وكأنه جبل له فى الجو مطار .

قال : وشملهم بأسرهم القتل والأسر . وبقيت أموالهم منبوذة بالعراء لاترام . ومعروضة لاتسام . وسقطت قيم الدواب والكراع . والسلاح والمتاع . حتى بيعت بسدس دينار اثنتا عشرة خوذة وبدينار ثلاث ادراع . ومن عجيب ما حكي فى أسر الملك انه كان لسعد الدولة كوهرائين مملوك اهداه لنظام الملك فرده عليه . ولم ينظر اليه . فرغبه فيه كثيراً . فقال نظام الملك وما يراد منه عسى ان يأتينا بملك الروم أسيراً . وذكر ذلك استهزاء به واستصغاراً لقدره . واحتقارا لأمره . فاتفق وقوع متملك الروم يوم المصاف فى أسر ذلك الغلام . ووافق تصديق قول النظام . وخلع السلطان عليه وقال « اقترح من العطاء ما أعطيك » فطلب بشارة غزنة

قال : ودخل السلطان الى اذربيجان بملكه وأيده . والملك فى قيده . وصيده . وهو أسيف جهده وأسير جهله . ولا يحيق المكر السيئ الا بأهله . فانه خرج وفى نيته فتح الدنيا وحتف الدين . وقهر السلاطين ونصر الشياطين . ثم ذل بعد العزّ وهان . وتعرض للابتذال كل ماصان . ثم تعطف عليه السلطان وأحضره بين يديه وقال « اخبرنى بصدقك فى قصدك وما الذى قدّرت لو قدرت » فقال : « كنت احسب اني أحبس من أسرته منكم مع الكلاب . واجعله فى السبايا والاسلاب . وان أخذتك مأسورا اتخذت لك وقد ساء جورى ساجورا » فقال السلطان « قد عثرت على سرّ شرك فما ذا بك الآن نصنع . ونحن منك بما نويته فينا لانقنع » فقال « انظر عاقبة فساد

نيتي والعقوبة التي جرتها الى جريرتي » فرق له قلب الب ارسلان وأرسله وفك قيده ووصله وأفرج عنه معجلا . وسرّحه مبجلا . ولما انصرف الملك ارمانوس مأنوساً رمي ناسه اسمه . ومحوا من الملك رسمه . وقالوا هذا من عداد الملوك ساقط . وزعموا ان المسيح عليه ساخط .

ذكر احداث حدثت فى هذه السنين

قال : فى آخر سنة ٤٦٣ توفى أبو بكر أحمد بن على بن ثابت المحدث الخطيب مؤلف تاريخ بغداد وكان علامة دهره . وعالم عصره . وفى سنة ٤٦٤ كان السلطان رتب لبغداد شحنة يقال له آيتكين السليمانى ووردها فى شهر ربيع الأول فلم يرض الخليفة بتوليته وذلك لأن ابنه قتل أحد الغلمان الدارية فصرفه السلطان بسعد الدولة كوهرائين ووصل الى بغداد فى شهر ربيع الآخر . فى جمع كالبحر الزاخر . ووقع باقباله الاحتفال . ورتب لحفله الاستقبال : وخرج الناس على طبقاتهم لتاقيه . وجرى القدر بترقيه . وجلس له الخليفة فى دار ارسلان خاتون وتهذب البلد بسياسته . وتمت الحماية بحميته . وورد فى آخر شهر ربيع الاول الوزير أبو العلاء محمد بن الحسين وعليه خلع سلطانية وكان قد نبه السلطان الي خدمة الخليفة . لتقوية ما توهمه من الاسباب الضعيفة . وخصه بالحب والحباء . ولقبه بوزير الوزراء . وأقطعه النصف من اقطاع الوزير فخر الدولة ابن جهير . فلما وصل تقدم الخليفة بأن لا يستقبل . ولا يحتفل

به اذا أقبل . ولا يقبل . فلما انتهى الى باب النوبى نزل وقبل الارض وانصرف . ولم يرض للقبول وما تصرف . وأقام ببغداد أياماً ثم رحل وحلّ بالحلة المزيدية مستزيداً . وصرف أخوه أبو المعالي عن الحجبة فعاد بعد ان كان حاجباً قريباً محجوباً بعيداً . وفى صفر من هذه السنة توجه عميد الدولة أبو منصور ابن الوزير بخلع امامية الى الب ارسلان بنيسابور ووكل فى تزويج المقتدى بنت الب ارسلان المنعوتة بخاتون السفرية . فسفر وجه وجاهته بهذه السفرة الصفرية . فلما وصل تلقى بالعظماء واستقبل وتقدم بانزاله فى المرتبة الكبيرة . وترتيب الانزال الكثيرة . وعقد العقد للمقتدى على بنت السلطان فى أسعد ساعة . وأحسن عادة . وكان يوماً مشهوداً أزهر . قد نثر فيه الملوك الجوهر . ولما عاد عميد الدولة جعل على اصفهان العبور . فلقى من ملكشاه ولد السلطان الحب والحباء والحبور . وأفاض عليه الخلع الامامية فلبسها . وأحكم عنده قواعد الامور فى العواقب وأسسها . وكان ملكشاه قد عاد من شيراز وهو سائر الى والده . وورد المملكة منه ظمآن الى وارده . وعاد عميد الدولة الى بغداد فى ثامن عشر ذى الحجة . بادى الحجة هادى المحجة

ذكر وفاة الب ارسلان فى سنة خمس وستين وأربعمائة

قال : فى أول هذه السنة توجه السلطان الب ارسلان لقصد بلاد الترك . وقد كملت له أسباب الملك . فى أكثر من مائتى الف فارس ومد على جيحون جسراً . كما خط الكاتب على القرطاس سطراً . وكانت مدة عبور العسكر عليه شهراً وكان قد قصده شمس الملك تكين بن طفقاج . والاقبال قد بلغ الكمال وأوضح المنهاج . وانه فى سادس شهر ربيع الأول بكر وهو فى الصدر الارحب والباع الاطول . والكمال الابهى والبهاء الأكمل . وهو جالس على سرير سروره . لابس حبير حبوره . وسمطا سماطيه المدودين من فرائد مفرديه منظومان . والبأس والنائل لاوليائه وأعدائه مقسومان . والعظماء واقفون والموقف عظيم . والكرماء قائمون والمقام كريم . والهيبة مالكة . فحمل اليه أصحابه مستحفظ قلعة يقال له يوسف الخوارزمى وهو يرسف فى قيده . ولم يدر أنه يسرف فى كيده . وحمل الى قرب سريره وهو مع غلامين . وقد شدا بيده اليدين . فتقدم بان يضرب له أربعة أوتاد لتشد اليها أطرافه . ويعجل على تلك الهيئة اتلافه . فقال : « مثلى يقتل هذه القتلة ويلقى هذه المثلة » فحمى السلطان واحتد وأخذ قوسه وسهمه . وترك رأيه وحزمه . وأمر بحل رباطه . وان يخلى عن احتياطه . وقال للغلامين خلياه ورماه . فأخطأه وكان على تخت فوثب ونزل فوقع على وجهه فى عثره فجاءه يوسف فجاءة فوجاءه بسكين فى خاصرته . وكان سعد الدولة كوهرائين واقفاً فجرحه يوسف جراحات ونهض السلطان الى خيمة أخرى مجروحاً فاما يوسف

الخوارزمي فانه ضربه فراش أرمني بمرزبة على أم رأسه . فوفت الضربة بقطع أنفاسه . وأما الب ارسلان فانه أحضر وزيره نظام الملك فاوصى به واليه . وعول في كفاية المهمات وكف الملمات عليه . وجعل ولده ملكشاه ولي عهده . وفوض اليه الملك من بعده . وخص ابنه اياز بما كان لأبيه داود ببلخ وعين له خمسماية الف دينار وقال له اقصد نصرة أخيك وجعل القلعة بها لملكشاه وقال له ان لم يرض فضيق عليه واستعن على قتاله . بما عين له من ماله . ووصى لأخيه قاورد بك بن داود بأعمال فارس وكرمان . وأجري له بتعيين شيء من المال والأحسان . وانتقل الى جوار ربه فائزاً بالشهادة . حائزاً للسعادة . وكان مولده في سنة ٤٣٤ واستشهد وقد بلغ من العمر أربعين سنة وملك تسع سنين وشهورا

قال : وحكى انه قال حين حينه . وقد عاين الموت بعينه . ما كنت قط في وجه قصدته . ولا عدو أردته . الا توكلت على الله في أمري . وطلبت منه نصري وأما في هذه النوبة فاني أشرفت من تل عال . فرأيت عسكري في أجمل حال . فقلت اين من له قدر مصارعتي . وقدرة معارضتي واني اصل بهذا العسكر الى أقصى الصين . فخرجت على منيتي من الكمين

قال : وكان الب ارسلان بالبرية باراً . ولم يزل احسانه عليهم من داره داراً . وكان يطبخ كل يوم خمسون رأساً من الغنم في مطبخه للفقراء وذلك سوى الراتب المعين للسماط برسم العسكر والأمراء . وكان اذا أمر ببناء أوعز بأن يكون أسمى بنيان وأسمقه . وأشرف مكان وأشرقه . ويقول « آثارنا هذه تدل على علو همتنا . ووفور نعمتنا » وخلف عدة من البنين وهم ملكشاه وتكش وأياز وتتش وأرسلان أرغون وبوري برس

ذكر جلوس السلطان جلال الدولة ابى الفتح ملكشاه بن الب ارسلان على سرير الملك

قال : ولما دفن الب ارسلان عند قبر ابيه بمرو اقام ابنه اياز ببلخ وعاد ملكشاه بالعساكر . وسمع قاورد بوفاة أخيه الب ارسلان فسار للرىّ طالباً وفى الملك راغباً . فسبقه اليها ملكشاه وأمن ما كان يخشاه . وصار منها قاصداً للقاء قاورد ورده . وفل حده . فالتقوا بقرب همذان رابع شعبان . وكان عسكر ملكشاه الى عمه مائلا . وبقوله قائلا . فلما تلاطم البحران . والتقى الجمعان . حمل قاورد على ميمنة ملكشاه وجعلها دكّا . وأوسعها فتكا وحمل شرف الدولة مسلم ابن قريش وبهاء الدولة منصور بن دُبيس ومن معهما من العرب والأكراد على ميمنة قاورد فدكوها وخرقوها . وغاظ أصحاب ملكشاه ماصح من كسر عمه وقالوا ماعرتنا هذه الاكدار الا من الاعراب والاكراد . وصدونا بقصدهم عن مراد المراد . فمضى المنهزمون من أصحاب ملكشاه الى حلل العرب ونهبوها . وشنوا عليها الغارة وسلبوها . وجاء رجل من أهل القرى الى ملكشاه وأخبره بأن عمه فى قرية بقربه . وقد انفرد عن حزبه . فسار اليه وأخذه . وأمضى فيه حكم بأسه وأنفذه وتقدم الى كوهرائين بخنقه وهو يتضرع ويتضور . نخنقه غلام أرمنى أعور

قال : وملك ملكشاه . وجاءه الجاه . وحمل أمر امرائه بجلمه . وحكم برضاهم وأرضاهم بحكمه . وخلع على نظام الملك ورد به الملك الى النظام . وعول

عليه فى تولى وزارته ومناصبه العظام . وأعطى سرهنك ساوتكين أعمال قاورد عمه ولقبه بلقبه عماد الدولة وولاه ولاياته . وخصه بمناجيقه وكوساته . وأجزل لامراء العرب والأكراد نصيب الاصطفاء والاصطناع . ووفرّ حظه من التشريف والاطلاق والاقطاع

ودخلت سنة ٤٦٦ وورد فى صفر منها سعد الدولة كوهرائين الى بغداد بجلس له الخليفة القائم بأمر الله فى ثانى صفر . وقام عدة الدين المقتدى على رأسه وهو ابن ثمانى عشرة سنة وسلم الخليفة الى كوهرائين عهد الخلافة بعد ان قرأ أوله . ومتضمنه انه جعل عليه فى الملك معوله . وكان اذناً عاماً للخاصة والعامة فى الوصول . ولم يمنع فى ذلك اليوم أحد من الدخول . وورد الخبر بوفاة أياز أخى السلطان وكفى أمره كما كفى أمر عمه . قلبه من شغله واستراح من همه . قال : وفى هذه السنة غرقت بغداد ولم يسلم سوى دار الخليفة . وما فى جوار سدتها الشريفة . وغرق مشهد باب التبن وانهدم سوره . وخرب معموره . فأطلق له شرف الدولة مسلم ابن قريش الف دينار وأعيدت عمارته . وأمكنت زيارته . وورد مؤيد الملك أبو بكر عبيد الله بن نظام الملك والماء طام . وغارب دجلة ذو سنام سام . وقد انسدّت افواه الطرق فترك استقباله للضرورة العائقة . ودخل على غير الصورة اللائقة . فانه ركب فى سفينة وانحدر الى باب المراتب ولما حاذى التاج قام اداء للواجب ولما قرّ فى منزله ظنّ ان الخليفة ما نبأ باستقباله الا وقد نبا عن تقبله . ومضى اليه النقيبان وقاضى القضاة ولم يوصلهم بل ردهم . وصدفهم وصدهم . وقال : «جرى بى تهاون وعلى تعاون» فأنفذ الخليفة اليه من أوضح له العذر . واستخلص منه بانفاذ الخلع اليه الحمد والشكر . واستأذن الخليفة فى الركوب بباب المراتب

فأذن له وأملى له . فى كل نجح أمله . قال : وورد عميد الدولة ابو منصور بن الوزير فخر الدولة من الرىّ مشمولا من جلال الدولة ملكشاه بالاجلال . وترك استقباله لما اتفق فى حق مؤيد الملك من ترك الاستقبال . وفى آخر هذه السنة توفى زعيم الملك ابو الحسن بن عبد الرحيم فى الحلة المزيدية . وكان مرشحاً للمناصب السامية السنية

ذكر وفاة القائم بأمر الله رضى الله عنه وتولى المقتدى بأمر الله

قال : وكانت وفاته ليلة الخميس ثالث عشر شعبان سنة ٤٦٧ وقد كان زرع عمره استحصد . فما اقتصد . فى ألم وافتصد . ونام منفرداً فانفجر فصاده لما غلبه رقاده . وخرج منه دم كثير أقوت منه قواه وانتبه والضعف قد تضاعف . والحمام قد شارف . فطلب ثقاته واستحضر عدة الدين وأودعه وصايا يكون بها عن القائم القائم . واحضر النقيبين وقاضي القضاة والقاضى أبا الحسن بن البيضاويّ والقاضى أبا محمد بن طلحة الدامغانيّ والوزير قائم والقائم مستند فى شباك . وهو فى سكون يشعر بما ليس بعده من حراك . وقال لهم « اشهدوا على ماتضمنته هذه الرقعة التى كتبت فيها سطرين بخطى » ثم قضى نحبه وتولى أمير المؤمنين المقتدى بأمر الله أبو القاسم عبد الله بن الذخيرة أبى العباس محمد بن القائم وبويع يوم وفاة جده وجلس فى دار الشجرة على كرسى بقميص أبيض وعمامة بيضاء لطيفة وفوقها طراحة قصب درى

ودخل الوزير فخر الدولة أبو نصر وولده عميد الدولة ابو منصور واستدعى مؤيد الملك بن نظام الملك والنقيبان وقاضى القضاة وحضر أعيان الدولة من ذوى المراتب والكُفاة . وهناك نور الدولة دبيس بن على المزيدى وولده بهاء الدولة وأبو عبد الله محمد بن حماد الاسدي وبايعوه . وعاقدوه على الطاعة وشايعوه . وصلى بالناس العصر فى صحن السلام وأتموا به وصلى على القائم وأغلقت الأبواب ببغداد ثلثة ايام لعقد المأتم وجلس فخر الدولة الوزير وابنه عميد الدولة للعزاء ثلثة أيام ومضى عميد الدولة الى السلطان ملكشاه لأخذ البيعة عليه . وحمل عهده اليه . وعاد الى بغداد فى سنة ٤٦٨ وأوصله الخليفة الى مجلسه الأشرف . وخصه باكرامه الالطف . وكان قد سير من الديوان القاضى أبو عبد الله محمد بن محمد البيضاوىّ فى صحبة مؤيد الملك الى والده نظام الملك ليسير منه الى غزنة ويأخذ البيعة على صاحبها فعاد مصحوباً بالجدة قد أترب وفرع الرتب . ولما سكن الى الثراء سكن الى الثرى . وتوفى فى شهر ربيع الأول من سنة ٤٧٠ وكان فاضلا على مذهب الشافعى ذكيا زكيا

قال : وفى سنة ٤٦٨ جد الجدب وحلّ المحْلُ . وحط للقحط الرحل . وأقوت القوة وعدم القوت حتى كفى الله الغمة . وكشف الملمة . قال : وفى هذه السنة تسلم نصر بن محمود صاحب حلب قلعة منبج من الروم وخلصها من أيديهم . وانقذها من تعديهم . وفى سنة ٤٦٩ تزوج علىّ بن ابي منصور فرامرز بن علاء الدولة ابي جعفر بن كاكويه بارسلان خاتون بنت داود التى كانت زوجة القائم وكانت فارقت بغداد حين عرفت بوفاة أخيها الب ارسلان وخرج عنها وتوفى بعد ذلك القائم عنها فاستبدلت عن القرشى ديلمياً . وعن

الامام أمياً . وفى هذه السنة ورد الى بغداد الشيخ الامام أبو نصر بن الاستاذ ابى القاسم القشيرى رحمه الله حاجا . وأوضح بعلمه منهاجاً . وجلس للوعظ فى النظامية . وفى رباط الصوفية . وأبدى شعار الاشعرية . يزعم أنه يحقق أدلة الموحدة المنزهة . ويبطل شبه المجسمة . فثارت الفتنة من العامة وقصدت الحنابلة سوق المدرسة وقتلوا جماعة . وأظهروا شناعة . وكان قد ورد مؤيد الملك بن نظام الملك من المعسكر فلم يطق دفعاً . ولم يستطع منعاً . فنسب نظام الملك الى بنى جهير الجهر بتلك الفتنة . وحنا أحناءه لهم على الاحنة

واتفق وفاة ابنة نظام الملك زوجة عميد الدولة فى شعبان سنة ٤٧٠ ودفنت بدار الخلافة اكراماً لأبيها . ولم تجر العادة بالدفن فيها . وانقطع مابين النظام . وبينهم من النظام . وآذنت عرى النسب بالانفصام . ووصل فى المحرم سنة ٤٧١ بشحنكية بغداد سعد الدولة كهرائين وضرب على بابه فى أوقات الصلاة الثلاث الطبل . وكان قد منع من ذلك وقيل لم تجر به عادة من قبل . وأعقب ذلك عزل الوزير ابن جهير وذلك أن كهرائين أوصل عند وصوله كتاباً من السلطان الى الخليفة يتضمن عزل الوزير فقيل فى جوابه أنه ليس بوزير وانما الوزير ولده عميد الدولة وقد قصد نحوكم بالمعسكر . ووالده ينوب عنه الى أن يحضر . وكان عميد الدولة بعد وفاة زوجته خرج الى المعسكر وعرف أن كوهرائين إن صادفه فى الطريق صدفه وصرفه . فمرج بالجبال . وأتبع الترحال بالترحال . وجاء كهرائين فى النصف من صفر الى باب الفردوس وهو على حالة من السكر فغلق دونه الباب وربط هناك خيله . وأقام هناك يومه وليله . وقال « لا بد لى

من الوزير . ولا مهلة فى التأخير » فلما عرف فخر الدولة الحال قدم السؤال وطلب الاعتزال . فأذن له أن يعتزل . ويلزم المنزل . وخرج الى كهرائين توقيع فيه لما عرف محمد بن محمد بن جهير ماعليه جلال الدولة ونظام الملك من المطالبة بصرفه سأل الأذن فى ملازمة داره الى أن يكاتبا فى أمره ولم يزل عميد الدولة يستعطف نظام الملك حتى عطف . ويتألف قلبه حتى انقلب الى ما الف . والزمه تقلد منه . وزوج ابنته بابنه . وكتب الى كهرائين باعادته الى الخدمة . وزيادته فى الحرمة . وسأل الخليفة الاغضاء عن ذلته . ولما وصل الى بغداد عزله الخليفة عن خدمته . ونقله الى منزله عن منزلته . ورتب الوزير أبا شجاع محمد بن الحسين نائبا فى الديوان وجلس بغير مخدة ثم توزر عميد الدولة ابن جهير للخليفة المقتدى فى سنة ٤٧٢ وأفيضت عليه خلع آذنت بتبجيله . وتولى أمين الدولة ابن الموصلايا قراءة توقيع خرج في حقه بتجميله .

قال الامام عماد الدين محمد بن محمد بن حامد الكاتب الاصفهانى رحمه الله : ولما كان الكتاب الذى صنفه أنوشروان الوزير عربته وهذبته وقد انتهيت فى هذا الموضع الى مفتتحه وصلت هذه الجملة التى ذكرتها به وجعلتها طريقا الى دخول بابه لكنى عند انقضاء أيام كل سلطان أوردت حوادث تجددت فى عصره . وأخل أنوشروان بنشر حديثها وذكره . ومن هاهنا يقع بما بدأ به البداية . وتكمل بتعريبه والاعراب عنه العناية .

﴿ أيام السلطان جلال الدنيا والدين أبي الفتح ملكشاه ﴾

﴿ ابن الب ارسلان يمين أمير المؤمنين ﴾

قال : عقد لواء سلطنته فى أيام أمير المؤمنين القائم بأمر الله رضى الله عنه وعصر خلافته قد قارب انتهاءه . وشارف انقضاءه . ولهج عند وفاته بهذين البيتين .

سلا أمّ عمرو كيف بات أسيرها * تفك الأسارى حوله وهو موثق
فان كان مقتولا ففى القتل راحة * وان كان ممنوناً عليه فمطلق

وتولى بعده الخلافة أمير المؤمنين المقتدى بأمر الله أنار الله برهانه وبايعه هذا السلطان . قال : وكان ملكشاه ملكا سيرته العدل . وسريرته الانصاف والفضل . شجاعاً مقداماً صائب الرأى والتدبير . حقيقاً بالتاج والخاتم والسرير . أيامه فى أيام آل سلجق كالواسطة فى العقد قد تناسبت فى الحسن بدايته ونهايته . وتناسقت فى الاقبال فاتحته وخاتمته . ولم يتوجه الى أقليم الا فتحه . وقهر العدوّ وفدحه . ولما توجه الى الشام وانطاكية بلغ الى حدّ قسطنطينية وقرر الف دينار أحمر يحمل الى خزانته من تلك الولاية ووضع في النواحى التى فتحها من الروم خمسين منبراً اسلاميا وعاد الى الرىّ وقصد فتح سمرقند ولم تزد مدة هذه الاعمال على شهرين

ولما وصل سمرقند نزل عليها وحاصرها فظفر بخانها وهو فى موضع سلطانها وجرت له حروب عظيمة هزمه فيها وكسره . وظفر به وأسره . فحمل غاشية

السلطان على كتفه وسار فى ركابه من موضع سرير افراسياب الذى كان ملك ملوك الترك الى موضع سرير ملكه وحمله أسيراً الي العراق . تحت الوثاق ثم منّ عليه بالاطلاق . وأنعم عليه باعادته الى ملكه . واعادة نظمه الى سلكه . وتوجه السلطان فى السنة الأخرى الى أوزكند ووصل حمل انطاكية اليها وانقاد له ملك الترك ووصل به الى اصفهان ثم أكرمه وشرفه وأعاده الى مقره من بلاد الترك وهذه السعادة كلها انما تيسرت بسعادة الوزير الكبير خواجه بُزُرْك قوام الدين نظام الملك ابى علىّ الحسن ابن على بن اسحاق رضىّ أمير المؤمنين الوارف الظل الوافر الفضل . وكانت وزارته للدولة حلية . وبهجته للمملكة زينة . كأنما خلقه الله للملك والجلالة مصوراً . وكأن الاقبال له معلما والظفر مسخراً . قد مشى فى ركابه سلطان العرب مسلم بن قريش وقبل حافر مركوبه وكانت ملوك الروم وغزنة وما وراء النهر فى ظل حمايته . وكنف رعايته . وكانت ملوك الأطراف تقبلون كتفه اجلالا وتشريفا ويتشرفون بلبس خلعه وكانوا انجاداً له على أعدائه وجرّ الجحافل الثقيلة . والعساكر الكثيفة . وبقى فى صدر الوزارة ثلثين سنة . قال كنت فى مبتدإ أمرى فى خدمة الأمير بجير أسفهسلار خراسان فأشخصنى اليه من موضع كنت متوليا له تحت التوكيل وانا متوجه نحوه خائب الأمل منكسر القلب على فرس حرون هزيل يتعبنى سيره وأنا فى ضرّ شديد من ركوبه فبينا انا سائر اذ ظهر من صدر البرية تركمانى على فرس يجري جرى الماء رهوان فتمنيت معما كنت فيه من ألم القلب ان أكون راكبا مثل ذلك الفرس فتقرب التركماني منى واختلط بالموكلين بى وكلمهم ثم التفت الى وقال هل لك ان تقايض فرسك بفرسى فحسبت انه يهزأ

بى وقلت له يجوز معما انا فيه من هذه المحنة ان لا تستهزئ بى فنزل فى الحال عن فرسه واعطانيه وأخذ فرسى واليوم منذ ثلثين سنة اتمنى لقاء ذلك التركمانى وأسأل عنه ولا أجده .

قال : وكانت علامة نظام الملك الحمد لله على نعمه . وكان مؤيداً موفقا من جملة البشر . مخصوصا من الله بالنصر والفتح والظفر . والدهماء ساكنة في أيامه . وأهل الدين والعلم والفضائل راتعون فى انعامه

قال : وفى أيامه نشأ للناس أولاد نجباء . وتوفر على تهذيب الابناء الآباء . ليحضروهم في مجلسه ويحظوا بتقريبه فانه كان يرشح كل أحد لمنصب يصلح له بمقدار مايرى فيه من الرشد والفضل . ومن وجد فى بلدة قد تميز وتبحر في العلم بني له مدرسة ووقف عليها وقفا وجعل فيها دار كتب . قال : وكأنما عناه أبو الضياء الحمصى بقوله

وما خلقت كفاك الا لاربع * ومافى عباد الله مثلك ثانى
لتجريد هندىّ واسداء نائل * وتقبيل أفواه وأخذ عنان

قال : وظهر من تدبيره فى سياسة الممالك ما قاله سليمان بن عبد الملك عجبت لهؤلاء الاعاجم ملكوا الف سنة فلم يحتاجوا الينا ساعة . وملكنا مائة سنة لم نستغن عنهم ساعة . قال : وفى عصره نشأ طبقات الكتاب الجياد . وفرعوا المناصب . وولوا المراتب . ولم يزل بابه مجمع الفضلاء . وملجأ العلماء . وكان نافذاً بصيراً ينقب عن أحوال كل منهم ويسأل عن تصرفاته وخبرته ومعرفته فمن تفرس فيه صلاحية الولاية ولاه . ومن رآه مستحقاً لرفع قدره رفعه واعلاه . ومن رأى الانتفاع بعلمه أغناه . ورتب له مايكفيه من جدواه . حتى ينقطع الى افادة العلم ونشره . وتدريس الفضل وذكره .

وربما سيره الى أقليم خال من العلم ليحلى به عاطله . ويحيي به حقه ويميت باطله . تولى الوزارة والملك قد اختل نظامه . والدين قد تبدلت أحكامه . فى أواخر دولة الديلم وأوائل دولة الترك وقد خربت الممالك بين اقبال هذه وادبار تلك وقد اقفرت البلاد وأقوت . واستولت الايدى العادية عليها وتقوت . وقامت النوائح على النواحى . والنوادب على النوادى . فاعاد الملك الى النظام . والدين الى القوام . وعمر الولايات . ووالى العمارات . وكانت العادة جارية بجباية الأموال من البلاد . وصرفها الى الاجناد . ولم يكن أحد من قبل اقطاع فرأى نظام الملك أن الأموال لاتحصل من البلاد لاختلالها . ولا يصح منها ارتفاع لاعتلالها . ففرقها على الاجناد اقطاعاً . وجعلها لهم حاصلا وارتفاعاً . فتوفرت دواعيهم على عماراتها . وعادت فى أقصر مدة الى أحسن حالة من حليتها . وكان للسلطان نسباء يدلون بنسبه . ويدلون بسببه . ويستطيلون بأنهم ذووقرابته فقصر أيديهم . ومنع تعديهم . وساس جمهورهم بتدبيره ونظم أمورهم بسياسته . وربما قرر لواحد من الجند الف دينار فى السنة فوجه نصفه على بلد من الروم ونصفه على وجه فى أقصى خراسان وصاحب القرار راض . وليقينه بحصول ماله غير متقاض . وتوقيعه مأمون التعويق . وتفويقه لسهم السداد مقرون بالتوفيق . فقسم الملك الذى حازه السيف بقلمه أحسن تقسيم . وقومه أحسن تقويم . وكان ينظر فى الاوقاف والمصالح ويرتب عليها الامناء ويشدد فى أمرها . ويخوف من وزرها . ويرغب فى أجرها . ويكلها الى الأمنة . ولا يدعها مأكلة للخونة . ووظف على ملوك الاطراف وعلى أقاليم الممالك والامصار حمولا لخزانة السلطان يحملونها . وخدماً عن عصمة ولايتهم يوصلونها . وقرر معهم الحضور الى

الخدمة ومو الات الخدمات للحضرة . والوصول بالعساكر الجمة . حتى ملأ الخزائن بالذخائر . والملأ بالعساكر . ونشأ له أولاد كبروا فى دولته فاوطأ عقبهم . وأعلى رتبهم . ثم أنه لما وفر الاموال على الخزانة والعسكر . جعل فيها لأرباب العلوم وأصحاب الحقوق حقوقاً لاتؤخر . ورسوماً لاتغير . وصير احسان السلطان بين أهل العلم ميراثاً يأخذونه بقدر الفرائض . ويأمنون بها منى النوائب والعوارض . فلا جرم تذللت له المصاعب . وتيسرت له المطالب . ودانت له المشارق والمغارب .

﴿ ذكر الأكابر والكتاب فى زمانه ﴾

﴿ وهم الكمال والشرف وسيد الرؤساء وابن بهمنيار وتاج الملك ﴾

قال : كان نظام الملك مؤيداً بقرينين . مؤيدين لدولته أمينين . وهما كمال الدولة أبو الرضى فضل الله بن محمد صاحب ديوان الانشا والطغراء . وشرف الملك أبو سعد محمد بن منصور بن محمد صاحب ديوان الزمام والاستيفاء . وكلاهما صاحب الرأي والتدبير والجاه والمال والدهاء . ومعدن الفضل والعطاء . وكان لهذين الكبيرين نائبان والكمال ولده سيد الرؤساء أبو المحاسن محمد وكان مقبلا مقبولا قد اختصه السلطان بخدمته . واختاره لندمته . واستأمنه على سره وبلغت مرتبته من اصطفاء السلطان الى غاية لم يبلغها أنيس . ولم يصل الى رتبتها جليس . وقد كتب اليه السلطان يستبطئه بخط يده بيتاً

بالفارسية معناه انك لا تتأثر بالغيبة عني . فانك تجد من تأنس به غيري . وأنا أتأثر بغيبتك فاني لا أجد الانس بغيرك .

قال : نصارختنا لنظام الملك وتزوج بابنته . وزاد ذلك في منزلته . وضرب له سرادق وله الكوس والعلم . والخيل والحشم . وأما النائب عن شرف الملك فقد كان الاستاذ أبا غالب البراوستاني من أهل قم والنجيب الجرباذقاني . ثم انصرف أبو غالب وتولى مكانه في النيابة الأعز الكامل أبو الفضل اسعد بن محمد بن موسى البراوستاني فلم يزل نائبا الى ان صار استاذاً ولقب بمجد الملك بعد شرف الملك ولم يكن لأحد من السلاطين مستوف كأبي الفضل في الضبط والتحفظ . والذكر والتيقظ . وحفظ القوانين . وتدبير الدواوين . وكان أيضا ملجأ لفضلاء الزمان . وموسعا عليهم بالاحسان . وكان على باب السلطان وفي ديوانه كتاب فضلاء . وكفاة كبراء . ونواب علماء اذكياء . وكان لمتولي فارس وزير يقال له ابن بهمنيار ويلقب بعميد الدولة وهو رجل بصير بالاعمال ذو همة عالية . فاتصل بخدمة السلطان وعلت مكانته . وسمت منزلته . وصار بينه وبين سيد الرؤساء اتحاد . وصداقة ووداد . وجمعت بينهما عاهة عداوة الوزير نظام الملك ومخالفته وتصادقا على عداوته . وكيف تكون عاقبة حال المدبر . اذا عادى المقبل . فلم يزالا حتي نكبا وأهينا وطردا وهجرا بعد ذلك القرب . وأبغضا بعد ذلك الحب . وسجنا واعتقلا . وحبسا وسملا . وسقطت منزلة كمال الدولة أيضا بسقوط منزلة ولده وأدركته حرفته . ونكبته نكبته . وخدم من ماله الخزانة السلطانية بثلثمائة الف دينار وزادت جلالة نظام الملك بعداوة المذكورين وتولى مؤيد الملك بن نظام الملك مكان كمال الدولة . من ديوان الانشاء والطغراء

واقام مدة واستناب ابا المختار الزوزني ثم استعفى فتولى ابو المختار بحكم الاصالة ونمت بكمال الملك . وكان من نواب كمال الدولة ابى الرضى وأتباعه فبلغ الى منصبه ثم انتقل الى جوار ربه . وكان الرئيس تاج الملك أبو الغنائم المرزبان بن خسرو فيروز من أولاد الوزير بفارس وقد خدم السر هنك ساوتكين مدة وهذا الأمير كبير الدولة والمتحكم فيها وكان قد اثنى على تاج الملك عند السلطان وشكره وذكر انه يصلح لخدمته وقال انه معتمده على خزانته وأمواله وكان رجلا سرياً بهياً فصيحَ اللهجة . حسن البهجة .

له هممٌ لا منتهى لكبارها ... وهمته الصغرى أجلُّ من الدهر
له راحة لو أن معشار جودها ... على البر كان البر أندى من البحر

فقبله السلطان وأقبل عليه وولاّه وزارة أولاده الملوك وسلم اليه خزانته وولاه النظر فى أمور دوره وحرمه وعوّل عليه فى بعض الولايات وفوّض اليه أمر بعض العساكر وجعل له مع ذلك كله ديوان الطغراء والانشاء

ألبسه الله ثياب العلى ... فلم تطل عنه ولم تقصر

فاستناب عنه الكيا مجير الدولة أبا الفتح عليَّ بن الحسين الأردستانيَّ وصار كاتب الرسائل وكان أوحد عصره . ونسيج وحده . وكان رجلا سكيتاً حسن السمت كثير الأدوات . موصوفاً بالثبات . فغيّر تاج الملك ببهجته المقبولة واصغاء السلطان اليه أوضاع المملكة جميعها وبدّد نظامها النظاميّ . وبدّد احسانها الحسنى . وأذهب حلاوة قبول الوزير من قلب السلطان . وظهرت عليه آثار الملال . ونطقت أساريره بأسراره كالماء يبوح بأسراره صفاؤه . ويلوح فى قراره حصباؤه . ومع ذلك كلما زاد تقريب السلطان لتاج الملك ازداد تقربه الى الوزير . بالتوقير والتوفير . فقد كانت هذبته نكبة

عميد الدولة وسيد الرؤساء . فلم يغتر من السلطان بذلك الادناء . لكنه تحيل عليه . ودبت فى الباطن عقاربه اليه . وكان يكرم مجد الملك المستوفى ويثنى عليه عند السلطان . وكان سديد الملك أبو المعالى المفضل بن عبد الرزاق بن عمر عارض الجند فقربه أيضاً تاج الملك وجعله من حزبه واستولى بهما على حيازة الاموال والاعمال واتفقوا على حل نظام الملك ومخالفته وغيروا رأى السلطان فى وزارته وراموا ازالة ذلك الطود العظيم . ونثر ذلك السلك النظيم . وهو شيخ قد طعن فى سنه . وبلغ بقوته أمد وهنه . وأيس من نجابة أولاده وطال عمره حتى سئمه . وأنس بالملمات فلن تؤلمه . فلم يكترث بهم . ولم يلتفت اليهم ولا تأثر بكيدهم . ولم يقم وزناً لعمرهم وزيدهم . فقتل يوماً غيلة بسكين ملحد . ودفن بدفنه الجود والفضل والدين فى ملحد . وذلك فى سنة ٤٨٥

وتوفى السلطان بعد قتل الوزير بثلثة وثلاثين يوماً ولم يعش تاج الملك بعد ذلك أكثر من ثلثة أشهر على الخوف والخطر ثم قتل قتلا ذريعاً . وبضع بالسيوف تبضيعا . وسبب ذلك ان المماليك النظامية اتهموه بقتله فاجمعوا على عداوته وفتكوا به فعلم الناس ان سلامة تلك الدولة وأربابها وسلامة سلطانها كانت بسلامة ذلك الشيخ منوطة . وبحياطته محوطة

قال : ولما مل السلطان طول مدته . واستطالة مكنته . أنفذ اليه يوما تاج الملك برسالة ووكل على لفظه بعين من أكابر خواصه حتى يبالغ فى ابلاغها . ولا يراقبه فى ادائها . وكان مضمون الرسالة انك استوليت على ملكى وقسمت ممالكى على أولادك واصهارك والمماليك فكأنك لى فى الملك شريك . أتريد أن آمر برفع دواة الوزارة من بين يديك وأخلص الناس من استطالتك فأجاب جواب مثبت رابط القلب حاضر اللب غير مرتاع ولا

مرتاب وقال « قولوا للسلطان كأنك اليوم عرفت انى فى الملك مساهمك . وفى الدولة مقاسمك . وان دواتى مقترنة بتاجك فتى رفعتها رفع . ومتى سلبتها سلب » فلما سمع جواب الرسالة ازداد فى غيظه عليه واستشاطته وكأن ماجرى على نظام الملك من الاغتيال تجويزاً من السلطان مضمراً . وأمراً مبيتاً مدبرا .

قال : ونظم أبو المعالى النحاس أبياتا بالفارسية يخاطب فيها السلطان فقال ما معناه كأن ملكك من أبي علىّ وأبى سعد وأبى الرضى بالعلوّ والسعد مرضياً . فلما آل الى أبى الغنائم وأبى الفضل وأبى المعالي عاد من كسوة جمالها عريًا . عنىَ بالاوّلين نظام الملك الوزير وشرف الملك المستوفى وكمال الدولة المشرف المنشئ وعنىَ بالآخرين تاج الملك الوزير ومجد الملك وسديد الملك المنشئ مع انهم كانوا أفضل أهل زمانهم وكان تاج الملك يظهر انه صائم الدهر قال : ورأيت صلة لتاج الملك خمسة عشر ألف دينار فى أكياسها .

قال : ومع خلالهم الرياضية . والخصال الزكية . لم يخلصوا من أبناء الزمان ونشبت فيهم مخالب الهجاء . وعثرت بهم ألسنة الشعراء . وقد جمعهم أبو يعلى ابن الهبارية فى قصيدته التى يقول فيها

لو أن لى نفساً هربت لما	ألقى ولكن ليس لى نفس
مالي أقيم لدى زعانفة	شم القرون أنوفهم فطس
لى مأتم من سوء فعلهم	ولهم بحسن مدائحى عرس
ولقد غرست المدح عندهم	طمعاً فحنظل ذلك الغرس
الشيخ عينهم وسيدهم	خرف لعمرك بارد جِبس
كالجاثليق على عصيته	يعدو ودار خلفه القس

والناصح الغندور حتى الى ... جنب الوزير كانه جعس
وأبو الفتوح انت تعرفه ... وسهيل مثل الكلب يندس
وخليفة الرى الخبيث له ... بالتيس فرط القرب والانس
وأبو الغنائم فى تبظرمه ... يعلو وليس ليومه أمس
والزورنى فبارد سمج ... كالموت فيه البرد واليبس
لو أن نور الشمس فى يده ... من بخله لم تطلع الشمس
متخفف أي انى فهم دمث ... وأخفف من حركاته قدس

. . . .

. . . .

قد صار مال الارض فى يده ... عفواً وقيمة رأسه فلس
هذى امور الملك أجمعها ... فسعودها من أجلهم نحس
ولقد هممت بأن افارقهم ... وتجد بي عيرانة عنس
لكن ثنانى عن فراقهم ... علمى بأن الناس قد خسوا
من ذا أروم وأجتديه لقد ... عم البلاء وأشكل اللبس
المقتدى المسكين ليس له ... عقل ولا رأى ولا جس

. . . .

هذا وكهرائين شحنته ... كالكلب خب بارد نمس

. . . .

وأبو شجاع فى وزراته ... كالخرس لا بل دونه الخرس
أنى جهير أرتجى وهم ... بالامس اقرب سوقة غبس
أعلى أمورهم اذا نفق السطرنج عنهم أو غلا الدبس

والله لو ملكوا السماء لما عرفوا ولا اهتزوا ولا انجسوا
أم باب ابراهيم اقصده هيهات خاب الظن والحدس
قد كان محبوسا وكان له جود فزال الجود والحبس
. . . .
. . . .

ذكر ظهور الاسماعيلية

قال : فنابت النوائب . وظهرت العجائب . وفارق الجمهور من بيننا . جماعة نشأوا على طباعنا . وكالوا بصاعنا . وكانوا معنا في المكتب . وأخذوا حظاً وافراً من الفقه والادب . وكان منهم رجل من أهل الرى وساح فى العالم وكانت صناعته الكتابة تخفى أمره حتى ظهر وقام فأقام من الفتنة كل قيامة واستولى فى مدة قريبة على حصون وقلاع منيعة . وبدأ من القتل والفتك بأمور شنيعه . وخفيت عن الناس أحوالهم ودامت حتى استتبت على استتار . بسبب ان لم يكن للدولة اصحاب أخبار . وكان الرسم فى ايام الديلم ومن قبلهم من الملوك انهم لم يخلوا جانباً من صاحب خبر وبريد فلم يخف عندهم اخبار الاقاصى والاداني . وحال الطائع والعاصى . حتى ولا فى الدولة السلجقية الب ارسلان محمد بن داود ففاوضه نظام الملك فى هذا الامر فأجابه انه لا حاجة بنا الى صاحب خبر فان الدنيا لاتخلوا كل بلد فيها من أصدقاء لنا

وأعداء . فاذا نقل الينا صاحب الخبر وكان له غرض أخرج الصديق فى صورة العدوّ والعدوّ فى صورة الصديق . فأسقط السلطان هذا الرسم لاجل ماوقع له من الوهم . فلم يشعر الا بظهور القوم وقد استحكمت قواعدهم . واستوثقت معاقدهم . وأخافوا السبل . وأجالوا على الاكابر الاجل . وكان الواحد منهم يهجم على كثير وهو يعلم انه يقتل فيقتله غيلة . ولم يجد أحد من الملوك فى حفظ نفسه منهم حيلة . فصار الناس فيهم فريقين فمنهم من جاهرهم بالعداوة والمقارعة . ومنهم من عاهدهم على المسالمة والموادعة . فمن عاداهم خاف من فتكهم . ومن سالمهم نسب الى شركهم فى شركهم . وكان الناس منهم على خطر عظيم من الجهتين . فأول مابدأوا بقتل نظام الملك ثم اتسع الخرق . وتفاقم الفتق . ولما كانوا قد تجمعوا من كل صنف تطرقت الى جميع أصناف الناس التهم . ودب الي البرئ السقم . وتوفرت على التوق الهمم . وتعين على السلطان أن يكاشفهم مدافعاً لئلا ينسبه العوام وأهل الدين الى الالحاد . وفساد الاعتقاد . كما جرى على ملك كرمان فان الرعية اتهموه بالميل الى القوم فبطشوا به وقتلوه وأقاموا ملكا آخر مقامه وسيأتى ذكر بعض الاحوال فى أيام السلاطين الذين ولوا . وما كان سلطان يلي يثق بخواصه . وسعى ذوو الاغراض فى ذوى اختصاصه . ولما عرفوا جد السلطان فى ابادة القوم سعى بعض الناس ببعض . وأحب وسمه بالالحاد لسابق عداوة وبغض . ووسمه باسم لم يمحه عنه غير السيف . ولم يجد محيداً عن التزام الحيف . وبقى فى هذه الاصطكاكات والاصطدامات خلق كثير . وجم غفير . ولم يبق للاكابر فى دفع ماعرا رأى ولا تدبير

قال : وتوفى أمير المؤمنين المقتدي بأمر الله بعد سنة وكان فى سنة

واحدة موت السلطان والوزير وجميع أركان الدولة . كل شيء هالك الا وجهه .

قال الامام السعد عماد الدين محمد بن محمد بن حامد الاصفهاني الكاتب رحمه الله وقدس روحه

ذكر نبذ من حوادث وأخبار في أيام ملكشاه

« أغفلها الوزير أنوشروان »

قال رحمه الله: ولد ملكشاه في التاسع عشر من جمادى الاولى سنة ٤٤٧ وتوفي في السادس عشر من شوال سنة ٤٨٥ وعمره ٣٨ سنة وأشهر وكان يعرف بالسلطان العادل ومن جملة عدله انه رأى شاكيا باكيا فسأله عن موجب اشتكائه . وسبب بكائه . فقال اشتريت بطيطيخا بدريهمات لاعود بربحها على عيالي . وأعيد منها رأس مالي . فأخذها مني من يده قوى اضعف عن الاخذ على يده . وتركني التركي وهو يضحك من بليتي وأنا أبكي من نكده . فقال له السلطان طب نفساً . واستبدل من الوحشة أنساً . فهل تعرفه فانكر معرفته وكان البطيخ في أول باكورته ولا يكاد يصاب منه شيء في البلد فقال السلطان لبعض خواصه قد اشتهيت بطيخاً فاجتهد في تحصيله ولو واحدة فما زال يطلبه حتى قال له بعض الامراء عندي وقد أحضره عبدي فلما علم ملكشاه احضر المتظلم وقال خذ بيد هذا الأمير فانه

مملوكي وقد وهبته لك نفدى نفسه عنه بثمانمائة دينار . وأثرى صاحب البطيخ بعد اقتار .

وكان محباً للصيد وقيل انه كان حصر عدد كل ما اصطاده بيده فبلغت عدته عشرة آلاف فتصدق بعشرة آلاف دينار . وكان بالعمارات ذا اهتمام . وبالغرامات فيها ذا غرام . حفر أنهاراً . وأوثق على المدن أسوارا . وأنشأ رباطات فى المفاوز . وقناطر للجائز . ومن جملة جميل صنعه فى العمارة عمارة مصانع طريق مكة ومنازلها . وتسهيل ما توعر من مسالك قوافلها . وخرج سنة من الكوفة لتوديع الحجيج فجاوز العُذَيْبَ وبلغ السُّبَيعة بقرب الواقصة وبنى هنالك منارة ترك فى أثنائها قرون الظِّبي وحوافر الحُمُر الوحشية التى اصطادها فى طريقه والمنارة باقية الى الآن تعرف بمنارة القرون وكان قد خرج الى الصيد وعاد فى ثالث شوال فابتدأت به حمى محرقة من امعانه فى أكل لحم الصيد فتوفى فى سادس عشر الشهر . وعاد الملك بظهور وفاته منقصم الظهر . وكانت قد جرت بينه وبين الخليفة فى تلك الايام وحشة أساءت الظنون . ونسبت الى عوارضها المنون . ومن أسباب الوحشة اقتراحه على الامام المقتدي انتقاله عن بغداد الى حيث يختاره من دمشق أو الحجاز . وعدم من جانبه الامام ما يجب من الاكرام والاعزاز . فطلب منه المهلة ثم كفى أمره ولم يخف النقلة .

قال : وقد كان قرر فتح أقاليم الدنيا فجعل الامير بُرْسُق للروم فضايقها حتى قرر على قسطنطينية له فى كل سنة حمل ثلثمائة الف دينار للسلطان . وثلاثين الف دينار له جزية يؤديها الرومي بالصغار والهوان . وسيَّر أخاه تاج الدولة تُتُش الى الشام وقرر معه فتح ديار مصر وبلاد المغرب وأمر

مملوكيه بزان صاحب الرها وآق سنقر صاحب حلب أن يطيعاه على هذا الغرض . ويساعداه على اداء هذا المفترض . وأمر سعدالدولة كهرائين بفتح بلاد اليمن . واستخلاص زبيد وعدن . فسير اليها جيشاً قدّم عليه ترشك فمضى اليها واستولى واستملى ومات بها وعمره ٧٠ سنة وهو مجدور وتولى مكانه يرِنْقُش صاحب قُتْلغ أمير الحاج . وجرى فى الاستيلاء على ذلك المنهاج . وأوغل ملكشاه فى بلاد الترك حتى أطاعه صاحب طراز وكانت حلة الدولة بجلالة جلالها ذات طراز

وفى سنة ٤٧٣ عرض العسكر وأسقط منه سبعة آلاف رجل من الأرمن المتشبهة بالترك فمضوا الى أخيه تكشْ بقلعة ونَج فقوى بهم جانبه وشق عصاه بالعصيان والشقاق وما زال السلطان ملكشاه يقصده فتارة يصالحه وتارة يكالحه حتى ظفر به فى سنة ٤٧٧ وقد كان عاهده أن لا يؤذيه ففوّض السلطان أمره الى ولده أحمد فأخذه وسمله . وفى سنة ٤٧١ دعا الاقسيس تاج الدولة تتش بن الب ارسلان الى دمشق واثقاً به خارجا عن خلافه وخرج اليه من دمشق مسلّماً . ولحكمه مستسلما . فضرب رقبته صبرا . ووغادره عاريا بالعراء غدرا . ودخل الى البلد مستبداً . وأصبح الملك به مستجدا . فى هذه السنة استولى شرف الدولة مسلم بن قريش على حلب . وفى المحرم من سنة ٤٧٣ عاد السلطان ملكشاه من كرمان الى اصفهان وكان قد ورد اليها عام أوّل وخرج اليه ابن عمة سلطان شاه بن قاورد وعاهده وعاقده . وأخذ على العهد يده . وفى صفر تسلم مؤيد الملك من المهرباط تكريت وقلعتها وأحكمها ووفر عدتها . وفى ليلة الاحد عاشر شوال توفى دبيس بن علىّ بن مزيد وكانت امارته سبعاً وستين سنة وقام بالامر بعد بهاء الدولة منصور

ومضى الى السلطان وعاد فى ثاني عشر صفر سنة ٤٧٤ بمكنة قوية وقوة متمكنة . وقد تقررت عليه أربعون الف دينار فى كل سنة

وفي شوال سنة ٤٧٤ خلع المقتدي على الوزير فخر الدولة ابن جهير وتوجه ليخطب للخليفة من السلطان ابنته وسار بعده أبو شجاع محمد بن الحسين الى المعسكر فان نظام الملك كان يكاتب في ابعاده . وكان الخليفة راغباً فيه لسداده . فكتب بخطه الى نظام الملك يأمره بالعود الى المعهود فى حق أبى شجاع وأنفذ معه مختصاً الخادم فعاد الى بغداد فى رجب سنة ٤٧٥ فى حرمة وافرة وحشمة ظاهرة . وأما الوزير فخر الدولة ابن جهير فانه لما وصل الى المعسكر تجمّل وعظم ومضى نظام الملك معه الى تركان خاتون وخاطباها فى معنى الوصلة بابنتها فقالت ان ملك غزنة وملوك الخانية قد أرسلوا فى خطبتها وبذل كلّ منهم عن ولده لها أربعمائة الف دينار . فان بذلها الخليفة فانى أختار شرفه وهو أشرف مختار . فعرّفتها ارسلان خاتون زوجة القائم مايصير اليها من الجلال والجمال . وبين لها الفقيه المشطَّب جلية الحق وحقيقة الحال . وقال هؤلاء عبيد الخليفة ومثله لا يقابل بطلب المال . فحينئذ أجابت وسددت الى الغرض وأصابت . وأخذ فخر الدولة يد السلطان على العقد وعاد في صفر سنة ٤٧٥ الى بغداد . وفى جمادي الاولى ورد مؤيد الملك من اصفهان الي بغداد ونزل في داره وضربت على بابه الطبول فى أوقات الصلوات الثلاث . وعد ذلك من منكرات الاحداث . ووصل بعطاء رضيه وقطع به ضرب الطبل . وآذنت الحباء بوصل الحبل . وفى شعبان من السنة جلس مؤيد الملك للعزاء بأخيه جمال الملك وركب اليه فخر الدولة وعميد الدولة وأقامه فخر الدولة من العزاء فى اليوم الثالث ومعه الموكب

ذكر جمال الملك أبي منصور بن نظام الملك

قال: كان كبير أولاد نظام الملك وفيه دهاء وجرأة وعزة ونخوة وخاطبه أبوه في أيام الب ارسلان ان يوزر لولده ملكشاه فأظهر امتناع أبي. وقال «مثلي لايكون وزيراً لصبيّ» ثم أقام ببلخ متولياً. وعلى تلك الممالك مستولياً. فسمع ان جعفرك مسخرة السلطان. تكلم على والده نظام الملك باصفهان. وقرر الوزارة لابن بهمنيار فهاج وتغيظ وثار وأغذ السير من بلخ حتى وصل الى الحضرة وأخذ جعفرك من بين يدى سلطانه وتقدم بشق قفاه وإخراج لسانه. فقضى فى مكانه. ثم أوقع التدبير فى حق بن بهمنيار حتى أخذه وسلمه. ثم توجه مع والده فى خدمة السلطان الى خراسان وأقاموا بنيسابور. ودبروا الأمور. فلما أراد السلطان ان يرتحل استدعى بعميد خراسان أبي عليّ وقال: أنا مفض اليك بسرّ خفيّ فقال أنا من كل ما تأمرنى به على أقوم سنن فقال: رأسك أحبّ اليك أم رأس أبى منصور ابن حسن فقال: بل رأسى أحبّ. وأنا لما تستطبني من دائه أطبّ. فقال: له ان لم تقتله قتلتك. وصرفتك عن ولاية الحياة وعزلتك. فخرج من عنده ولقى خادماً بخدمة جمال الملك مختصاً. وعرف فى عقله نقصاً. فقال: ان السلطان قد عزم على أخذ صاحبكم وقتله غداً. والصواب ان تصونوا بابادته حرمتكم أبداً. فظن السخيف العقل. ان ذلك عن أصل وجهل النظر ونظر عن جهل. وخاف على تشتت آل النظام بهذا الولد فعمد الى كوز فقّاع فسمه ولما انتبه صاحبه بالليل وطلب الفقاع أتاه بالكوز المسموم فلما شربه

أحسّ بالموت فاستدعي أخته ليوصي اليها فقضى نحبه قبل ان تقع عليها عينه . وكان السلطان قد رحل ونظام الملك قد سبقه فسار مغذًا أربع منازل حتى لحقه ودخل الى الوزير ولم يعلم بوفاة ولده فعزّاه وقال : أنا ولدك والخلف عمن ذهب . وأنت أولى من صبر واحتسب

قال: وفى سنة ٤٧٥ سار الشيخ الامام أبو اسحق رسولاً من المقتدى الى السلطان بعد ان أوصله الخليفة اليه وفاوضه شفاهاً وشكا من العميد أبى الفتح بن أبى الليث سفاها . فوصل الى خراسان وناظر مع الامام أبى المعالى الجوينىّ وكان فى صحبته من اكابر تلامذته الشاشىُّ وابن قتان والطبرىّ وكان معه جمال الدولة عفيف الخادم وعاد الشيخ أبو اسحق الى بغداد والقلوب الى حضرته متعطشة . والعيون من غيبته مستوحشة . ثم توفى قدس الله روحه فى ليلة الأحد الحادى والعشرين من جمادى الآخرة سنة ٤٧٦ ورتب مؤيد الملك أبا سعد المتولى مدرساً فلم يرض نظام الملك به وجعل التدريس للشيخ الامام أبى نصر الصباغ صاحب الشامل . فاتفق خروج مؤيد الملك وخرج معه المتولي فعاد متوليًا . وفى رتب السموّ متعليًا . وقد لقب شرف الامة وأبو نصر الصباغ مدرس . وتوفى يوم الخميس النصف من شعبان وبقى المتولى مدرساً الى أن توفى فى شوال سنة ٤٧٨ . وعزل عميد الدولة فى صفر سنة ٤٧٦ بمكتوب خرج اليه من الخليفة واجتمع يارق الحاجب والشحنة والعميد وأصحاب مؤيد الملك على باب عمورية حتى خرج بنو جهير بأهلهم وحواشيهم . وكهلهم وناشيهم . وساروا الى المعسكر وحصلوا على المنصب الأظهر . فان السلطان عقد على فخر الدولة بن جهير ديار بكر وخلع عليه وأعطاه الكوس والعلم وآذن له في الخطبة لنفسه .

وفى السكة باسمه

ثم أنفذ السلطان فى سنة ٤٧٧ أرتق بن أكسب صاحب حلوان مع التركمان الى فخر الدولة مددا . وتوفى وتقوى بهم عددا وعددا . وكان بن مروان صاحب ديار بكر قد استنجد شرف الدولة مسلم بن قريش وأعطاه يده على ان يعطيه آمد اذا أمده وأيده . وقصد بن جهير الصلح وقال : « أكره أن يحل بالعرب مكروه أنا سببه » وعلم التركمان ما رآه . فخالفوا هواه . وركبوا ليلاً وأحاطوا بالعرب فهربوا ورهبوا وطلبوا . في كل واد وناد وسلبوا . ولم يحضر تلك الوقعة بن جهير ولا أرتق وانما أصطلى نارها الامير جبق وحقن دماء العرب واستولى على جميع جمالهم . وعامت أيدى العامة فى أموالهم . وألجئ شرف الدولة مسلم الى فصيل آمد فعزت الحيلة وأعوزت الوسيلة . ووصى فخر الدولة بن جهير الامير أرتق بأن يأخذ عليه الطريق وقال اذا حصل شرف الدولة فى اليدفتحنا للسلطان البلاد . وحوينا الطراف والتلاد . فبذل شرف الدولة للامير أرتق مالا ليفرج عنه فمال الى المال وأظهر الغضب عن تحكم فخر الدولة ونفس عن خناق مسلم فسار الى الرقة وذلك فى حادى عشر شهر ربيع الأول وقصد فخر الدولة ميافارقين ومعه الامراء الاكابر سيف الدولة صدقة بن بهاء الدولة وأياز وترشك وخمارتاش فى عسكر كهرائين ولما قصد خلاط رجع هؤلاء عنه الى العراق

وفى سنة ٤٧٩ خرجت ديار بكر عن نظره وسلمها السلطان الى العميد أبى علىّ البلخىّ . فأما شرف الدولة فانه لما وصل الى الرقة . أحمد عاقبة المشقة . وعدّ مابذله لارتق من الحقوق المستحقة . فأنجز الوعد وأرسل المال . وصدق المقال . ولم يشك السلطان لما نمي اليه الخبر ان شرف الدولة

قد قبض . وان مبرم أمره قد نقض . فخلع على عميد الدولة بن جهير وأنفذه الى ولايتـه . وكاتب التركمان بطاعته . وأنفذ معه الامير آقسنقر قبل أن يصير صاحب حلب وسار فى صحبته . واتصل به الامير ارتق وصار فى جملته . ووصل الى الموصل فأطاعه أهلها . وتسهل له وعرها وسهلها . وتوجه السلطان الى بلاد مسلم بن قريش . فى أقوى جأش وأوفى جيش . فلما علم سلامتـه ونجاته . وانه بالمكر قد فاته . أرسل اليه مؤيد الملك بن نظام الملك ووثقه بالايمان وآمنه بالمواثيق وقدم به الى السلطان وهو بالبوازيج . فأحلى له جنا الجناب المريع وأسامه فى مراد المراد البهيج . وكانت أحواله قد ذهبت . وأمواله قد نهبت . واستقرض ما خدم به وقدم خيله وفيها بشار وكان فرساً سابقاً مذكوراً وهو الذى نجا به يوم آمد وسبق ووثب الخندق وراهن السلطان شرف الدولة على مسابقته . فأجراه مع الخيل فى حلبته . فجاء سابقاً ولما طلع صبح غرته من ظلام قتامه قام السلطان للاعجاب به وأظهر انه لاكرامه . وفى صفر سنة ٤٧٨ تجرّع شرف الدولة كأس الحمام . فانه فتك به خادم له فى الحمام

قال : وكان المظفر أبو الفتح ابن رئيس الرؤساء قد رتب فى ديوان الخليفة بعد خروج بنى جهير واستقل بكل ترتيب وتدبير الى أن وزّر أبو شجاع محمد بن الحسين فى سنة ٤٧٩ لامير المؤمنين وخلع عليه خلعة الوزارة ولقبه ظهير الدين مؤيد الدولة سيد الوزراء صفىّ أمير المؤمنين . وخرج فى خفه توقيع من انشاء أبي سعد بن الموصلايا ووصل عماد الدولة سرهنك ساوتكين الى واسط ومنها الى النيل فى شهر رمضان وزار المشهدين الشريفين وأطلق بهما للاشراف مالا جزيلا وأسقط خفارة الحاج وحفر العلقمىّ

وكان خراباً من دهر . وقدم بغداد وتلقاه الوزير أبو شجاع ووصل الى حضرة الخليفة ليلة الاربعاء ثامن ذى الحجة وخلع عليه . وأحسن اليه . وكان قد عاق به السل فسار لوقته الى اصفهان وتوفى بها فى سنة ٤٧٧ . وكان قد توجه جمال الدولة عفيف الى اصفهان فى اتمام العقد للخليفة على بنت السلطان فعاد الى بغداد فخلع الخليفة على بن أبى شجاع وسنه يومئذ اثنتا عشرة سنة ولقبه ربيب الدولة وأخرجه لاستقبال عفيف واستمر أبو شجاع فى وزارته جريئاً فى الشجاعة شجاعاً فى الجرءة . أهلا لمحمود الذمام ذاماً لاهل الذمة . وألزم اكابرهم بلبس الغيار . وأداء الجزية على وجه الصغار . حتى اسلم الرئيس أبو غالب بن الاصباغى غيرة من الغيار . ونفضاً لما كان على صفحات أحواله الحالية بموضع النصرانية من الغبار . وأسلم الرئيسان أبو سعد بن العلاء بن الحسن بن وهب بن الموصلايا صاحب ديوان الانشاء وابن أخيه أبو نصر بن صاحب الخبر وكان فى رتبته فى السماء وذلك فى رابع عشر صفر سنة ٤٨٤ وثقلت وطأة الوزير . على الصغير والكبير . وترك المحاباة فى الدين . ووافق ذلك وصول كتاب من السلطان فى عزله . ووقوع ضجر الخليفة من فعله فخرج التوقيع بصرفه فى تاسع عشر صفر فانصرف وهو ينشد

تولاها وليس له عدوٌّ وفارقها وليس له صديق

قال : وكانت أيامه أنضر الايام . وأعوامه أحسن الاعوام . فخرج ثانى يوم عزله يوم الجمعة ماشياً الى الجامع من داره . فى زىّ شاهد باستبصاره واعتباره . وانثال الناس عليه يصافحونه فانكر ذلك عليه وأُلزم داره . وضيّق الخليفة عليه أعذاره . ثم سافر فى الموسم الى الحج وتوفى بالمدينة على ساكنها السلام فى النصف من شهر جمادى الآخرة سنة ٤٨٨ فدفن بالبقيع

عند قبر ابراهيم عليه السلام وكان مولده بكنكور سنة ٤٣٧

ولما عزل أبو شجاع تولى أبو سعد بن الموصلايا النظر فى الديوان . وكان كبير الشأن كثير الاحسان . تولى ديوان الانشاء بعد سنة ٤٣٠ وعاش الى أن ناب عن الوزارة المقتدية والمستظهرية ثم أعيدت الوزارة الى عميد الدولة بن جهير فى السابع والعشرين من ذى القعدة سنة ٤٨٤ وكان السلطان ببغداد فركب نظام الملك وتاج الملك وأكابر الامراء الى دار عميد الدولة لاجلاله . والتنويه بمنصب اقباله . وفى سنة ٤٨٢ درّس أبو بكر الشاشىّ فى التاجية ثالث عشر المحرم . وفى جمادى الآخرة توفى أبو القاسم الشريف الدبوسىّ مدرّس النظامية . وفى محرم سنة ٤٨٣ قدم الشيخ أبو عبد الله الطبرىّ بمنشور نظام الملك متوليًا للتدريس بالنظامية . ثم وصل بعده القاضى أبو محمد عبد الوهاب الشيرازى للتدريس بالنظامية أيضاً وتقرر ان يدرس هو يوماً والطبرىّ يوماً . وفى سنة ٤٨٤ قدم الشيخ أبو حامد الغزالىّ الى بغداد للتدريس في المدرسة النظامية وكان فى العلم بحراً زاخراً . وبدراً زاهراً . وأشرقت غرائبه فى المشرقين والمغربين . وملأت حقائب الملوين . وثقلت غوارب الثقلين .

ذكر دخول السلطان ملكشاه الى بغداد

فأما فى النوبة الاولى فانه دخل الى بغداد فى رابع ذى الحجة سنة ٤٧٩ والوزير أبو شجاع خرج لاستقباله . وتوفية حق اعظامه واجلاله . وركب

فى اليوم الثالث الى الحلبة ولعب بالأكرة وأنفذ اليه الخليفة أفراساً وألطافاً
وتصافيا وتهاديا ومضى نظام الملك الى المدرسة والى دار الكتب بها وقلبها
وتصفحها . ورمّ أحوالها وأصلحها . وعاد الى دار ولده مؤيد الملك فأقام بها
ليلتين . وفى سابع عشر المحرّم سنة ٤٨٠ استدعى الخليفة السلطان الى حضرته
على لسان ظفر الخادم فبشر وجهه وسفر ونزل فى الطيارة فلما وصل الي باب
الغربة قُدِمَ اليه فرس من مراكب الخليفة . حتى انتهى الى السدَّة الشريفه .
وأمره الخليفة بالجلوس فامتنع . وتواضع حتى ارتفع . ثم أقسم عليه حتى
جلس . وزاد فى ايناسه فأنس . ولم يزل نظام الملك يأتى بأمير أمير الي تجاه
السدَّة ويقول للامير هذا أمير المؤمنين . ليعفرّ بتقبيل الارض الجبين . ويقول
للخليفة هذا فلان وعسكره كذا وولايته كذا وكانوا فوق الاربعين وكان
فيهم آيتكين خال السلطان . فانه استقبل القبلة وصلى ركعتين . ومسح وجهه
للتبرك بأركان الدار من الجانبين . وعاد السلطان وعليه الخلع السبع والطوق
والسوار . وقد ظهرت عليه من آثار الجلالة الانوار . فمثل بين يدى السدة
الشريفة وقبّل الارض مرات وأمر الخليفة مختصاً خادمه فقلده بسيفين وقال
الوزير أبو شجاع « ياجلال الدين سيدنا أمير المؤمنين الذي اصطفاه الله لعز
الخلافة . واجتباه لشرف الامامة . واسترعاه للأمة . واستخلفه للدين والملة .
قد أوقع الوديعة عندك موقعها . واصطفى الصنيعة عندك موضعها . وقلدك
سيفين لتكون قوياً على أعداء الله تجوس بلادهم وتذلُّ رقابهم . ولا تألو فى
مصلحة الرعية مقاماً . ولا تدخر عنها اهتماماً . فبطاعته تقبل عليك الخيرات
من جوانبها وتدرّ البركات بسحائبها » وسأل السلطان فى تقبيل يد الخليفة فلم
يجب الخليفة الى تقبيلها . فسأل في تقبيل خاتمه لترفيهها وتبجيلها

قال: وفى النصف من صفر خرج من بغداد الى خراسان . وأما النوبة الثانية من دخوله الى بغداد فانه دخل اليها فى الثامن والعشرين من شهر رمضان سنة ٤٨٤ ومعه نظام الملك وتاج الملك وأكابر مملكته وأرباب دولته وبرز أمين الدولة بن الموصلايا لاستقباله . وخرج خروج الوزير فى جميع أحواله . وخرج السلطان منها ومضى الى خوزستان فى صفر سنة ٤٨٥ بعد ان سير قسيم الدولة آق سنقر الى حلب والامير بوزان الى الرُّها وحرّان . وأما النوبة الثالثة فانه دخلها فى الرابع والعشرين من شهر رمضان سنة ٤٨٥ بعد قتله نظام الملك ومعه تاج الملك وكانت وفاته بها فى شوّال

ذكر حوادث

قال : فى ليلة السبت السادس والعشرين من شهر رجب سنة ٤٧٨ توفى قاضى القضاة أبو عبد الله محمد بن علىّ الدامغانىّ ومولده سنة ٣٩٨ ودخل بغداد سنة ٤١٩ . وولى القاضى أبو بكر المظفر بن بكران الحموىّ الشامىّ قضاء بغداد . وتوفى فخر الدولة أبو نصر محمد بن محمد بن جهير بالموصل فى سنة ٤٨٣ ومولده بها سنة ٣٩٨

قال الامام عماد الدين رحمه الله : عاد الحديث الى تعريب كتاب أنوشروان

ذكر حال ولاية السلطان أبي المظفر بركيارق
«ابن ملكشاه برهان أمير المؤمنين»

قال: كان للسلطان ملكشاه أربعة بنين وهم بركيارق ومحمد وسنجر ومحمود وكان محمود طفلاً فبايعوه على السلطنة لان أمه تركان خاتون كانت مستولية فى أيام ملكشاه فلما درج بقي بحكمها ولأن الامراء والوزراء كانوا من صنائعها فاختاروا ولدها ولان الخاتون المذكورة كانت من أولاد الملوك ففضلوا ابنها على ان بركيارق كانت أُمه سلجقية ولكن لم يكن من بني السلطان ببغداد حاضراً الا ولدها الطفل فبايعوه وساروا الى اصفهان وأجلسوه على سرير الملك وأخرجوا تلك الاموال العتيدة . والذخائر الطارفة والتليدة . ففرّقوها بأمر خاتون

قال: وفى أول العهد فتك بتاج الملك مماليك نظام الملك فانه كان وزيراً لخاتون وولدها ولما سمع مماليك نظام الملك ان خاتون وولدها قد قصدا اصفهان خرجوا ببركيارق منها الى الريّ وشرعوا فى جمع العساكر عليه وحملهم على ذلك دخلهم القديم الذى فى قلوبهم من تاج الملك وكانوا ينسبون اليه قتل نظام الملك . وفى مبادئ هذا الامر تولى المستظهر بالله الخلافة وأخذوا منه بيعة محمود ثم جاء بركيارق الى اصفهان محاصراً . ولم يكن معه أحد من أرباب الدولة حاضرا . فان الاكابر كانوا محصورين . واجتمعت عليه جماعة من أبناء الدهر غير معروفين . ولما سمعت والدته باصفهان واسمها زبيدة خاتون انه على قصدها سفر وجهها للسفر . وخفر ما كانت فيه من ذمام الخفر . ومات

محمود وماتت والدته ولم تنقض سنة وتم الملك لبركيارق

وزارة عز الملك أبي عبدالله الحسين بن نظام الملك

قال: كان شريبا خميرًا . لا يصيب رأيا ولا يحسن تدبيرا . بعيدا من الكفاية . قريبا الى الغواية . خاليا من المعاني . معروفا بالقصور والعجز والتواني . فلما زاد اختلال الملك . بعدم نظام الملك . ظنوا انه يرجع الى نظامه باحد أولاده فاستوزروه ووقروه وعززوه . وكانت علامته احمد الله وأشكره وكان له أخ صغير اسمه عبد الرحيم فجعلوا اليه منصب الطغراء وقالوا أن هذا المنصب لايحتاج الى فضل وليس الا مجرد ذلك الخط القوسي . وكان الاستاذ على ابن أبي على القمى وزير كمشتكين الذى كان قد عامر بيا لبركيارق وآتابكه . فحين ولى السلطنة نفذ أمره ومضى حكمه حتى كأنه فى الملك شاركه . وتولى الاستاذ على ديوان الاستيفاء . وجرت بايالة هؤلاء فى الدولة أمور شنيعة وأحوال فظيعة ولو تمشى أمر من الامور فانما كان بكفاية الاستاذ على فانه كان يرجع الى نظر لوذعى . ورأى ورى . والباقون كالاصنام لايضرون ولا ينفعون . وأم السلطان قد خلعت عذارها ووافقت كمشتكين الجاندار على المنكر ومعاقرة المسكر والسلطان مشغول باللعب والعشرة مع عدة من الصبيان والوزير أيضا منهمك فى الشرب مع الاخدان . والمساخر والمجان . ووصلوا الى بغداد واختاروا المقام فيها . والهتهم مغانيها وغوانيها . وصار الامر مهملا . والعدل مغفلا . وكان من أكابر الامراء فى ثغور مصر والشام أميران

كبيران فى الجاه والقدر . كافيان في حفظ الثغر . وهما آق سنقر وبُزان . فتابعا الكتب والرسل الى السلطان . بخروج عمه الملك تتش بن الب ارسلان . وانه قد خرج من دمشق وقد حشد جموع التركمان . فما قرأ لهما كتابا حتى يئس الاميران ووقعا فى ورطة الشر وظنا انهما يقاومان تتش فى ردّه عن قصده فوقعا فى طريقه حتى حصلا فى قبضته . وقتلا بسيف سياسته . وتوجه تتش نحو الرى وهمذان وقم وجرباذقان وأمراء الدولة البركيارقية كل منهم فى بلده مشغول بما هو فيه من القصف والعزف . قال : ومما قاله أبو منصور الآبيّ أحد فضلاء العصر بالفارسية فى قتل الاميرين ما معناه

قد غرقنا فى الشرب والسكر حتى　　　لم نفكر في سنقر وبزان

ماظفرنا بالبيدق الفرد فى الدست　　　ولكن قد أسلم الرخان

قال : والاجناد طلبوا اصلاح حالهم وتركوا بركيارق واتصلوا بعمه ووقع هو الى اصفهان وكان بها من بقايا الدولة الخاتونية جماعة أقوياء فحبسوه وأتعبوهم فمنهم من مات فى اعتقاله . ومنهم من نجع دون نفسه بماله . قال : وكانت خراسان أيضا مضطربة وكانت بين ولدى الب ارسلان بورى برس وأرغو مقارعات هرب منها مؤيد الملك ابو بكر عبيدالله بن نظام الملك الى اصفهان فرأوه أهلا للوزارة فى ذلك الوقت فخلعوا عليه خلعة تامة للوزارة وعاد به الملك الى النضارة . وكان مصرفا للسيف والقلم . عارفا بلغتى العرب والعجم .

له بين العوالى والمعالى　　　وما بين المهندة الذكور

مقامات شرفن فما يبالى　　　أمات على جواد أم سرير

ولم يكن فى أولاد نظام الملك اكفى منه وكان أوحد العصر . بليغا فى

النظم والنثر . فتقدم ونظم تلك الامور المنثورة . وطوى تلك السيئات المنشورة . وكانت علامته الحمد لله على النعم . فتوجه الى مصاف تتش وقال لمجد الملك أبي الفضل وهو منزو باصفهان « قم وصاحبني » فاجابه « فاذهب أنت وربك فقاتلا انا هاهنا قاعدون » فلما ضرب المصاف كسر تتش وقتل فى المعركة وتوحد بركيارق بالمملكة واستبرك بالوزير

قال أنوشروان : كنت معه فى المصاف وذلك فى سابع عشر صفر سنة ٤٨٨ عند قرية يقال لها داشلو على اثنى عشر فرسخاً من الرى فوصل مؤيد الملك الى السلطان فى المعركة وهناه بالفتح فابتسم سروراً بما آتاه الله من المنح وقال له « كل هذا ببركتك ويمن نقيبتك » فأمن الناس من أنه معزول . وانه وزير مقبول . وكانت وزارته فى ذى الحجة سنة ٤٨٧ ولما وصلوا الى الرى بعد الوقعة بادر مجد الملك أبو الفضل الى الرى من أصفهان واستمال قلب والدة السلطان فى مبدأ الامر وتمكن من الدولة وقبض على الاستاذ على المستوفى فسمل واعمى . وبقى مؤيد الملك وحيداً يتوقع البلاء ويتمرض . ويتمثل أكلت يوم أكل الثور الابيض . وكان أخوه فخر الملك أبو الفتح المظفر اكبر سنا منه وهو حينئذ بالرى متعطش الى الوزارة فاطمعه مجد الملك فى موضع أخيه . وساعده على توليه . واعتقل مؤيد الملك وحبس . ورتب فخر الملك فى الدست وأجلس . ولما كانت والدة السلطان صاحبة العنايه بمجد الملك أعانت على مؤيد الملك فكتب من الحبس اليها أبياتاً بالفارسية يستعطفها ويتضرع اليها . واستقل مجد الملك بالاستيفاء وغلب على الوزارة وبقى فخر الملك صورة بلا معنى . وكان أيضاً خالياً من الكفاية والفضل والادب . وعلاما لكل شئ غير النسب . وهو أسير تصرفات مجد الملك وتابع رأيه وليس له

من رسوم الوزارة الا علامته وهى الحمد لله على نعمائه وقال مؤيد الملك فيه بيتين بالفارسية عربهما عماد الدين وهما

ماذا أقول عن امرئ * جمع المعاير والمعايب

عادت مناقب والدي * من شؤم منصبه مثالب

قال : وخلص مؤيد الملك من الاعتقال وأقام مدة مديده فى حماية بعض الكبراء تارة فى نهاوند وتارة فى مشكان مظهراً انقطاعه الى العبادة ثم انه قصد سرير الملك المحمدى فى جنزة ورأى ان اقبال محمد على ادبار بركيارق غالب . وانه لامحالة لملك أخيه وارث أو سالب . وكان فى نفس محمد طلب السلطنة فقواها مؤيد الملك وحقق رجاءها فيها فقبله الملك محمد واصطفاه واستأمنه لخلواته . واستشاره فى عزماته . ثم سلم اليه وزارته وشغف بقربه وأسكنه صميم قلبه . وقلب مؤيد الملك وكل بالانتقام . ورأيه معمل فى تسديد مرامى ذلك المرام . ولم يزل يقرب على السلطان محمد البعيد . ويلين عنده الشديد . ويحبب اليه الجد ويبغض اليه اللعب حتى حرك اليه ساكن ارادته وسار من أوان به فى شرذمة قليلة وبلغ به فى مدة يسيرة الى دار الملك أصفهان فتبوأ بها سرير سروره . واجتاب حبير حبوره . واستمال اليه العساكر واستقاد الى بهجته ونهجته الاسماع والنواظر . وألجأ بركيارق من الاوساط الى الاطراف . ومنى بالاغتراب والاعتساف . وقبض على الخاتون زبيدة وحبست فى قلعة الري ثم سعى مؤيد الملك في خنقها فخنقت وأحاطت به أوزار قتلها وأحدقت . وأما مجد الملك فانهم أفسدوا عليه قلوب العساكر وأضروها بمضرته . وأغروها بطلب غرته . فبضعوا بين الجمهور بسيوفهم أعضاءه . ووزعوا أشلاءه . وذلك فى سنة ٤٩٢ وله إحدى وخمسون سنة . وكان

رجلا مواظبا على الخيرات والصيام والقيام . واقامة الصلاة . وايتاء الزكاة . مديماً للصلات والصدقات . لم يسع قط في دم . ولم يخط الى مضرة أحد بقدم .

ذكر خروج السلطان أبي شجاع محمد بن ملكشاه قسيم أمير المؤمنين من جنزة وأرّن الى الريّ وأصفهان

قال كان هذا السلطان مؤيدا موفقاً . محققاً للرجاء فيه مصدقا . ميمون النقيبة . محافظاً على تقواه مع الشبيبة . يحب الاقتداء بآثار جده الب ارسلان في سياسة المملكة وعلو الهمة . وكان وقوراً مهيباً . أريباً لبيباً . فلما جلس على سرير ملك أبيه وجده ووجد قواعد الدولة بايالة أخيه مختلة . وعقودها منحلة . ضم النشر . ونظم المنتشر . وأحكم القواعد . وأبرم المعاقد . وأعاد مؤيد الملك الى منصب أبيه في الوزارة . وملأ بسناه أفق السيادة . فلابس هذا الصدر الامور بصدر واسع . ورأى رائع . وتدبير لشمل السداد جامع . فاستقلت الدولة باجتهاده عن كبوتها . وزالت نوبة نبوتها . وبقي سنين وقد انتقم من خصومه باخذ الثار . وشفاء غلل الاوتار . وحاز مال مجد الملك وسعى في قتل زبيدة خاتون فلا جرم عاد مرتهنا بجرمه . وعثرت قدمه في ظلمة ظلمه . وأسره عسكر بركيارق في مصاف جرى بين الاخوين على حد همذان وأحضره بركيارق بين يديه وأوثقه كتافا وعصب للقتل عينيه وهو قد رفع صوته بكلمة الشهادة ولم يظهر منه جزع . ولا خور ولا فزع . فضرب

بركيارق بيده عنقه. وكان قصد والدة السلطان والسعي في دمها أو بقه. فاعدم مثل ذلك الشخص العديم النظير . وأعنق ذلك الوزر في حز عنق ذلك الوزير . وهيهات أن يلد الزمان مثله في دهائه . وزكائه ورأيه وحيائه. ولطفه وظرفه . ولينه وعطفه .

قال : وآلت وزارة بركيارق الي الاستاذ عبد الجليل الدهستاني ولم يكن له أثر محمود. ولا يوم في الكفاية مشهود. بل تفاقم شره الى أن أخرج املاك الناس في الاقطاع .وكان في الظلم مستطيل اليد طويل الباع. ولم تطل أيامه فانه بقر بطنه باطني على باب اصفهان . قال :وبقيت حقوق مؤيد الملك عند السلطان محمد محفوظة. وبعين الرعاية ملحوظة . فاعتقد ان نصير الملك ولده النجيب وانه اذا ولاه قضى حق أبيه . فولاه وزارة بنيه. وكان يأنف الكلب من لؤمه . والبوم من شؤمه . ومعايبه لاتعد . ومخازيه لاتحد. وعنّ له ان يشتغل بعلم الأوائل فبلغ منه الى حدّ التعطيل .ووقف عند محار الدليل. وقد صنف ابو طاهر الخاتونيّ فيه كتابا سماه تنزير الوزير . الزير الخنزير . وبطل بعد مؤيد الملك ذلك الترتيب. وظهر على وجوه الايام التقطيب.واستمرت سنين بين محمد وبركيارق مصافات.وتمت مخافات وافات .

قال أنو شروان : وكنت قد فجعت بمصرع مؤيد الملك وأثر في قلبي مؤلم ملمه . وأزعجني عن المقام مقيم همه. حتى حصلت بالبصرة فأقمت بها مدة ثلاث سنين . وصادفت اخوانا صادقين . من جملتهم الشيخ الامام أبو محمد القاسم ابن عليّ الحريري صاحب المقامات يوافقني في الجد والهزل طائعاً فينظر من تيني ويسمع من سمعي . وفي هذه المدة التي أقمت فيها بالبصرة درج بركيارق وكانت وفاته بالسل والبواسير بير وجرد في ربيع الآخر سنة ٤٩٨

وبلغ من العمر خمساً وعشرين سنة ووقع عليه اسم السلطنة وله اثنتا عشرة سنة وقاسى من الحروب واختلاف الامور مالم يقاسه أحد فتفرد بالسلطنة أخوه محمد ودان له المشرقان . وتصرف بيده زمام الزمان .

قال أنو شروان: فجاءني يوماً توقيع سلطاني على يد أمير من بعض الخواص فاستدعاني واستدناني فوصلت الى بغداد والسلطان محمد بها فى وزارة سعد الملك ابى المحاسن سعد بن محمد الآبى وكان وزيراً سعيداً حسن الطريقة ذا هدو وهداية . ورأى وكفاية . فجمع العساكر على الطاعة السلطانية وأطفأ نائرة الفتنة الشيطانية . وكان الامير الاسفهسلار اياز مقدم العسكر البركيارقي فلما توفى بركيارق صار اتابك ولده ملكشاه فقام مقام والده . ورد ملكه به الى قواعده . فاهتم سعد الملك باستمالته . وحلف له على سلامته . فلما مكن من نفسه قتلوه . وأخذوا ملكشاه بن بركيارق فسملوه . وذلك في سنة ٤٩٩ فزال الشغب وسكنت الدهماء . وكانت للوزير سعد الملك فى هذه الحيل اليد البيضاء . قال: وسرت فى الخدمة لما ساروا الى أصفهان . ومادام هذا الوزير في ولاية السلطان . ظهرت له آثار حميدة . وآراء سديدة . وكانت علامته الحمد لله على نعمه وكانت له فى الباطنية نكايات . ورفعت له فى فتح قلعة شاهدز رايات . وكانت قلعة منيعة على جبل اصفهان تناصى السماك . وتناظر الافلاك . وقد تحصن بها أحمد بن عبد الملك بن عطاش طاغية الباطنية في طائفته . وبليت أصفهان وضياعها ببليته . فسما لها سعد الملك بالرأى الصائب . والعزم الثاقب . وتلطف فى افتتاحها . ودبر فى استنزال من فيها على ايثار الملة الاسلامية واقتراحها . فأنزلوه من معقل الى عقال . وبدلوه آجالا من آمال . وألصقوا خد تلك القلعة بالترب . ووضع الهناء فيها مواضع النقب .

وكذلك افتتح قلعة خان لنجان . وهي أيضاً بقرب أصفهان . وكانت قد خربت تلك الولاية بما لاهلها فيها من النكاية . وكان بأصفهان رئيس يقال له عبد الله الخطيبي وهو حاكمها والمستولى على رئاستها وهو رجل جاهل من أنواع الالوم خال محتال . يبدى تمسكاً باظهار زهد وورع محال على محال . ولم يكن له سوى ضخامة جثة . وفخامة لحية كثة . وكان لقاؤه الامى مقبولا . وكلامه السمى معسولا . وكان من هـذا الوزير خائفاً . وبمعرفة الوزير بباطن شره عارفاً وطلب من السلطان خلوة غرّ السلطان فيها بتمويهه . وروّج لديه سوق تلبيسه . وتمّ نفاق نفاقه . وبرز هلال محاله من محاقه . وجرى من مناصيبه على سعد الملك انه حقق فى اعتقاد السلطان انه صديقه الصادق . ورفيقه الموافق . الا ان فيه عيباً واحداً وهو انه الى الباطنية مائل . وبمذهبهم قائل . وانه مجتهد فى ازالة هـذا الاعتقاد من قلبه . والمبالغة في نصحه . اشفاقاً على ما أجد من حبه . فانه يعز عليّ فساد مثله مع فضله ونبله . واعتقد السلطان صدق قول الخطيبيّ وحسبه خالياً من الغرض . حالياً للنصح المفترض . ثم أغفل مدة وعاد اليه وآيسه من قبوله . وأسف على مافاته اليه من سوله . وصار يشفع الى السلطان فى تأجيل أمره . لاجل ماعنده من مودته . وان لايعجل فى عقوبته . وقد وضع من خواص السلطان صبياناً على الوقوع فى الوزير . وانه باطني الضمير . ولم يزل به حتى أوقعه فى الحبس . ولما قيد رتب جماعة من الاوغاد شنعوا على الوزير فى دار السلطان فى مجمع من الامراء والقاضى حاضر . وقال كل منهم هو ملحد وكافر . ومازالوا بالسلطان حتى صلب الوزير مع عدة من أكابر ديوانه . ببهت عدوه وبهتانه . وذكر انه لما اطلع الوزير على مكيدة خصمه . دبر في مكيدة عليه . فعاد على الوزير وبالها . وآل الى

اهلا كما آلها . وذلك انه كان عارفاً بمكاتبات كانت بين الخطيبيّ ورئيس الباطنية أحمد بن عبد الملك بن عطّاش فى مبادى أمره . وكان مطلعا على سره . فأراد ان يستدعى بعض تلك المكاتبات بخط الخطيبيّ ويقول للسلطان هذا الرجل رمانى بما هو مذهبه وشأنه . وخطه هذا حجة قولى وبرهانه . وأرسل فى ثقاته في هذا المهم من كتب على يده بخطه توقيعا بالجواز . ولم يوصه بالاحتراز . فظفر بالرسول من كان مرتبا لحفظ طريق القلعة . ومنع الميرة عنها والطعمة . فوجدوا خط الوزير معه بالجواز فأخذوا الخط وكان من أعظم أسباب ذلك الخطب وذلك ان السلطان حفظ خطه الى ان قبضه . ثم عرضه عليه فصرح له ان كتابه للتلف عرضه . فلما أوتى كتابه لم يعدّ جوابه . وما نبس بكلمة . ولا فاه ببنت شفة . ولو قال لما سمع . ولو اعتذر لدفع عذره ومنع . وكان من أمره ما كان . ولقى الرحمن . ولقد كان رجلا خيرا نقى الأديم . كريم الخيم . جامعاً لآلات الوزارة . وأسبابها لاثقاً بقلم السيادة ودواتها

قال : وكان المستوفى فى وزارته للسلطان زين الملك أبو سعد بن هندو ولم يكن له أصلٌ ثابتٌ . ولا فرعٌ نابتٌ . ولما تولى خرج واستخرج . وأمر وأمرج . وأخذ الاموال جزافاً . وأسرف فيها اسرافاً . ولما انقضى أمر سعد الملك رفعت عليه رفائع وأخذ وحبس واستصفيت أمواله ونهبت دوره وتخبطت أموره وبقي فى الحبس سنين . ولقى العذاب المهين . وكان صاحب ديوان الانشاء في وزارة سعد الملك نصير الملك محمد بن مؤيد الملك وكان مع جهله وعدم فضله للديوان به أبهة وجلالة . وحلية وحالة . فزلت به قدمه . ولم يأخذ أحد بيده . وبقى مشنوءاً مهجوّاً مهجوراً بكمده . وكان وكيلدر السلطان فى وزارة سعد الملك اميرى القزوينى المعروف بالزكي

ذو كيسة من جملة التجار وكان قد هرب من أبي مسلم رئيس الرى والتجأ الى سعد الملك، فارا الوزير أن يكون بينه وبين السلطان من يتردد في المهمات. ويأتيه بجواب المؤامرات والرسالات . والذى يتولى هذا الشغل يقال له في العجم وكيلدر أى وكيل الباب ومنزلته أخص من منزلة الحجاب ويجب أن يكون منطيقا بليغا . متجرعا فى مضايق الكلام الغصص مسيغا . متدللا باقامة الحجة عند الحاجة . متجنبا للسماجة . بقول ينسب الى السماحة عارفا باخلاق السلطان فى أوقات رضاه وسخطه . وقبضه وبسطه . فاذا وجده منقبضا تلطف فى تنشيطه مما ينفق عليه من الحديث الرائق . والقول النافق . حتى اذا رأي منه سيماء القبول حدثه بمقصوده . والا جرى فى الامساك على معهوده . فان السلطان لا يثبت خلقه على حالة . ولا بد له من ضجر وملالة . وكان هذا القزوينى خاليا من هذه المعانى كلها لكنه التمس الى سعد الملك هذه الولاية فأجابه الى ملتمسه . ووافقه على هوسه . لسلامة نفسه . وذهب عنه انه سوقى قفز من الدكان الى باركاه السلطان فزاحم أركان الدولة بالمكانة والمكان وكان اذا خاطب السلطان وشافهه حدث له عجب فانخرع وانخلع . وخرج عما فيه شرع وجمع بين الاروى والنعام . والضباح والبغام . ثم لا يتكلم الا بكل ما يضر . ويسوء ولا يسر . واستضر سعد الملك من جانب ذلك العاجز بغير قصد منه فى حقه وأى ضرر أقوي وأمكن من كونه قتل فى حبل خنقه . وكان عارض الجيش فى وزارته أيضاً أبو المفاخر القمى وكان قد غلب عليه فى اصطلاح الخاصة والعامة نعت طرطنبيل . وما عرفوه بغير هذا الاسم الثقيل . وصرف في وزارته وولي عمله عز الملك بن الكافى الاصفهانى وبقي فيه أشهراً فلما أخذ سعد الملك اقترنت نكبته بنكبته .

واتفقت صلبته مع صلبته . واستدعى مختص الملك أبو النصر القاشي في وزارة سعد الملك وصرف به من ديوان الانشاء محمد بن مؤيد الملك فقبل هذا وذاك طُرد . وأقيم ذلك وهذا أقعد .

قال : وخلا الميدان للخطيبي فصار محكاً للاسلام . وهو عند السلطان مقبول الكلام . وأصحاب السلطان عنه خاشون . والى بابه غاشون . وكان اذا سأله السلطان عن واحد كيف تعرفه أجاب مرة بلا أدرى ومرة بلا أعرفه وتارة امهلنى فانى ابحث عنه واكشفه وتارة يشهد عليه بما يهدر دمه

قال : وحدثنى ابن المطلب وكان وزير الامام المستظهر قال ما زال هذا الخطيبي ببغداد يتوصل حتى ابصر قهرمانة لدار الخلافة فقال لها اليوم أجرى معى السلطان حديث هرون أخى الامام المستظهر وسألنى عنه فدخلت القهرمانة الى الدار واوصلت الى سمع أخيه ما حدثها به الخطيبي فقامت قيامة الخليفة وتمكن الاستشمار من نفسه الشريفة فكتب الى الوزير يأمره بالركوب الى الخطيبي ويحمله على الاضراب عن ذكر أخيه . ويحمل اليه ستة آلاف دينار اميرية يدفع بها شره ويكفيه

قال : فاستأذنته فى الركوب اليه فى الليل . فانه اخفى للويل . فما صبر ولا وجد القرار حتى ركبتُ اليه وأرضيته بما حملته . واستعفيته عن حديث هارون واستنزلته

قال : وكذلك لم يترك من خواص السلطان أحداً الا لوّثه . وشوش عليه رأيه وخبثه . ولم يغادر أحداً من الخاصة والعامة الا طرّق اليه ظِنّة . او قلده بسكوته عنه مِنّة . وقال له السلطان يوماً كيف كان أصحاب دواوين والدى وجدّى فى أديانهم . وانهم كانوا لا تقدح فى ايمانهم . فكيف اختص

هذا اللوث بزمانى وباصحاب ديوانى فقال اولئك كانوا من أصحاب خراسان. وهم أهل الدين والاحسان. وهؤلاء أهل العراق. أهل الالحاد والنفاق. فتخيل السلطان صحة مقاله. واستحكم تقريب الخراسانيين وابعاد العراقيين فى خياله. واعتقد انه ليس فى العراق مسلم. وان افق الملك بغير الشرفيين مظلم. وكان بالعراق جماعة من أهل خراسان محرومون مهجورون من كل جاهل مجهول. وساقط ذى خمول. ومنزو الى ناحية. ومتنح الى زاوية. ومتنمس بالرياء. ومتهوّس بالكيمياء. وبطال مرجف. وعمّال محترف. فلما عرفوا ميل السلطان اليهم رفعوا رؤوسهم. وعرّضوا نفوسهم. وخطبوا المراتب. وطلبوا المناصب. وغفلوا بل غفل السلطان عن هذه النكتة ان خراسان عشّ مذهب الباطنية. وبها افرخ وباض. ومنها شاع وفاض. وفيها حصونه التى لم تفتتح. وعيونه التى لم تمتنح. وانقضى عصر سعد الملك سريعاً. وصار بالمكر الصريح صريعاً. وعاد الملك المريع منه مروعا.

وزارة الامير ضياء الملك ابى نصر احمد بن نظام الملك

قال: لما نكب سعد الملك طمح الى الوزارة عمرو وزيد ووصل يوم نكبته الامير ضياء الملك وخطير الملك ابو منصور محمد بن الحسين الميبذى وكان قد استدعى من فارس فاختلفت عليهما الآراء فرأى السلطان حفظ الجانبين. وأمر بتولية الصاحبين. وجعل دست الوزارة للنظامى. ومنصب الاستيفاء للميبذى. والف بتأليفهما قلوب خواصه. وخص كلا منهما

باستخلاصه . وأعطى سياسة ملكه حقها . وجلا بسناء احسانه أفقها . قالت الحكماء : « منازل السياسة اربع فالاولى سياسة الرجل نفسه . والثانية سياسة أهله وولده ومن يضمه منزله . والثالثة سياسة بلد واحد يتقلده . والرابعة سياسة الملك كله . فمتى عجز عن منزلة من هذه المنازل فهو عن التى تليها اعجز » لاجرم ابتلى هذا الوزير بشفعة نسبه . وهو غير خبير بسلوك مذهبه . ولم يكن من شغله ولا من اربه . وكانت علامته احمد الله على نعمه . فقضى حقه بشغل عجزت اللقاة الدهاة عن القيام به ووقع اسم الاستيفاء على الخطير كما يدعى بالجهل . اسم النبوة ابو جهل . فلم يكن للمنصب المأهول دسته بأهل . وخواجه مختص الملك صاحب ديوان الرسائل . معدم من الفضائل . وهو عند اولئك اكتب الكتاب ويعجز عن كتب خمسة اسطر بالفارسية فضلا عن العربية

قال انوشروان : وانا ولانى السلطان الخزانة فانه استدعانى الى خلوته وخصنى بكرامته . وسلم الىّ خزائن ممالكه وكان هؤلاء الاكابر انما يصلون الى السلطان فى الباركاه اذا جلس لعامته وانا اختص بخلواته واستسعد بمحادثته . فعظمت وجاهتى بمواجهته . وحسدنى اكابر الدولة على منزلتى . وانتظروا زلتى ومزلتى . واتفق فى ذلك الوقت ان الامير السيد ابا هاشم الحسنىّ رحمه الله رئيس همذان . قد تغير عليه رأى السلطان . وذلك لان قوما من ارباب الدولة تناصروا عليه . وادبّوا عقارب مكايدهم اليه . وأطمعوا المتوج بن ابى سعد الهمذانىّ فى ايالة همذان ورئاستها وكان المتوج هذا من جهة الرئيس منكوبا . وبيده مضروبا . فاوقعوه فى معارضته . وعرّضوه لواقمته . وأغلقوا على الامير السيد وعلى اولاده باب داره . وسدوا عليه طريق فراره .

وقرروا عليه سبعمائة الف دينار احمر . سوى ما يلزمه من توابع ولوازم هى اكثر من ان تحصر

قال انوشروان : فامرنى السلطان بالمسير الى همذان لاستيداء هذا المال . وعاد السيد ابو هاشم وهو شيخ كبير قد ضعف بصره . واختل نظره . فعظم عنده ما قرره عليه واستكثره . فمحضت له النصح وضمنت له النُجْح . وعاقدته على مساعدته . وعاهدته على معاضدته . ووعدته بالسعى فى اصلاح حاله . وانجاح آماله . ونقدَ سبعمائة الف دينار عتيق فى سبعة أيام من موجود خزانته . ولم يستعن بأحد من أهل مدينته . وحثنا على المسير . ولم يأذن لنا فى المقام اليسير . فحين اوصلت المال الى خزانة اصفهان . ولقيت السلطان . شافهته بحقيقة امره . وعرّفته اختلاف اصحاب الاغراض بالباطل فى حقه . فامر السلطان باعادته . الى رئاسته . ومنصب سيادته . وسير اليه الخلع السنية والتشريفات اللائقة بشرفه . وأحيي متلد مجده بمطرفه

قال : ولما حصل ذلك المبلغ فى الخزانة سلمها الىّ . وعوّل فى دخلها وخرجها علىّ . فتوليت الخزانة والزكىّ ذوكيسة فيها . وكدخدائية الخزانة به منوطة . واامورها بامانته مربوطة . ولما سار السلطان الى بغداد فتك بالزكىّ هذا فى سوقها فقتل فى الحال قاتله . ولم يعرف من اىّ وجه غالته غوائله .

قال : وقد سبق القول بأنه لم يخلص من طعن الخطيبيّ سوى مختص الملك الكاشىّ . فلم يثبت على تلك الحالة فانه شرع عند السلطان يقدح فى دينه . ويجرى من الشر فى ميادينه . ثم انه قد نقش فى لوح خاطر السلطان ان الباطنى لا يعرفه غير الباطنى فاجتهد حتى دل على رجل من الباطنية من الخوف مختف . وفى بعض الزوايا مكتف . فاحضره وآمنه . وقوي نفسه

بما أمكنه . وقال له « لا بأس عليك ولا سبيل للاذى اليك » ولقنه أسامي مائة نفس من خدّام السلطان . وأعيان البلدان . وقال له « اذا سئلت عمن تعرفه من الباطنية فاذكر هؤلاء . وعدهم على الولاء » فرده الى موضعه وقال « لا تخف فانك ان أخذت أنجيتك . وان أخذ منك أعطيتك » فلما عاد الرجل الى مكمنه حضر الخطيبي عند السلطان وقال : « قد دللت على رجل باطني في موضع كذا وأرجو أن يقع فلعله يفتح علينا بشيء من أمر الباطنية » فامر الحاجب بانفاذ من يأخذه فأخذ وأحضر وسئل عمن يعرفه من الباطنيـة في البلاد والعسكر فاعاد ما لقنه من الخطيبي وأجري ذكر مختص الملك أبي نصر والصفي القمي أبي الفضل نائب الخطير في ديوان الاستيفاء وكذلك عد قريباً من مائة من المعروفين فأخذوا وسلموا الى الاتراك . وتصرفوا منهم في الدور والاملاك . وتشتت أهلهم . وتفرق شملهم . وفي أثناء هـذه المكايد والحيل نزل الخطب بالخطبي وضرب بغتة بسكين سكنت حركته . وأسكنت نامته . واشمتت به خاصة الزمان وعامته . وبقى المكذوب عليهم في السجن شهوراً . وانتقم الله ممن جاء في أمرهم بهتاناً وزوراً . ثم تبين للسلطان بعد قتل الخطيبي انه كان محالياً مستحلا . مستبداً بالاحتيال والاغتيال مستقلا . وعرف أن ذلك الباطني ذكر من ذكره بتلقينه فندم السلطان ولات حين مندم . وأمر بالافراج عن أولئك المساكين . ولم يسمع السلطان بعد ذلك حديثاً في اعتقاد . ولم يصدق نسبة مسلم الى الحاد . واذا جري عنده حديث الباطنية قال « انهم في القلاع وهي موضعها ونحن نقصدها ونقلعها » وشغف بحصار حصونهم وفتح قلاعا لو بقيت الى الآن في أيديهم لعم العالم الكفر

قال : وكان شمس الملك بن نظام الملك أخو الوزير حاضراً وكنت متولياً لعرض الجيش فنقل هذا المنصب منى اليه بعد أن أخذ منه الفى ديناراً خدمة أوصلها الى الخزانة وبقى فى قلب السلطان من مختص الملك شئ من الارتياب به لم يزل . ومن يسمع يخل . ولم يكن ظهرت بعد احتيالات القاضى فأزال السلطان اختصاص المختص . وتعمد قوادم شغله بالحص . وكان الامير العميد محمد الجوزقانى عميد بغداذ فاستدعاه ونقل اليه منصب المذكور . واعتمد عليه فى تلك الامور . وهو منصب الطغراء . وليس أكبر منه بعد الوزارة الا منصب الاستيفاء . ثم الطغراء . ومن جملته ديوان الرسائل والانشاء . ثم الاشراف ثم عرض الجيش . والطغرائي هو وزير السلطان فى الصيد لغيبة الوزير وعليه المعول . فصار الامير العميد طغرائياً . وكان من كسوة الفضائل عريا . وتولى أيضاً وزارة كوهر خاتون بنت الامير اسماعيل ابن ياقوتى زوجة السلطان وكانت وزارتها أيضاً منوطة بكفاية المختص فصرف من الشغلين . وتسلم الامير العميد المنصبين . وهذا محمد الجوزقانى كان ولد خطيب جوزقان . خرسانى المولد والاصل وانما كانت الرغبة فيه لخرسانيته . لا لانسانيته . وتعرف الى السلطان بالمذهب الحنفى ومشاغبته فيه . وادلاله بالتعصب بين ذويه اذا سلم عليه واحد لم يسمح له برد السلام . حتى يقول له ما مذهبك من أهل الاسلام . وكان قبيح الجبه . شديد النجه . صفيق الوجه . كابى براقش فى تلونه . وكالعقعق فى تقلبه . وكالذئب فى توثبه . وهو خارج عن الحد فى تعصبه .

قال : وكان قد خلص زين الملك أبو سعد بن هندو من الحبس ونزل فى المعسكر بغير شغل ثم داخل صدور الديوان . واستولى على المكانة

والمكان . وكان خالياً من أدنى فهم . جاهلا بكل علم . ومن جملة ذلك انه سلم اليه كتاب قرار ليكتب خطه بما جرى من قرار الديوان فكتب كذا الاستقر بالالف واللام وكتب فلان بن فلان

تعس الزمان لقد أتى بعجاب　　ومحا صنوف العلم والآداب
وأتي بكتّاب لو انطلقت يدى　　فيهم رددتهم الى الكُتّاب

وكان الوزير ضياء الملك رجلا سهل الحجبة . صادق اللهجة . اذا جلس فى صدر وزارته . وأحدق الصدور بوسادة سيادته . انار دسته . وحسن سمته . وكان كل منهم اذا اجتمعوا سلقوه بالسنة حداد . وكدروا ورده فيما هو قانون الوزارة من الاستقلال والاستبداد . قال : ولما لم يكن مباشرته للوزارة صائبة . وكانت الآمال فى نجحه خائبة . لم تلق مدة ولايته تمكيناً وبقى بعد صرفه اثنتى عشر سنة مسجونا . ولقى أضعاف كرامته هواناً . ولم يصادف من زمانه واخوانه الا خوانا

قال : وتوفى الامير السيد أبو هاشم الحسنى رئيس همذان فنقل من خزانته الى خزانة السلطان بعد ما أداه مبلغ مائتين وخمسين ألف دينار وما أثر ذلك في حال بيته . وقام حيه بتأثيل مجد ميته . وزاد تقريب السلطان لولده . وقوى يده على رئاسة بلده . وظهرت مخايل عصيان ملك العرب صدقة بن منصور بن دبيس بن على بن مزيد الاسدى وذلك فى سنة ٥٠٠ فتغير رأى السلطان فيه حتى جرّ اليه عسكره . وكدر اليه مورده ومصدره . وجرت بينهما وقعة غلبه السلطان فيها وقتله . واستضاف مملكته الى مملكته . واستخلص ماكان فى يده من ولايته . وحيز أقليمه بقلم الحيازة الديوانية . وتصرف فيه كتاب الدولة السلطانية . ومزقوا بالتبذير تلك الاموال الجزيلة

وخربوا بسوء التدبير تلك الاعمال الجليلة

قال : وقد كثر تعجبي من السلطان يتأنق فى تخير كلاب الصيد وفهوده . وانما يقتني منها مايراه موافقاً لمقصوده . فيسأل عن فروعه وأصوله . وانقطاعه ووصوله . فما باله لايتخير لديوانه . ومراتب سلطانه . من الكفاة الأفاضل . والصدور الاماثل . من عرفه ذاك . وعرفه زاك . وعرقه كريم . ومجده قديم . وطريقه في الكفاية مستقيم . لقدكان هؤلاء أولى بالاختيار . وأجدر بالاختبار . فانهم أمناؤه على مملكته . ووكلاؤه على دولته . وسفراؤه فى خدمته

وزارة خطير الملك أبي منصور محمد بن الحسين الميبذي

قال الصادق عليه السلام : كل شيء يحتاج الى العقل الا الدولة . قال : وقد عرف انه معدم من كل آلة وأداة . غير لائق برعاية يراعة . أو الاقة دواة . حمارٌ رامحٌ . جانحٌ جامحٌ . عضوضٌ رفوسٌ . حرونٌ شموسٌ . معدن الغش والدغل . منبع المكر والحيل . وكان قد وزّر مرة أولى . وعرفوا ان يده فى القصور طولى . لكنه توسل فى هذه المرة لعوده الى الوزارة بجنس توصل بن جهير فى الوصلة الى نظام الملك بابنته . وهذا لم يكن له وصلة شرعية ولكن تم له الامر بمثال وسيلته . والى ذلك أشار بن الهبارية فى وزارة بن جهير

قل للوزير ولا تفزعك هيبته   وان تعاظم واستعلى بمنصبه

لولا ابنة الشيخ ما استوزرت ثانية　　فاشكر حراً صرت مولانا الوزير به

وكان رجلا جسيماً ملء التابوت . وعقله أوهن من بيت العنكبوت . فاذا استند الى مسنده فى الديوان . اعتقد انهما مسندان محشوان

وزير غاص فى شحم ولحم　　ولم ينسب الى عقل وفهم

اذا لبس البياض فمدلُ قطن　　وان لبس السواد فتلُّ فحم

وكانت علامته الحمد لله المنعم . وكانت له في الجهل نوادر شوارد . وبوادر بوارد . ومن جملة ذلك انه كان يوماً ببغداد راكبا فى زىّ حسن . وموكب خشن . وجمع جمّ . وبهم ودُهم . وجلال الدين عميد الدولة أبو علىّ بن صدقة الذى وزّر للمسترشد مسايره . والجند قد عقدت بروايته ورويّته اسماعه ونواظره . فالتفت الخطير الوزير وقال « قد أشكلت علىّ مسألة لابد من حل أشكالها . وانشاط قلبي من عقالها . هذه اللواطة سنة قديمة سبق اليها القدماء . أو رسم مستحدث أحدثه السفهاء » فقال له بعضهم « هذا رسم قديم لقوم لوط » فقال الخطير « ومن كان لوط » فقالوا « نبىّ من أنبياء الله » فقال « متى كان قبل نبينا أم بعده » قالوا له « كان نبينا صلى الله عليه وسلم خاتم النبيين . وسيد المرسلين . ولا نبىّ بعده » قال « فما الذى قال فيه » قالوا له « قد أنزل الله فى قوم لوط إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ » قال « ما معنى تجهلون » وكان عجمياً لايعرف كلمة عربية فقالوا له « أى لاتعلمون » فقال « هذا حسبُ فالامر اذاً سهلٌ وعذر فاعله انه ذو جهل وأنا اعتقد انه أعظم وزراً وأفظع أمراً » فانظر الى جهالته فى ضلالته . ونزارته فى وزارته . وكان مهذاراً مكثاراً لايستر شواراً . ولا يحذر عثاراً . وما كفاه ذلك حتى استتاب بن الكافى

الاصفهانى الناقص الملقب بالكامل . الطويل بغير طائل . واللئيم الذى كان له عند الكرام طوائل . طناز غماز . هماز لماز . وكان من نوائب الدهر . كونه نائب الصدر . يمن بان أخته تحت الوزير . وهو بذلك بالغ القدرة واقتدر . وهو من الذين قال ابن الهبارية فيهم من أبيات في ذم أصفهان

بلد أبو الفتح اللئيم عميده والقاسم بن الفضل قيل رئيسه
وطريفة الكافى الطويل وشيخه مع انه دنس المحل خسيسه
وابن الخطيبيّ الصغير محله قاض وجرو المندوى جليسه

فاتفق جميعهم على الوقيعة فى زين الملك ابى سعد بن هندو . حتى بلغوا فى مكروهه ما ودوا . فباحوا بسر سرائره . وحملوا السلطان على أخذه بجرائره . وانما تمشّى لهم السعى فيه بما كثروا عند السلطان من ثروته . وقالوا انا نتقل ماُتى الف دينار الى الخزانة من خزانته . فأمر السلطان بأخذه وتسليمه الى التونتاش . وأوقعه فى مخاب ذلك البطاش . فحمله من اصفهان الى مدينة ساوه وصلبه يوم الجمعة فى شارعها . فلما قتل تصرفوا فى ماله . وتدينوا باستحلاله . وأنسوا السلطان المأتى الف دينار . وتحكّم ابن الكافي في ذلك المال . واستوعبه الكامل على الكمال . وأُعيد فى وزارة الخطير ديوان الاستيفاء الى معين الدين مختص الملك فتولى بعد العزل وتمكن من الشغل وعبث بهم ابو طاهر الخاتونيّ فى أبيات فارسية قال الامام عماد الدين : وعرّبت بعضها وقلت

صدور ما بهم للملك ايراد واصدار
خفاف لو نفختهم وهم فى دستهم طاروا
رأيتهم كما كانوا وأعرفهم كما صاروا

وكان الاستاذ الموفق ابو طاهر الخاتونيّ من صدور الدولة . وأعيان المملكة . وأفاضل العصر واماثل الدهر . ذا فصاحة وحصافة . ولطافة وظرافة . في النظم والنثر جامعاً لادوات خدمة الملوك . خبيراً في مناهج المناجح بالسلوك . قد قلب الأمور ظهراً لبطن . وجرّب الحالين من قوة ووهن . ولم يزل مذ نشأ والى آخر عمره صدراً كبيراً . ومشاراً الى صوبه وبالصواب مشيراً . وما زال لخاتون مستوفياً . وديوان السلطان بكفايته مكتفياً . فلما تولى هؤلاء عرفوا نقصانهم عند فضله . وانخفاض محلهم في البراعة عند ارتفاع محله . وعلموا انه لا يغضى عن عيبهم عينه . وانه لايقضى الاَّ من عروض عرضهم ان قارضوه أو عارضوه دينه . فتخيلوا من تزييفه وانتقاده . وتحيلوا بكل طريق بعد تقريبه فى ابعاده . فتمحلوا له من جرجان شغُلا . وعدّوه له أهلا . وجرَّ الى جرجان . جرّجان . ونقل من أعز مكانة الي أذلّ مكان . قال الامام عماد الدين رحمه الله . وشكا فى أبيات عجمية أعجام حظه وابهامه . واقلال قلمه واعدامه . فعربتها وقلت

لمرتبة الكتاب فى عصرنا ... على رتبة نحن فيها شرف

وما عاد ذو قلم مفلحاً ... فان الفلاح لطبل ودف

قال : وكان مختص الملك قد شمر جفنه للشعر فيه فعاد كأنه شكل مثلث فى عين رأسه . فقال فيه الموفق الخاتونىّ بيتاً بالفارسية مشتملا على معنى بديع وهو انه ينظر من مثلث عينه الى الناس نظر تربيع فقلت

لصدر الصدر ضيق فى اتساع ... ويطمع في كمال من قصور

على التثليث ناظره ولكن ... من التربيع ينظر فى الأُمور

قال : وما زال الوزير يصغى فيه الى السعاة . ويسيم فى مرعى سمعه

سرح الوشاة . ونسبوا اليه التقصير والتخليط . والافراط والتفريط . وأحال الوزير عليه بمائة الف دينار وانتهز فى أمره الفرصة . وأخذ في استدعائه من جرجان الرخصة . فاستحضره وتشدّد فى إرهاقه . واستصفى ماله فماد ذلك باملاقه

قال الفتح بن علىّ البندارىّ الاصفهانيّ منتخب الكتاب : رأيت بخط جدي رحمه الله ان موفق الدولة قال فى تلك الحالة أبياتاً مطبوعة بالعربية ومن جملتها قوله

نهبوا ماملكت في بغدادى   واستباحوا ذخائري وعتادى
فأنا اليوم غير ذقني وسنى   مثلما كنت ساعة الميلاد
وهما الآن رهن قلع ونتف   تحت هذا الابراق والارعاد

قال : فأحوجته الحوالات عليه الى الاستقراض . وانضاف اشتغال ذمته الى الانفاض . وكان للاستاذ الموفق معرفة بالكمال السميرمىّ وبينهما صداقة صادقة . ومودة صالحة من كأس الصفاء غابقة . وسيأتى ذكر الكمال عند انتهاء ديوان الاشراف اليه فى الايام المحمدية . وعند استقلاله بالوزارة فى الايام المحمودية . ولقد كان من أوسع الصدور صدراً . وأرفعهم قدراً . وأحسنهم تدبيراً . وأجملهم تأثيراً . وكان يلقب بعز الدين وهو فى منصب مشهور . ومذهب فى السماح مشكور . فلما أملق الموفق كتب اليه أبياتاً ذكره فيها بحقوق خدمته . وعقوق حظوته . وشكا فيها حاله . وهجا الوزير وأشكاله . قال عماد الدين . ولم يأت لى تعريبها : ولم يأنس بخاطرى غريبها . فأضربت عن ضربها . لما عصانى ضربها . وله فى شكوى حاله . ماعربت معناه نسجاً على منواله . وقلت

وكم بيذق فى خدمة الشاه ساعة | تفرز لما صار فى سابع الدست
ولى أخدم السلطان سبعين حجة | وها أنا حىّ للاضافة كالميت

قال : وملأ هـذا الوزير الخطير مخازن مخازيه . والـكامل بن الكافى موازنه وموازيه . ولم يكن عنده من الله خبرٌ . ولا فى قلبه من الدين أثر وكلما طال عليـه الدهر تطاول على نبيه حتى تأسست بالشرّ مبانيه . وحلت له مكاسب لا يرضى المجانين بها مجانيـه . والسلطان لهم كارهٌ . وضميره له بما هم فيه مشافهٌ .

ذكر جلوس شرف الدين أنوشروان بن « خالد فى نيابة الوزارة »

قال أنوشروان : فراسلنى السلطان بخادم من خواصه . وشكا من الوزير اعتياد اعتياصه . وقال « هذا الوزير قد أيست من فلاحه . ولا مطمع لى فى اصلاحه . وفى كل وقت يحكم فى بيتى من أولاد الـكافى . غير كاف واذا رمت وفياً جاء فيـه منهم بجاف . وقد عرفت يا أنوشروان طريقتك . وعلمت حقك و حقيقتك . وأنا أوثر ان تنوب من قبلى فى الوزارة . وتعمر مابيني وبينك فى السفارة . حق العمارة » فقبلت الأرض . وأديت فى تولى خدمته وشـكر نعمته الفـرض . وقدمت عـذراً لائقاً بالحال . فلما انكره سارعت الى الامتثال . وكان السلطان كريماً حليماً . لايعجل مؤاخـذة من

يخونه وان كان بحاله عليما. فخفظ قلب الوزير فى نيابة ابن الكافى لما عزله . وكان فى نفسه مؤاخذته بالمال الذى اختزله . مراعاة لقلب الوزير . ومحافظة على خطر الخطير

قال : وجلست فى النيابة عنه . على الكره منه . وكان احترامه للوزير لا تبجيلاً . بل تدفيعاً للوقت به وتأجيلا . فأجلسنى فى الديوان مكرّماً . وعلى الصدور مقدّما . لكن الوزير اعتقد أنى للسلطان عليه عينٌ . فهو يستثقلنى كأنّى ممن له قِبله ثأرٌ أو دَيْنٌ . وكانت صحبته لى على مَضَض . وصحة ملقاه لى عن مَرَضٍ . وصدور الديوان عن يمينه ويساره . مؤثرون لايثاره . يبدون لى بشرى . ويضمرون لى شراً . واتفقت كلمتهم مع افتراق طبائعهم على مضادّتى . واعتقدوا حصول محابّهم في محادّتى . فما اشتريت بشعيرتين سبالهم . ولا شغلت بالى بما شغلوا به بالهم . ولما عجزوا عن ايقاعى فى مصايد المكايد . شرعوا في تعويق الرسوم والفوائد . وتوقفوا فى توجيه واجباتى من الديوان . وتوافقوا على قطع ما أطلق لى من صلات السلطان . فكنت أتسلى بقول القائل

إنّ لله غير مرعاك مرعى نرتعيه وغير مائك ما
إن لله بالبرية لطفاً سبق الامهات والآبا

قال : ولم أخل من قصد الجماعة في نوبتي الوزارتين الضيائية والخطيرية . وما زالت تأتى منهم قوارض الاذية . وكان بين الوزير الخطير وبين المعين المختص مناوشة ومناواة . ومواحشة ومنافاة . وما كان يقدر أحدهما مع المبالغة فى قصد صاحبه ان يبلغ فيه غرضه . وكانما يخفى مرضه ومضضه . حتى مال الوزير الى كمال الملك السّميرمى فصار بينهما موازرة فى أمر المعين .

ومشورة في تكدير ذلك المعين حتى بلغ فيه ماتمناه . والخصي يفتخر بزُبّ مولاه (وسيأتي شرح ذلك في موضعه) وتوفى الامير العميد الطغرائيّ في وزارة الخطير . وخمد شررُ شره المستطير . وجلس مكانه في ديوان الطغراء. وصدر الانشاء . الاستاذ أبو اسماعيل الكاتب الاصفهاني وكان ذا فضل غزير . وأدب كثير . وكان في حياة الامير العميد منشئاً على سبيل النيابة عن الطغراء . ثم تولاه بالاصالة متصدرا في دست العلاء . وكان مع ذلك بطيّ القلم كليله . ملتاث الخط عليله . وهتف به أبو طاهر الخاتوني في نظمه. وسلط سفه الهجاء على حلمه . وأشار الى القلم في يده وقال كأنه وهو يجره برجله . مذنب يعاقبه بجرمه . وكانت بديهته ابية . ورويته روية محبية . فاذا أنشأ تروى بطيئاً . وتفكر ملياً . وغاص في بحر خاطره ثم أتي بالمعاني البديعة . والاستعارات الغريبة . وسنذكر أحواله فيما بعد . وحال الوزير الخطير لما خانه السعد .

﴿ ذكر تولى كمال الملك عليّ السميرميّ أشراف مملكة السلطان محمد بن ملكشاه وابتداء أمره ﴾

قال : كان كمال الملك عليّ بن أحمد من مدينة بقرب أصفهان يقال لها سميرم أهلها ذوو فطرة زكية . وفطنة ذكية. وكانت هذه المدينة في معيشة كُهرخاتون زوجة السلطان وأبو كمال الملك زارع غلاتها . وقابض ارتفاعاتها

ووزيرها حينئذ الامير العميد والكمال لسبب شغل والده وانجاح مقاصده مترددٌ اليه متوددٌ. ومتصدّ لاموره مسددٌ. فاستجلاه واستجلده. واستكفاه وأحمده. واستنابه فى خاصّة حين استبان نصحه. واستوضح فى ليالى نوائبه بالنجح صبحهُ. فوفر ماله. وثمّر حاله. وجعل له فى العيون هيبةً. وفى الصدور رهبةً. فبقى الامير العميد لايعتمد فى أموره الا عليه. ولا يسكن الا اليه. فلما اتفق مسير الامير العميد الى بغداد فى تولى العمارة لم يكن له بد من اقامة نائب فى وزارة كهر خاتون يلازم الدركاه. ويقيم له بخدمته عنه الاسم والجاه. فرأى ان الكمال أوفق وأوثق. وأشفى لصدره فى التصدر وأشفق. فاستنابه على انه لايستعين فيما ينوبه الا بالعزيز وكان العزيز ابو نصر احمد بن حامد رحمه الله عمّى اول ماشبّ ومضى فى البلاغة شباه. وعقد بحب العلى حباه. وصرّف اليراعة بنانه. وعرّف البراعة بيانه. وهو فى الديوان الخاتونىّ نائب على الاصل يحكم. وشابٌ عند عند مشايخ صدور يجهلون ما يعلم. فلما تولى الكمال نيابة وزارة كهر خاتون انضم اليه العزيز فضم نشره. وحسّن أثره. وأرشده ودبره

وكان الديوان الخاتونى فى الوزارة العميدية خاملا خامداً ماله غير رواتب موظفة. ووظائف مرتبة. ومعايش مرسومة. وعوائد معلومة. ليس لنوابه فى غيرها أمرٌ ولا نهىٌ. ولا لورّاده من سواها شربٌ ولا ريّ. وخاتون راضية بالهدو. متغاضية عن النّمو. فعرّفها الكمال ما فى الخمول من ذهاب رونق السلطنة. وعزل ولاية القدرة المتمكنة. وكانت هى ابنة الملك اسماعيل البغانىّ من آذربيجان. وكان كبير الشان. فقال لها « قولى للسلطان ان اجناد آذربيجان من صنائع والدى وأشياعه. وهم صاروا متبوعين فقد كانوا

أمس من أتباعه . وأريد ان تكتب منشوراً بانهم فى اهتمامى . وان امر معايشهم بيرم بابرامى » فأجاب السلطان سؤالها . وكتب لها مثالها . فسيرت الكتب السلطانية . وأمر بخدمتها الامراء الآذربيجانية . فتبادروا الى بابها بتقبيل العتبة . وتأميل المرتبة . ووصلوا بالهدايا والتحف . والالطاف والطرف . وازدحمت على بابها وفود الملوك . واتسق الى قصدها سلك الفج المسلوك . فرأت من الدولة شيئاً ما رأت . ورعت من الدولة روضاً ما رعت . فتبركت بموضع كمال الملك . وسمع الامير العميد بان نائبه قد جاءه الجاه . وقبلت يديه الشفاه . فقام وقعد . وابرق وارعد . وكتب بصرفه . والغضّ من طرفه . ومطالبته بفرعه . وعمل الحساب ورفعه . فلم تلتفت الخاتون الى قوله في كتابه . ولم تكترث بخطابه . وكتبت « ان هذا النائب عندى مرضيّ . وحقه مرعيّ . فما لك ان تصرفه . بل عليك ان تعرّفه . وتعرف له حقه وتنصفه . وهو ان حاققته فليس لك بنائب وانما هو شريك . وان امرنا بالانكار ان قُصِدَ منك أو شيكَ وشيكٌ . وأنت تعلم أيها العميد ان دور الحرم . مبرمة لها معاقد العصم . محكمة لها قواعد العظم . فما يجوز ان يتولاها فى كل قريب غريب . وما يحسن ان يتجدد فى كل حين لها مستناب ومستنيب . وهذا عرفناه بك فالاولى ان تبقيه . والا بقى لجاهك ان توليه »

فعرف الامير العميد ان الامر خرج عن يده فجدد للكمال بشغله منشورا . وطوى من شره فيه ما كان منشورا . وكتب الى خاتون « ان الآن قد قوى أملي حيث مكنت نائبي . وعرفت صحبة صاحبي . وانى ما أردت صرفه وانما أردت تهذيبه . ورمت تجريبه . وقد وفرت عليه ثلث الرسوم . وأشركته معي في أصل الفرع المعلوم » فاستقل الكمال واستمر مريره .

وثاب سروه وثبت سريره . وبقى كذلك متوليًا مستوليًا . ومتغلبًا مستمليًا الى ان قضى الامير العميد نحبه فسولته وزارتها بالاصالة . وخصته بالايالة . ثم تعصبت له عند السلطان حتى ولته إشراف المملكة فدانت له الامم . وأطاف به الحشم والخدم . وصار السلطان يكتب اليه خطه . ويطلعه على حالتى رضاه وسخطه . ثم شوش على أرباب المناصب قلب السلطان حتى تغير رأيه فى وزيره الخطير . وردّ وِردَه الى التكدير . ونقله من بنى جنسه الى بناء سجنه . ومن مجلس عزه الى محبس عزله . وسلمه الى الامير الحاجب عمر ابن قراتكين ليخرجه ويستخرجه . وليروج ماله ويورجه . قال : ونظم أبو طاهر الخاتوني بيتين فارسيين عربتهما وقلت

كان حماراً وزيرنا ومضى ··· فما عملك السلطان من خلل
لكنما فى صدور دولتنا ··· ليس لذاك الحمار من بدل

وكان شمس الملك عثمان من نظام الملك قد بقى فى حبس الوزير سبع سنين فأفرج عنه ليواقف الوزير على أوزاره . ويقرب خطى الخطير الى اخطاره فكان حبس ذلك لهذا فرجا . ودخوله فى المحبس له مخرجاً . وجمع السلطان أمراء دولته وأرباب ديوانه وفاوضهم فى وزير يفوض اليه وزارته

قال انوشروان : فأجمعوا على ان اكون المتكلم عنهم بالصواب . والمبلّغ للخطاب . وكان رأيى مائلا الى مثل ماحكى عن المعتضد . انه كان قد حرّض على عبيدالله بن سليمان وسُعِىَ عنده عليه . وكان يقول « اذا فكرت فيما ينتقض من التدبير . ويضيع من الامور بين صرف وزير وتقليد وزير . وان كان المتقلد اكفى اضربت عن نكبته » فاتفقوا ان اكون الناظر فى الامور . ومتقلد مصالح الجمهور . ومنفذ الاوامر . وجامع شمل الاكابر والاصاغر . وان

المنشئ والمشرف يكفيان بخطي وتمثيلي . ويتأثلان في شغلهما بتأثيلي . حتي يُقضى كل مهم . ويُقضى كل ملم . وبقيت الرعية مرعية . والسيرة رضية مرضية . والدهماء ساكنه . والغبراء آمنة . وطال حبس الوزير تلك المدة . ولقي الشدة . وكان خلّف الزمان رجلين من أولاد الكافي من بقايا السيوف . وزوايا الحتوف . فحبسهما السلطان معه وأختهما التي كانت زوجة الوزير على مائة وخمسين الف دينار . وسامهم في تلك المصادرة كل خسار وصغار . وباح السلطان بما كان يُضمره من أمر الوزير ولا يظهره . وكشف الغطاء عما كان يستره . والزمه بتطليق زوجته ابنة الكافي . ورماه من مفارقتها بثالثة الاثافى .

قال : وكانت الدولة السلطانية قد شارفت انقضابها وانقضاءها . وقارب خطو انتهاضها . لما قاربت انتهاءها . وبدأ بالسلطان مرض طويل اضناه وأنحله . وألهاه عن المملكة وأشغله . ووقع الفناء فى أمراء دولته . وأكابر مملكته . وبقى السلطان من مرضه فى ذوب . ومن عيشه فى كدر وشوب . فأراد أن يولى وزيراً يوصي اليه بولى عهده . ويستكفى به مهام الدولة حيث علم أنه لا يستقل بها من يقوم من بعده .

ذكر وزارة ربيب الدولة ابى منصور ابن الوزير ابى شجاع رحمه الله

قال عماد الدين رحمه الله : ذكر والدى أن أرباب المناصب لما عرفوا ميل السلطان الى تولية وزير يكفى المهام . ويحفظ النظام . ويكفل الامور العظام . خافوا من استنامته الى بطل بطاش . ومستجيش بثبات جاش . وانهم يبلون إما بذى حنق عليهم . وإما بذي فرق منهم فيدب كيده اليهم . فحسّنوا للسلطان طلب وزير من تربية دار الخلافة فانه ليس بالحضرة من يصلح لهذا المنصب . فاستدعى ربيب الدولة من بغداد الى اصفهان . وسد به المكان . فصار له اسم الوزارة بالوراثة . وكان لائقاً بتلك الدولة المريضة المتلاشية . وكانت علامته الحمد لله على النعم

قال : قال انوشروان وكان قد بقى من أيام عمر السلطان مقدار اربعين خمسين يوما وقد استحصد زرعه . وانتسخ شرعه . فجاءوا بهذا الصنم ودسوه فى الدست . وقصدوا بترتيبه شغل الوقت . واتفق موت الكفاة . وضمهم حبل الوفاة . وتناثروا تناثر ورق الخريف . وتفرقوا تفرق سحاب المصيف . ولم يبق فى تلك المدة اليسيرة من المعروفين كبير موصوف . ولا من الامراء الاكابر معروف . فصار الاتباع اصولا . والاقطاع نصولا . والدراريّ شموساً . والاذناب رؤوساً . ولم يبق في الدولة من القدماء الا مختص الملك المستوفى . والاستاذ ابو اسماعيل الطغرائىّ . فاما المختص فانهم عزلوه واعتقلوه وقرروا عليه خمسين الف دينار للخزانة ثم أخذوا خطه بأنه لا يخطب ما عاش

عملا . ولا يستنجح ما طال أمد عمره أملا . وخلوا سبيله وما خلوا له الى ثروة سبيلا . وأخذوا ما كان له فلم يتركوا له كثيراً ولا قليلا . فأفلت بجريعة الذقن . وعدّ سلامته من المنح في تلك المحن . فتولى ديوان الاستيفاء كمال الملك السميرمىّ وعلا منه الامر . وحلا له المر . واستقل واستقام . وسما وسام . ورمى ورام . والوزير هين لين . وعجزه عن البطش بين . وكمال الملك فارس ذلك الميدان . وحاكم ذلك الديوان .

وأما الاستاذ ابو اسماعيل الطغرائيّ فانهم لما لم يروا فى فضله مطعناً . ولا على علمه من القدح مكمناً . اشاعوا بينهم انه ساحر . اونه فى السحر عن ساعد الحذق حاسر . وان مرض السلطان ربما كان بسحره . وانه ان لم يُصرف عن تصرفه فلا أمن من أمره . فبطلوه وعطلوه . واعتزلوه وعزلوه . وعاد الخطير الذي كان وزيراً يعد الطغراء خطه . ولم يضره عن درجة الوزارة حطه وكان قد خلا دركاه السلطان من الامراء والكبراء فانه كان شغلهم بحصار قلعة ألموت مع الامير الكبير . انوشتكين شركير . ولقد كان شهماً شديداً . وسهماً سديداً . وسما ذعافا على العدو . وموتاً زؤاما على أهل الالحاد والعتوّ ولولا موت السلطان لتسلط على ألمَوُت . ولم يترك فرصة فتحها ان تفوت . وهو فى ذلك لها حاصر . والله له ناصر . فصير السلطان علىّ ابن عمر حاجبه الكبير . وأسمى مكانه الاثير . وكان أمير البار يعنى أمير الاذن وأمير البار هو الآذن عن السلطان اذا اجتمع الاكابر . والامير الحاجب الكبير هو الذى يسمع مشافهة السلطان ويؤديها الى الوزير فهو الناهى الآمر

قال : ولما مضى شهر اشتد مرض السلطان وبلغ الرجاء فيه اليأس . ووجد بالعدم الاحساس . وأصبح يعد الانفاس . وأمر بالحجاب وحجب عن الامراء .

وأيقن ان القدر لا يرعى له زمام ما بقي من الدماء . ولم يكن يدخل اليه الا الامير الحاجب علي بن عمر بن سرمة فهو الذي يسمع كلامه . وينفذ بالتبليغ احكامه . وسمى حديثه وصية وجعل نفسه وصيا . وعد مصدقه مطيعا والمستريب برأيه الرائب عصيا . ولما قرب الاجل . وحل الوجل . ذكر الامير الحاجب ان السلطان أمر باخراج مائتي الف دينار من الخزانة لارضاء الخصوم واشكائهم . والاستحلال من فقراء الرعايا وأغنيائهم . فتسلم ذلك المال وقبضه . وتصرف فيه على ما وافق غرضه . وكان وزير الامير الحاجب الكبير حينئذ أبو القاسم الدركزيني ويلقب بزين الدين . فمن ذلك المال تموّل . واستكثر العبيد والخول . وكان ذلك مبدأ غناه . وريعان نجح مناه. وأمر العسكر بمبايعة ولي العهد ومتابعته . وطاعته ومشايعته . وانه لابد من جلوته على السرير واجلاسه . ووقوف الامراء على رأسه . وقيل للسلطان مرضك سحريّ . ومضضك خفيّ . وانما سحرتك زوجتك فاعضل دواءك . وحملوا السلطان على ان كحلها وسملها . وحبسها في بيت ضيق واعتقلها . وأتلف عدة من حواشيها . وعصابة من جواريها . ثم أخرجوا خاتم السلطان وقالوا انه أمر بخنقها . ودخل اليهامن شد الوتر في حلقها . ومن عجيب القدر ومقدور العجب . ان الزوجين توافيا ساعة واحدة على العطب . فالخاتون في بيتها خنقت . والسلطان على فراشه نفسه زهقت . وذلك في أواخر سنة ٥١١ وقد كانت أيامه أيامن للايامى . ومراحم لليتامى . ورسومه جائزة غير جائرة . وأحكامه راضية غير ضائرة . وحصاه رصينا . وحجاه رزينا . ودينه متينا . وشرع علمه في العمل بالشرع مبينا . وكان رجل السلقجية الكامل . وخلهم البازل . وله الآثار الحميدة . والآراء السديدة . ولما حسنت سيرته . وكملت

دولته. وأصحت سماؤه. وطاب هواؤه. وصفا ماؤه. وآلت آلاؤه. أن يغني الفقير ويجبر الكسير. ويفك قلاع الاسير. ويكف العسير. وينصر الاسلام. ويكشف الاظلام. ويقلع الملحدين. ويعلي اعلام الموحدين. قبض القضاء يده وقصر أمله وأمده. وغيض بحره. وغيب بدره.

قد كان لي من قربها مستمتع　　بين الصفائح والثرى ريحانة
بجمال وجهك جاء مالا يدفع　　واذا تذكرت الذي فعل البلى

قال: وتوفى أمير المؤمنين المستظهر بالله رضى الله عنه بعد وفاة السلطان محمد رحمه الله بمدة يسيرة وتحولت الدولتان. وتفصلت الجملتان. وخلف السلطان محمد خمسة بنين وهم محمود ومسعود وطغرل وسليمان وسلجق وكل منهم تولى السلطنة سوى سلجق وسيأتى ذكرهم فيما بعد ان شاء الله تعالى

﴿ ذكر جلوس السلطان مغيث الدنيا والدين أبى القاسم محمود بن محمد بن ملكشاه يمين أمير المؤمنين ﴾

قال: فجلس على التخت مكان والده. واستقر من الملك في أعلى وسائده. وأحكم قواعده. وحضر الناس على طبقاتهم للهناء. وجلوه في دست السنا والسناء. وقبلوا الارض. وأدوا من اقامة الرسم الفرض. ووقف العظماء والكبراء سماطين على ترتيب اقدارهم وقدر مراتبهم. وتناسقوا على درجاتهم فى مراقى مراتبهم.

قال أنوشروان : وتقدم الوزير الربيب وصعد الى السرير للتهنئة وتقبيل اليد ونزل وتقدم الخطير بحكم انه كان وزيراً يفعل مثل مافعل. وكان على كل حال للشيخوخة والتقدمة يستحق ان يقدم ويبجل. فزاحمه الكمال السميرمي وأخره وتقدمه. ولم يعرف سابقته وخدمته للدولة وقدمه. فاقام الخطير رسم التهنئة بعده. ولزم كل منهم فى ذلك المقام حده. وأنا أيضاً أقمت رسم التهنئة. ووفيت حق التوفية. وكان السلطان حينئذ فى سن الحلم. متوقد الذكاء كالنار فوق العلم. مشرقا وجهه مع صغر سنه بسناء العظم.

وفى ابتداء هذه الدولة انتقلت الخلافة الى أمير المؤمنين المسترشد بالله ابن المستظهر بالله رضي الله عنهما وبويع له وجدد تقليد السلطان على الشرائط المشروعة. والرسوم الموضوعة واجتمع أرباب الدولة السلطانية واصطلحوا على التحالف وتحالفوا على الصلاح. وأجالوا بينهم فى مظاهرة البعض للبعض ضرب القداح . وكان أبو القاسم الانساباذى الدركزيني وزير الامير الحاجب على بار فصار يلقن مخدومه ويفهده . ويدله على طرق الضلال ويريه انه يرشده . ويقول ان الوزير والمستوفى ينبغي ان يكونا بحكمك. وهذا السلطان صغير ينبغى ان يكون تحت حجرك . ولا يأمر الا بأمرك . فادخل فى رأسه مالم يخرجه منه فى آخر الامر الا السيف . فأول مادبر انه ذكر للسلطان ان صلاح دولته فى افساد عمه . وانه يغلب على دولته برغمه. وكان عمه سنجر السلطان الاعظم عماد آل سلجق وسلطنته ببلاد خراسان الى العراق الى ماوراء النهر الى غزنة وخوارزم والترك قد عمت ونمت . ودولته قد علت وسمت . وهو شيخ البيت وعظيمه . وحافظ عزه ومديمه . فاحضروا الشهاب أسعد كاتب الانشاء وأمروه ان يكتب الى خان سمرقند

وقالوا له انا نقصد السلطان سنجر وهو لاشك يتوجه الينا اذا توجهنا للقائه والرأى ان تأتى أنت من ورائه . فيقع الخصم فى الوسط ويحصل فى التورّط . وكان هـذا الرأى القائل . أول ماأدب الادبار وأهب دبوره . ومحا من الاقبال حبره وأذهب حبوره . ومن جملة تدبيراتهم المدبرة أيضاً ان الامير ملك العرب دبيس بن صدقة بن منصور بن دبيس بن علىّ بن مزيد الاسدى كان مقيما فى خدمة السلطان منذ عشر سنين وقد سلا عن بلده وقنع بما فى يده . ورضى من السلطان بالرضى . وانقضي طمعه فى ملك ابيه الذي انقضى . وبلاد الحلة والولايات فى تصرف نواب السلطان والامير المجاهد بهروز الخادم الخصى نائب السلطان ببغداد والرعايا آمنة والاذايا مأمونة . والنعم راهنة والذمم بشكرها مرهونة . فبدلوا تلك القواعد وحلوا تلك المعاقد . وارتشوا من الامير دبيس وأعادوه الى العراق . فقامت الحرب على ساق . وكتبوا ملطفة بالقبض على بهروز . ومحاسبته واستخراج سرّ غناء المرموز . وكل هذا عاد بالفساد و فسد العوائد . وأفاد التمحيق ومحق الفوائد . والمفسدة الثالثة ان بلاد فارس كانت على أحسن نظام وأوفق مرام . وطاعتها شائمة . وشيعتها طائعة . والبذول فيها حاصلة . والحمول منها متواصلة . واتفق فى ذلك الوقت ان عاملها كان حاضراً بأصفهان فأشار الدركزيني على مخدومه بالقبض على العامل . ومطالبته بالحاصل . فأخذه وعذبه . وماصدقه ان المال بعدُ معدٌ بفارس بل كذبه . فلما نمى الخبر الى أمير فارس طمع فى المال وكان مبلغاً وافراً وضنّ برده واستوحش . وجاهر بالعصيان وأخش . وكان للسلطان جشران بتلك البلاد فاستاقها . وأذخار فاعتاقها . فاختلّ نظام الولايات الفارسية بتلك الآراب السيئة والاراء المسيئة

والمفسدة الرابعة ان جماعة كانوا مقيمين فى الخدمة من أمراء مازندران وأمراء الشبانكارية وهم جيل من جنس الاكراد فى جانب بلاد فارس . بلادهم ممتنعة . وقلاعهم مرتفعة . وكان السلطان الماضى قد الف قلوبهم باحسانه . وقادهم باليد الى سلطانه . لانه كانت الطرق منهم مخوفة . والفرقة منهم مألوفة. فأساء الدركزينى وصاحبه ومن وازرهما اليهم فاشتطوا عليهم . فنفروا وعادوا الى حصونهم . فأظهروا من الشر ما كان كمن . وحركوا من الفتنة ما كان سكن

والمفسدة الخامسة انه لم يخلف أحد من السلجقية ماخلفه السلطان محمد من العين والاثاث فتصرفوا فيه وتقاسموا به وفرغوا الخزانة من العين . فى أقرب من شهرين . فلما ذهب الذهب فضوا ختم الفضة وفضوها . واستخرجوا وجوه المعاملات الرابحة واستنضوها .ثم تصرفوا فى المصوغات من الحلى والاوانى والآلات . ثم في الجواهر ثم فى الثياب . ثم فى الخيل المسومة العراب . ثم فى الجمال ولم يبقوا شيئاً حتى تفرقوا بأغنام النتاج . وتقاسموا بالكباش منها والنعاج . فصيروا الملك الآهل قفراً . وأضعفوا بعد الغنى فقاره فقراً .

والمفسدة السادسة انهم قالوا ان هؤلاء مماليك السلطان لايطيبوا بطاعتنا نفساً . ولا يجدون بمتابعتنا أنساً . فاحتالوا في شت شملهم وراموا كل سهم منهم الى هدف .وكل شهم منهم الى طرف.

والمفسدة السابعة وهى المفسدة الكبرى ان العساكر التى كانت مشغولة بحصار ألَمُوت وقد شارفت فتحها . وشاهدت نجحها . شرع الدركزينى فى تفريقها لميله الى الملاحدة . ووعده لهم بالمساعدة . وأخذ

رخصة فى قبض الامير الكبير انوشتكين شير كير وهو أمير ذلك العسكر فرحلوا عن الحصار بغير ترتيب وتبعهم أهل المَوْت فقتلوا خلقاً . وذهب الباقون غربا وشرقا . ونقلوا الى القلعة من العدد الكثيرة والازواد والميرة . ماتزيد قيمته على مائتى الف دينار . ووصل الامير الكبير كُنْدُغدي الى الباب . وكان عظيما من أولى الالباب . فولوه اتابكية الملك طغرل أخى السلطان ثم حذروا السلطان منه فخاف كندغدى على نفسه وعلى ملكه فادلج به ساريا . وذهب متواريا . فلم يحوهما بعد ذلك دار . وصار من ذلك للقلب اشتغال . ولنار الفتنة اشتعال

والمفسدة الثامنة ان الامير قراجه الساقى سلموا اليه الملك سلجق أخا السلطان وولوه بلاد فارس فلما سمع الامير قيصر بقدومه وكانوا قد ولوه فارس من قبل هرب وحصل عند السلطان سنجر بخراسان وهو موتور . ونفث شكاويه التى هو بها مصدور

والمفسدة التاسعة انه كان للسلطان مماليك صغار . كأنهم اقمار . وكان عليهم من الخصيان الخواص رقباء . وعلى طوائفهم من جنسهم نقباء . فاخذ كل واحد منهم عدة واقتسموا بالغلمان الروق . وأقاموا ألف سوق للفسوق

والمفسدة العاشرة أنهم أخرجوا الجوارى المطربات . والاماء المغنيات . من دور الحرم الى دورهم . وآثروا حضورهن مجالس حضورهم . وركبوا فى الفسق كل مركب . وذهبوا فى الخزى كل مذهب . وتسلطوا على السلطان واجترؤا عليه بما اجترحوه . وتمشى لهم بصبوته كل ما اقترحوه

قال أنوشروان : ذكر لى انه لما توفى السلطان محمد دخل الامير علىّ

بار الى خزانته فاخذ صناديق الجواهر النفيسة واليواقيت الثمينة فاودعها عند وزيره الدركزيني فلما قتل على ما سنذكره حصل بها ولم يسأل أحد عنها

قال عماد الدين : وأذكر طرفا من هذا الانساباذيّ وأنسباذ ضيعة من أقليم الأعْلَمْ قريبة من درَكَزِين فنسب نفسه الى دركزين لانها أكبر قرى تلك الولاية . ومعظم أهلها أهل الاباحة والغواية . وأكثرهم من المزدكية الحرمية . وشرهم شائع فى البرية . وكان أبوه فلاحا منهم فجاء به الى أصفهان وعلمه الخط . والجرأة والخبط . ومازال مخالطا للمتصرفين غُمْراً ذا غِمْرٍ . ووتراً فى الشر أخا وتر . ما أحسن اليه أحد الا قتله . وما آوى الى جبل الا زلزله . وأول من استخدمه بين يديه كمال الملك السميرميّ وعمّى العزيز فلق كلا منهما الامرّين. وقابل بالاساءة منهما الحسنيين .

قال : وجرى وزير الوقت على تلك القاعدة فى الافساد . ولم يرى مخالفتهم على المراد . وكان من خرقه وخرق أصحابه انهم جعلوا خطاب الامير على بار بوصى السلطان وسيروه أخص ألقابه فانه الزمهم بذلك وقال يجب ان القب به وعزلوا الخطير من شغل الطغراء وناطوا به وزارة الملك سلجق المندوب الى فارس مع الامير قراجه الساقى . ومقصودهم ان يبعدوه عن الدركاه فلا يقع منهم له التلاقي . وفى كل ماعملوه لم يستطلعوا رأى السلطان ولااستأذنوه . وحقروه واستضعفوه . وتواترت أخبار هذه الفضائح . وتواصلت أثناء هذه القبائح . فانتحى السلطان سنجر لبيته الذى شرعوا فى هدمه .وتحركت على ابن الاخ الشقيق شفقة عمه .

ذكر وصول السلطان الاعظم شاهنشاه المعظم معز الدنيا والدين أبى الحرث سنجر بن ملكشاه يمين أمير المؤمنين (من خراسان الى حدود العراق وظفره وعفوه وعوده)

قال : فانتهى الى هذا السلطان العادل . الكامل الشامل . المحبوب الشمائل . ان أمر ابن أخيه محمود غير محمود . وان ملكه ان لم يتلاف مؤد الى التلاف مؤود . فصوب رايته صوب الرىّ . ونشر لواءه ليعيد اللّأواء الى الطى . وكان كالشمس أضاءت من مشرقها . وأنارت من أفقها . فلما أطل عسكره على العراق . وسد عثيره جوانب الآفاق . برز السلطان محمود سرادقه . وعرض فيالقه . ولم يغب أحد فى تلك النوبة من العساكر . وتلاطمت أمواج بحارها الزواخر . وكان مقدمي عسكر السلطان الاميران الاصفهسلاران علىّ بار ومنكوبرس وبينهما تباين . وتضاد وتضاغن . فلاجرم لاختلاف رأيهما . واختلاط أهوائهما لم يستقم تدبير . ولم يتدبر تقويم . ولم يتضح فى المصلحة تأخير ولا تقديم . ودرج الوزير الربيب في تلك الايام . وسكن فى حمى الحمام . وتولى الوزارة كمال الملك أبو الحسن علىّ بن أحمد السميرمى وذلك فى سنة ٥١٢ وذلك قبل المصاف بين السلطانين بثلاثة أيام وجرى أمره على نظام . فى غير وقت انتظام . وكان العسكران مشغولين بالتعبية فلما التقى الجمعان . واختلط النقعان . انهزم عسكر محمود وكسر جيشه . وانكسر جأشه . ولما ضل عن النار فراشه . ظل كأنما على النار فراشه . وقتل

فى المعركة جماعة ميرأون. وسلم المجرمون. فلما أصبح السلطان سنجر سأل عن ولد أخيه. ولم يحمد ما كان من تأخره عن حضرته وتراخيه. فارسل اليه رسولا لقبض زعره. وبسط عذره. وانه يؤثر حفظ فى قلبه والانس بقربه وتنفيس كربه. وانه يتدارك ما فرط بالتلافى. وانه يتم التقصى عن عهدة تلك الهنات بالتصافى. فاستخرِ الله ولا تستأخر. واستأثر لقاء من على لقائك لم يستأثر.

وكان أحاط أولئك المذمومون بالسلطان محمود لا يهدونه الى الصواب ولا يصوبونه الى الهدى. ويصدون عنه ريّ الرى ولا يروون منه الصدى. وكان قدسبق أبو القاسم الدركزينى صاحب الامير عليّ بار الاعظمى فحضر لاصلاح أمر صاحبه وأحضر قدراً من المال الذى اختزله من الخزانة السلطانية فنثره وبذره. وقدم الرُشَى حتى أمن ما حذره. وأراد أن يكون هو المتوسط فى الصلح والصلاح. والمتحدث فى الانجاز والانجاح. وكان السلطان يؤثر أن لايطول مقامه فتثقل وطأته. وتكثر مضرته. ولم ير أن يترك البيت متداعى البنيان غير معمود. ويريد الانصراف راشدا وقد طالت عليه غيبة محمود. وماصدّق بحضور الدركزينى على بابه. وظن انه قد حصل من النجح على لبابه. فأمر باحضاره فلما بصر به قال «اين عليّ بار فانه لامر ولدى ضمينٌ» فقال «انا آتيك به قبل أنْ تقومَ مِن مَقامكَ وإنّي عليه لقويّ أمينٌ» قال «فاين ولدي» قال «أنا آتيك به قبل أنْ يرتَدَّ اِليكَ طرْفُكَ وانه يسعه عطفُكَ وعُرْفُكَ» فندبه الى اصفهان لاحضارهم. وأجري الامور على ايثارهم. فبلغ الوزير كمال الملك السميريّ انس الدركزينيّ بالحضرة السنجرية وانه واصل بالجرأة. فسبق بالراى وراى

السبق . وأن يكون هو الذى يتولى بالرتق والفتق . فقال للسلطان « هذا عمك فى مقام والدك وله عليك حقوق . وعصيانه عقوق . ومن حسن الادب استعطافه . واستجداد رضاه واستئنافه . وانا امضى اليه لامضاء الالية . وارضائه بالكلية » وخاف انه ان وصل الدركزينى يصير الامير على بار للامر متوليا . ويبقى هو عن الشغل متخليا . وانه يصير تابعا . وماءه غائضا . وماء جاه الدركزينى نابعا . فتوجه الى الرى . من جى . وقطع الطريق بالنشر والطى . ولقى الدركزينى فى طريقه . وأخبره بتوثقه من السلطان سنجر وتوثيقه . فلم يعرج على تصديقه . وقال له « اني قد قضيت الشغل فلا تتعب . وعرفتهم زهدنا فلا ترغب . فاجتهد بكل طريق فى اعادته عن طريقه » فما التفت ولا اكترث . وأغذ السير وما لبث . فمضى الخبر الى السلطان سنجر بأن الوزير كمال الملك قد قدم . وان ابن اخيك أرسله اليك للعذر لما ندم . فسر بذلك وأمر الامراء باستقباله . واحتفل فى حفله لتوفير اقباله . وأبصر الوزير من تعظيم خطره ما لم يخطر بباله . فحبط عمل وزير على بار وبار . وانهدم كل ما كان بناه وانهار . وأخذ يد السلطان على شد أواخيه . لابن أخيه . واعلمه بارادة الوفاق وتوخيه . واستوثق منه فى كل ما استوقفه . واستدرك بالروية فى الرأى كل ما فاته واستلحقه . وأقام الوزير وسير الى سلطانه من عنده رسولا يستدعيه ويستحثه . ويعلمه ان عمه لانتظاره اطال مقامه ولبثه . فاقبل محمود الى وزيره حامدا . والى عمه وافدا . فأكرم وفادته . وأنجح ارادته . ولم يجد على بار بدا من الاتباع . وحضر ضيق الذرع قصير الباع . وخر لتقبيل الترب . واعترف بالذنب . فأبدى له السلطان الرحيم صفحة الصفح . ومنحه العفو وأعفاه عن المنح . ثم اجتمع كمال الملك

وعليّ بار ووزيره . على ما يتم به تقرير أمر السلطان محمود وتدبيره . وأنه
يجب ان يترك رسم السلطنة احتراماً لعمه . وأن يكون مدة مقامه عنده بحكمه .
وذلك انه اذا استقبل بجنيب السلطان يركبه ليحسن أدبه . وانه ينتقل من
نوبتيه الحمراء . نوبتية بيضاء فى سوداء . وانه يأمر بابطال ضرب طبله .
ما دام فى ظله . وانه اذا دخل على عمه قبّل الارض وانه يقوم عنده على قدمه
وانه يمشى فى ركاب عمه راجلا من البارگاه الى السرادق . وانه لا ينفرد عن
عمه بسرادق . بل ينزل فى جوار خيمه . وفى موضع أولاده وحرمه . وأن يبقى
عشرين يوماً على هذه القاعد ليستعطف عمه فى عود مراضيه المتباعدة

قال : وكان من حلم سنجر انه يُغْضى عمن يغضب . ويجدى على من
يجدب . فصفح عن كبائر ذنوبهم . بعد ما تصفح سرائر قلوبهم . وأفاض عليهم
الخلع . واصطفى كلا واصطنع . وكتب منشوراً للوزير كمال الملك بتقريره على
الوزارة . ومنشوراً لعليّ بار بتمكينه فى الامارة . ومنشوراً لابى القاسم
الدركزينيّ بمنصب الطغراء والانشاء . ثم انهم طلبوا من السلطان سنجر خلوة
حسّنوا له فيها من سفك الدماء كل قبيح . وأعلوا عنده كل صحيح . وكان من
جملة من ضربت رقابهم الامير منكوبرس وقراتكين القصاب . ثم قفل السلطان
سنجر بعساكره الى خراسان . وقرر عليهم ان يبسطوا العدل والاحسان .
وعاد الوزير الكمال . وله الأبهة والجلال . والدركزينيّ فى ديوان الطغراء .
وشمس الملك بن نظام الملك فى ديوان الاستيفاء

قال : وكان عمّى العزيز فى ذلك الوقت ينوب فى الوزارة والاستيفاء
والوزير كمال الملك لا يرجع الا الى كماله . ولا يعوّل الا على اشتغاله . بل
السلطان لا يأنس الا به . ولا يصغى الا لخطابه . قال : ولا شك أن انوشروان

صعب عليه انحطاط حظوظه الى الحضيض . وانحراف مزاج شغله للحظ المريض . وعرّض للوزير كمال الملك بابيات غير واقعة فى موقعها . وتمثل تمثيلات باردة ليست فى موضعها . وكأنه ما سمع للقاضى ابي بكر الارجانى فيه قبل ان يلى الوزارة وهو مشرف المملكة قصيدته التي يقول فيها

دع عنك يمنى ويسرى غير مجدية | واقصد أمامك واطلب منتهى السبل
واعلم اذا قلت رد بالعيس بحر ندى | أنّي على غير عز الدين لم أحل
البحر أسماؤه شتى وأشهرها | على اصطلاح بنى الآمال كف على

قال عماد الدين رحمه الله : سمعت من والدي رضى الله عنه انه لم يكن فى وزراء الدولة السلجقية أكمل من كمال الملك حزامة . وصرامة وشهامة . وكتبه بالفارسية تدل منه على فضل غزير . وعلم كثير . ومن معانيها تعرف قواعد الوزراء وقوانينها . وهى رياض ناضرة للناظرين ازهارها . فاغمة للمستنشقين بالريّا رياحينها . قال : قال انوشروان فأول ما شرع فيه الوزير كمال الملك من أمر وزارته أنه لما وصل الى أصفهان . تقدم بقراءة منشوره بوزارة العراق من خراسان . ثم دبر فى قتل الامير أحمد بن بغراء وبعث السلطان على الفتك بالامير عليّ بار واغري . حتى أفلت منه هربا . واتخذ الليل جملا وادلج رهبا . فأركب وراءه من رجّل نفسه عن بدنه . وأخرج روحه من جسده . ووكل بوزيره الدركزيني واعتقله . وهم بان يقتله . قال عماد الدين رحمه الله : قال والدى وكان الدركزينيّ حينئذ صديق فاستدعاني ولما بصر بى دعا على نفسه بالويل واستجار بي وأخذ منى بالذيل . فقال « أسألك ان تتوسل لى فى أمانى من القتل فقد أيقنت انى مقتول . وان لم تنصرنى فانى لاشك مخذول » فشفعت فى حقه الى أخى عزيز الدين فمازال بالوزير كمال الملك حتى خلصه . وفتح على

ذلك الطائر المشوم قفصه . وكان محبوساً فى موضع سبيل الخلاء فخلى سبيله فقدّر الله ان الشافع فيه بعد عشر سنين كان قتيله . فما عرف والدى ولا عمى رحمهما الله انهما يسعيان فى قلع البيت بخلاصه . ويحصلان بتيسير أمره على تعسير أمرهما واعتياصه . فقد كان هذا أبو القاسم للدماء سفاكا . وبالكرام فتاكا . وتفرّس فيه الوزير كمال الملك الشر فأراد أن يريح الناس من غائلته وأراد الصحيح فما صح له ما أراد . ومابدا من الدركزيني ما بدا منه لو باد . ولكن القدر لايطاق . والمقدور ما يعاق

وأصلح الوزير بقتل عليّ بار قلوب الجماعة . واستمالهم الى الطاعة . فقد كانت فى نفوسهم منه احن . وتمت عليهم باستيلائه محن . فوجدوا بانزعاجه الثبات . وبقتله الحياة . وتقدم الامير قيصر وترقت درجته . وقامت بالقيام فى الدولة حجته . وارتفع شأن أمراء كانوا متضعين وتحالفوا على طاعة السلطان وترجيح جانبه . والاضراب عن مقاصد عمه سنجر ومطالبه

قال انوشروان : فشرع الوزير فى المصادرات . وسمى ديوانها ديوان المفردات . قال عماد الدين : ولم يكن كما ذكر . ولا على وفق ما أنكر . وانما طالب أصحاب الامير عليّ بار بأمواله . وأمر بمحاسبة عماله . والبحث عن اسبابه وأحواله . وأعاد رونق سلطنة العراق غضاً . وضم من نشرها ما كان منفضاً . وخرج فى خدمة السلطان من اصفهان على عزم بغداذ . وقد حكّمه فى الامر وأعطى حكمه النفاذ . ولما قُبض الدركزيني وعزل ولّى الوزير كمال الملك منصب الطغراء أخاه النصير . وناط به ذلك المنصب الكبير . وكان النصير رصيناً . ثقيل الطبع رزيناً . ولم يكن فيه ما كان فى أُخيه الوزير من التلطف . والتطفل على المكارم والتعطف . وكانوا يقولون نعم المولى وبئس النصير .

قال : وفي سنة ٥١٣ جرى بين السلطان محمود وأخيه الملك مسعود مصاف بقرب همذان . وكان النصر فيه للسلطان . وذلك ان الملك مسعود كان مسلَّماً الى الامير جوشبك وهو آتابكه بالموصل وعسكر الشأم وديار بكر فى خدمته . وهو ينعت فى ملك الغرب لحد مملكته . فجمع آتابك جوشبك جيوشاً كثيرة وجمعا جمّاً غفيراً وطمع فى أخذ السلطنة وجعل الاستاذ أبا اسماعيل وهو مؤيد الطغرائيّ وزير مسعود . ولم يعلم انه لا يتمكن فيها من مسّ عود . فعلم السلطان بحشده فجاء فى حشره . وجاء جوشبك بمسعود تحت جتره . ولما اصطف الجمعان . وكاد يلتقى البحران . ويجتمع الصفان . بصر مسعود بأخيه محمد فحن اليه . وضبطه جوشبك فلم يعرج عليه . وصاح ايجى ايجى وهى كلمة بالتركية للاخ الكبير . فتشوش على جوشبك جميع ما قدمه من التدبير . وساق محمود ووقف الى جنب السلطان محمود أخيه . وأسلم للسلب والنهب جميع ما كان معه من جنوده ومواليه . فأول من أُخذ وزيره الاستاذ أبو اسماعيل الطغرائيّ فأُخبر الوزير كمال الملك به فقال للشهاب اسعد وكان طغرائياً فى ذلك الوقت نيابة عن النصير « هذا الرجل ملحد » فقال الوزير « من يكون ملحداً يستحق ان يقتل ظالماً » فقتل ظلماً . وقتل من الفضلاء الاكابر الاستاذ زين الكفاة أبو الفتوح وكان وزير البرسقى فأحسن محمود الى أخيه وأعاده الى عظمته ورتب آخر لاتابكيته وخدمته

قال : وكان من بقية أولاد ملوك الديلم فى الخدمة السلطانية المغيثية الملك عضد الدين علاء الدولة ابو كاليجار كرشاسف بن مؤيَّد الدولة علىّ بن شمس الملوك فرامرز بن علاء الدولة وكان من السلطان بمنزلة الاخ . وقد انزله بالمحل الاشمخ . وكان مع ذلك محترزاً من حاسديه فلزم بيته فى مدينة يزد

فما زالوا يحسنون منابه بالباب . ولا يصوبون رأيه بالاغباب . فلما ركن الى ركنهم وركب . وكرب ان يجلو بلقاء السلطان عنه الكرب . جردوا اليه ثلثمائة فارس فاعترضوه . وأخذوه من طريقه وقبضوه . وكان الامير قيصر تولى بابداء الود اخفاء ختله وختره . فحمله الى قلعة يقال لها فرَّزين فاعتقله . وأحكم قيده وثقله . وهي قلعة منيعة . وثلمة رفيعة . تعدها النجوم من اترابها والسماء من أسبابها . فلطف الله به . وأوضح له مذهب مهربه . وذلك انه توسل حتى اشرف على السور . في جنح الديجور . وألقى بنفسه من المكان العالي . وفعل فعل الآيس من حياته السالى . وسلمه الله حيث لا ترجى السلامة . ونزل نزول الغيث حدرته الغمامة . وتوقل في تلك العقاب . وتسلل من تلك الشعاب . ووقع الى ولايته . وسر الناس بعود الانس والسرور بعوده الى بلدته . وعلموا أن خطى الخطوب لا تصل في طورها الى طوده . وكانت عاقبة الامير قيصر انه ضربت ببغداد رقبته . وأودت به في سبيل العقوبة عقبته

قال انو شروان : وكان الملك في عهد السلطان محمد مجموعا . وجانبه من الاطماع ممنوعا . فلما صار الى ابنه محمود فرّقوا المجتمع . وضيقوا المتسع . وجعلوا له فيه شركة . ولم يتركوا له منه مُسكة . وذلك عند حضور السلطان سنجر فأول ما اقتطعه سنجر لخاصته ما زَنْدَران وطبرستان وقومس والدامغان والريّ ودُباوَنْد وأعمالها وما أفردوه للملك ركن الدين طغرل بن محمد ساوه وآبه وسارق وساماان وقزوين وأبهر وزنجان وجيلان والديالم والطالقان . وللملك سلجق اخيه ولاية فارس بأسرها وشطر من أصفهان من الخوز . وتغلب الامير دبيس بن صدقة بن منصور على البصرة وأعمالها والمضافات اليها من البطائح

وكذلك هيت والانبار وأعمال الفرات والرحبة وعانة وكذلك أعمال الموصل ونصيبين والخابور قد تغلب على كل منها أمير والذى بقى للسلطان أقطع جميعه . وما انحفظ ريعه . وانخفض رفعه . ولما لم يكن للسلطان خاص لم يكن له عمال وبطل الديوان . وتدون البطلان . فانه لم يبق للديوان شغل الا أخذ أموال ذوى اليسار . وإسعار نار الاعسار .

وقال عماد الدين فى ذكر كمال الملك الوزير : وبينا هو وزارته فى ريعانها . وسعادته فى عنفوانها . ودولته فى كمال سلطانها . فلم يشعر حتى عاجله القدر فجاءه فجأة . واستحال فى الحال كل مسرة مساءة . وذلك فى سنة ٥١٥ فان السلطان خرج من بغداد عائدا الى همذان . فتخلف عنه الوزير يوما على انه يتبع فى غد السلطان . فلما بكر ركب وقد رتب الموكب والسيوف بين يديه مسلولة . والغاشية محمولة . فوثب عليه قوم من بعض تلك الدكاكين . وضربوه بالسكاكين . فحمل جريحا . وبقى فى حجرة من غرف السوق طريحا وأحضر من يداويه . واستقل بالجرح آسيه . فلم يحسوا الا برجل قد قفز من السقف . ونزل عليه بمدية الحتف . فاتلف مهجته . ومحا من الزمان بهجته . فتولى عمي العزيز حفظ مخلفيه . وحلم عنهم حد الزمن السفيه . واستشهد وله ولدان أحدهما عضد الدين محمد والآخر فخر الدين محمود فتعصب الولد الكبير ذى الفضل الاوفر . والاعتقاد الانور . والدين المتين . والعلم واليقين . فولاه السلطان أشرف المناصب . وأرفع المراتب . فزهد فى الدنيا مع القدرة . وسلك طريق لانكسار والقناعة بالكسرة . قال عماد الدين : وهو الى اليوم من سنة ٥٧٩ حسن السيرة . صافى السريرة . خشن العيشة . قال للمعيشة . يلبس السمل البالى ويألف المنزل الخالى . ويأمر بالمعروف . ويأخذ بيد الملهوف . ينظر الى الدنيا

بعين العيافة. مقبل على الآخرة والتقوى قد ألبسته شعار المخافة. وتولى أخوه فخر الدين محمود الاعمال الفاخرة الى آخر زمانه. وظهر قدر مكانه. وقدرة امكانه. والعضد الزاهد فيه زاهد. وفي صرف جاهه عنه جاهد. وكان بينهما تضاد. وتباغض فى الدنيا لاتواد. وعضد الدين يرجع الى فضل وافر. ووجه عن الحق والحقيقه سافر

قال عماد الدين: عدنا الى ما ذكره أنوشروان

ذكر وزارة شمس الملك بن نظام الملك

أنشد أنوشروان فيه متمثلا

لئيم أتاه اللؤم من عند نفسه ولم يأته من عند أم ولا أب

قال: قال لما صرع الكمال. واتسع المجال. سمت همة شمس الملك لطلب الوزارة. وخطب عروسها مع العجز عن افتراع البكارة. فاجتاب لباسها. وأنارت شمسه من مطلعها. وورد على الظماء البرح عد مشرعها. وتولى عزيز الدين أبو نصر أحمد بن حامد منصب الاستيفاء. وقد فضل بالفضل والكفاية جميع الاكفاء. ومن جملة مبتدعاته في الخير انه جعل للمعسكر السلطانى بيمارستان يحمل آلاته وخيمه وأدويته والاطباء والغلمان والمرضى مائتا بختى ومن جملتها أيضاً انه بني بمحلة العتابيين ببغداد مكتباً للايتام. ووقف عليها وقوفا مستمرة الجدوي على الدوام. والايتام مكفولون منها الى ان يبلغوا الحلم بالنفقة

والكسوة والطعام . وتعلم الآداب وحفظ القرآن . ومعرفة الحلال والحرام وصح له التحكم على الوزير . باحكام التدبير . وتولى ديوان الطغراء والانشاء الشهاب أسعد وكان معلما السلطان فى أيام والده وتنجز حظه انه يوليه الطغراء اذا انتهت اليه السلطنة ولما تولى لم يتغير عليه وبقى الى آخر عهده فى الطغراء . وتولى أبو القاسم الانساباذى ديوان العرض وكان أنوشروان عارضاً وهو غائب . وفى مقامه عنه نائب .

قال أنوشروان : كنت انا قد تخلفت فى بغداد في ذلك الاوان لشغل أقضيه . وأمر أمضيه . فاجتمع هؤلاء القوم واغتنموا غيبتى . وأخذوا باخذي وتعويقى توقيعاً . وشنعوا على عملي وعملوا شنيعاً . وكان مضمون المثال السلطانى ان الامر المطاع أعلاه الله ان أنوشروان ان كان فى حدود بغداد أُلزم بيته بباب المراتب . وسدت عن لقائه طرق الاقارب والاجانب . وإن كان قد وصل الى بلاد الجبل فيقعد في ولاية الامير بُرسُقْ بقلعة كفراش . ويشترط عليه ان لا يطلب المنصب والمعاش . ويحضر مماليكه الى الدركاه لينتقلوا الى الخواص من الامراء . ويحمل ثقلهم عنه مع الانزواء . قال وكان المثال بخط العزيز وقد مدّ الطغراء عليه أسعد وعلامة الوزير فيه أحمد الله على نعمه وتوقيع السلطان اعتصمت بالله وما وجدت من أنسب اليه هذا القصد غير العزيز . فان الآخرين كانوا مسخرين له وهو المتوحد بالتميز والتبريز . وكتب الوزير بخط كاتبه ان شغل العرض قد فوض الى العميد الاجل الاخزين الدين ظهير الدولة أبي القاسم يعنى الدركزينى فتختم جميع دفاتر العرض وأوراقها وتنفذ حتي سلم اليه

قال : وأنهضوا الى طريق جماعة من الفرسان لولا اعظام الامر السلطانى

المطاع . لما رعيت حرمة أولئك الرعاع . ولعادوا وحكوا انهم لقوا منى رجلا. ولركبوا من الخوف الليل جملا . فامتثلت الامر وسلمت اليهم موجودى وخرجت من مالى كالشعرة من العجين . ووقع الهجان بتوقيع الهجين . وسلمت نفسى الى الحبس . وبقي أمرى على اللبس

قال : عدنا الى الحديث عن شمس الملك بن نظام الملك قال: فعاد الملك به الى أدنى استقامة . ووجد الى كفايته أيسر استنامة . لكنه لم يطو بساط الظلم والمصادرة . ولم يقبض عن التعدى الايدى المتجرئة على المبادرة . وكان الى الناس مبغضاً . ولمقتهم متعرضا . فلم يكفه ذلك حتى استناب بغيضا. واستطب لمرضه مريضا . وهو الكامل ابن الكافى الاصفهانىّ الذى مضى ذكر مخازيه فى وزارة الخطير . ووصف بالشؤم والسوء فى الادبار والتدبير . وهذا الكامل ما ناب عن أحد الا نابه خطب مبير . ودهمه ملم كبير . كما قال البحترىّ فى سعد حاجب عبيد الله

يا سعد انك قد خدمت ثلاثة　　كل عليه منك وسم لائح
وأراك تخدمُ رابعاً لتُبيرَهُ　　فأرفق به فالشيخ شيخ صالح
ياحاجب الوزراء انك عندهم　　سعد ولكن أنت سعد ذابح

فبدأ هذا النائب في الاول بأخذ مخلفي الوزير المستشهد وكانت خزانته قد نهبت . وذخائره قد ذهبت . وهم فى بيوت الاحزان . يرجون عواطف السلطان . فلم يرض لهم بالعدم حتى سجنهم وحبسهم . وضاعف عليهم محنهم وعرق عظامهم . وفرق نظامهم . ثم أمر باستعادة الرسوم والادرارات . ولم يقتصر على قطع الصلات . حتى كتب الى جميع البلاد باسترجاع ما أخذه أرباب الصدقات لسنتين . ومن اخذ عرضا بادراره ألزم بردّ العين . فوكاوا

فى كل بلد بالاخيار والاشراف . وسلطوا أقوياء الشرط على المتضوتين

قال : وكان قدعزم السلطان فى هذه السنة على الغزاة فصدوه وعرضوا عليه كتاباً من بعض أمراء بلاد شروان يذكر فيه اننى قد استخلصت لكم المملكة الشروانية . وأهلها ينتظرون الراية السلطانية . وان الملك شروانشاه محصور . وان الفرج عليه محظور . فان أردتم تملك الخزائن . واستخراج الدفائن . والاستيلاء على الممالك فاصرفوا اليها الاعنة . وأشرعوا نحوها الاسنة . فثنوا عزم السلطان الى قصد بلاد شروان فلما وصل وجد الامر بخلاف ما ذكر وخرج اليه الملك شروانشاه راجياً انه قد عاد عيده . وان يتحلى بعد العطل بطوق الانعام جيده . فانه كان فقيراً قد قنع الرعية بملكه . وألفوا الانخراط فى سلكه . فحين وطئ البساط طوى بساطه . وعقل نشاطه . وسحب وحبس . وغبن وبخس . وانتظر أهل البلد انه يعود اليهم مملكا مكملا . مشرقاً مجملاً . فحين عرفوا الحال أكثروا الصراخ والبكاء . وأثاروا الرجال والنساء . وخربوا الجامع ورموا منارته . وشعثوا البلد وأذهبوا عمارته . فما نفعهم ذلك وجرت عظائم تأنف منها العظماء . واجترحت كبائر تأباها الكبراء . وجرّ ذلك الخبط خطباً . لم يدع يابساً ولا رطباً . وطمع الكفار المثاغرون فأغاروا . وأبادوا الاعمال وأباروا . وقتلوا خلقاً من المسلمين ونزلوا قبالة السلطان فى ثلثين الف عنان على فرسخين لكن الله تدارك رمق الاسلام . بكسر أولئك الاغنام . ونهض السلطان محمود اليهم محموداً . ولم يدع فى هزمهم مجهوداً . وعاد منصوراً مسعوداً .

ولما حبس الملك وقع الشروع في مصادرة الرعية فلم يحصلوا على طائل . ولم يظفروا بحاصل . وكانت للخزانة السلطانية . فى كل سنة على الاعمال الشروانية .

مقاطعة مبلغها أربعون الف دينار فبطل حق تلك المواضعة بوضع الباطل. وطال المقام فى تلك البلاد لدفع البلاء. ورفع الاهوال والاهواء. وكان هذا القرار على شروان من عهد سلطان ملكشاه بن الب ارسلان فانه لما عبر على أرّان وصل الى خدمته الملك فريبرز صاحب شروان بعد امتناعه والتزم بحمل سبعين الف دينار الى الخزانة وما زالت المسامحات تدخل فى القرار. الى أن وقف على أربعين الف دينار. فباء الوزير بالوزر. وقبح الذكر. ولم يحظ فى مدة سنة واحدة من وزارته بعمل يذكر به الا حبس أنوشروان. وتخريب شروان. ولما أبصر السلطان اختلال الاحوال. واختلاط تلك الاعمال. سخط على الوزير شمس الملك بن نظام الملك وقتله بالسيف صبراً. وذلك فى آخر ربيع الاول سنة ٥١٧ بباب بيلقان

قال أنوشروان: وكان الذى جرى علىّ من الاخذ والنهب بباب حلوان أيضاً فى آخر ربيع الاول سنة ٥١٦

من يَرَ يوماً يُرَ به   والدهر لايغتر به

قال عماد الدين: وسبب قتل هذا الوزير ان أبا القاسم الانساباذيّ كان رسولا عند السلطان سنجر. وقرر من أمر بن أخيه السلطان محمود ماقرّر. وذكر له أن الوزير هو الذى اذهب الهيبة وشتت شمل الاجناد. وبتّ حبل السداد. وتوسل بكل طريق حتى تنجز كتاب السلطان سنجر الى بن أخيه فى طلب وزيره. وأمره بتسييره. فحار محمود وخشى انه ان سيره اطلع على سره. وان لم يسيره اسخط عمه بمخالفة أمره. فأُشير عليه بقتله. وتسيير رأسه. فبغت الوزير أقوي ما كان رجاء فى الحياة بيأسه.

قال عماد الدين: وعاد حكم المملكة كله الى عزيز الدين أبي نصر أحمد

ابن حامد وكان حينئذ مستوفى المملكة وجاذب زمامها . ومالك نظامها . فسكن السلطان اليه . وعول عليه . وعرض الوزارة عليه فاباها . ووجد مغارس المملكة ذاوية فروّاها . وقال أنا أنفذ أمورك وأوامرك . وأصفي مواردك ومصادرك . ولا أدع مصلحة تقف . ولا منفعة تنصرف . لكنني لا أتسم بالوزارة ولا أتقلد وزرها . على انني أتقلد أمرها . فاذا حضر صديق أبو القاسم الانساباذى جملته صدرها . وما عرف ان صداقته عند عوده تعود عداوة . وانه يتجرع مرارة سم باطنه حلاوة . فمكث سنة بالمناصب متوحداً وبالمراتب منفرداً . وعاد السلطان الى مقر ملكه محبوّاً بالظفر محبوراً . محمود الأثر مشكوراً . واستمر الشهاب أسعد الطغرائى فى الانشاء ومنصب الطغراء . ولما عاد الدركزينى قال العزيز للسلطان « قد وصل من يكفل بالامر ويكفى فى الحل والعقد . فانهضه للوزارة فانى غير ناهض بأوزارها . واتركنى ومضائي فى غير هذه الخدمة ولا تقاتِني بمضارب مضارها . وأنا ان خليت الوزارة اسما فما أخليها نظراً . واعذقها بسواى وأكون عليه بحكمي مستظهراً . فيكون أبو القاسم لي قسيما . وأصبح أنا له مقعداً فى المصالح مقيما » فقال السلطان « ما أعرف سواك . ولا أعول الا على حجتك وحجاك » وسيأتى ذكر الحال فى ذلك

قال أنوشروان : وفي تلك المدة استدعانى السلطان الى بابه وانتهت شدة حالي . وانقضت مدة اعتقالى . وانقذنى الالطف الربانى من كيد الخصوم . وعرفتنى التجارب انه لا محيد من المحتوم . وعلمت أنه لا يجدى طلب العز فى زمان الذل . ولا يوجد الخصب فى سنة الازل . وصممت فى الاعتزال حد العزم . ونزلت على آل المهلب ذوى الكرم والفضل والعلم

كما قيل

نزلت على آل المهلب شاتياً　　غريباً عن الاوطان في زمن محل
فما ذال بى احسانهم وافتقادهم　　والطافهم حتى حسبتهم أهلى

قال : ويعنى أنوشروان بآل المهلب الامام صدر الدين عبد اللطيف بن محمد بن ثابت الججندى باصفهان وكان أجود الامجاد . وأمجد الاجواد . فلما ضافه أنوشروان أكرم مثواه . وقبله وآواه . قال : قال أنوشروان فصرف الىّ الاصدقاء الهمم وحقق اكرامهم عندى الكرم . واستقرضت من تاجر غريب جملة . وكتبت له علىّ وثيقة فجاءنى بعد حين انسان وقال مخدومى عزيز الدين يسلم عليك . وقد نفذ هذه الوثيقة اليك . وقال لك ابطلها فان الدين قد قضى . وصاحبه قد رضى . فعجبت كيف توسل فى اسداء هذه اليد الىّ . وافضاله علىّ . فبقيت مدة فى تلك الضيافة . آمناً من المخافة . سالما من الآفة . حتى استدعانى السلطان بعد قتل الوزير . وأهلنى للتدبير . فامتنعت أياماً . وطلبت من الخطر زماماً . ولما وصلت الى الدركاه رأيت كلا من الجماعة . يقول مااستحضر الالسبب . ومااستقدم الا لارب . قال : فراجعت فكرى . وندمت فى أمري . وقلت أعمال السلطان عوارىّ لابد من ارتجاعها . وملابس لا بد من انتزاعها . ولو خلصت فرحتُ فرِحتُ . ولو استخرت الله فى الانزواء لاسترحت . وكان السلطان فى الاذن لى متوقفا وأنا قد ملت الى الوحدة والانفراد . وقصرت همتى على هذ المراد . فما زلت به حتى استأذنت منه فاذن فى الانصراف . وخصنى من مواعيد عوائده الجميلة بالالطاف . فساعدني أرباب الدولة من الخيل وغيرها بما حمل أثقالى . ومن الازواد وغيرها بما ثقل أحمالى . وتوجهت من أصفهان الى بغداد .

وعدمت الملاذ لاجل الملاذ . فلما وصلت الى حضرة الخلافة وجدت الاكرام . والانعام والاحترام .

ذكر وزارة الدركزينى فى سنة ٥١٨

قال : لما وضع عليه اسم الوزارة . تبدلت الغزارة بالنزارة . وهو أول فلاح ترك العمل بالفدان . فدان له عمل الترك . وحل البقر عن الملك . فحل فى دست الملك ففتك وهتك . واستباح الدماء وسفك . وشرع المنكرات . وانكر المشروعات . وعادى الكرام . وبدد النظام . وظاهر الباطنية . وأظهر السنة الجاهلية . وشرع فى الفتك بالاحرار . والهتك للاستار . فمن جملة من فتك به القاضى زين الاسلام أبو سعد محمد بن نصر بن منصور الهروى وكان أوحد دهره . ونسيج وحده . والمعروف باسداء المعروف . والمرجوّ لاعداء الملهوف . وهو حبر العالم وبحر العلم . والحاكم بالعدل والعادل فى الحكم . وقد ملك من قلوب السلاطين القبول . ولم يروا من نصحه واشاراته العدول . وكان من متعصبي عمى العزيز . المخصوصين فى الفضل والافضال بالتبريز . فتقررت له بعد وزارة الدركزينى رسالة السلطان الاعظم سنجر . وسار الى خراسان فى البهاء الابهر . والجمال الاوفر . فصعب على هذا الوزير أمره . وتقسم سره . وعرف انه اذا حضر هناك انهتك ستره . فانه كان موّه ولبس . وأخفى أحواله عند السلطان سنجر ودلس . فعرف ان الهروى يهرّيه . وينزع لباس تلبيسه ويعريه . فقرر مع عدة من الباطنية أنهم فتكوا

به عند عوده من رسالة خراسان . وقد حضر للصلاة فى جامع همذان .
فاستشهد قبل ان يشهد السلطان . وذلك فى سنة ٥١٨

قال وكان حينئذ بالموصل آق سنقر البرسقىّ . الغازى المجاهد التقىّ النقىّ . فدخل فى وزر ذلك السعيد الوزير الشقىّ . فانه كان قد قمع أهل الالحاد . وغمه أمر هذا الوزير الذى سد باب السداد . وتوسل الوزير عند السلطان فى عزله فلم يقدر . وبالغ فى كل مكيدة ولم يقصر . ولما أعياه أمره استدعى اخوانه من الباطنية . حتى جلسوا له فى جامع الموصل بزىّ الصوفية . وقفزوا عليه وضربوه بالسكاكين . فجلّ به مصاب المسلمين . وذلك في ذى القعدة سنة ٥٢٠ . وكان وزير السلطان سنجر فى ذلك العهد الاجلّ معين الدين مختص الملك أبو نصر أحمد بن الفضل بن محمود وقد مضى ذكر كرمه وفضله فى زمان السلطان محمد وتوليه ديوان الاستيفاء . ولقد كان موئلا لاهل الرجاء . وهو من ممدوحى القاضى أبى بكر الأرجانى وله فيه قصيدة صادية أولها

روِّحا ساعة متون القلاص　　واحفظا وقفة بتلك العراص
يا خليلىّ من سراة بنى الاقـيال والغر من بنى الأعياص
واسيانى فللأخلاء قدما　　بالتواسى فى النائبات تواص
كيف أشكو خطباً ومختص ملك الـأرض أضحى بالقرب منه اختصاصى
وإذا استنصر الهمام أبو نصـر أطاعت لنا الليالي العواصى
ذو ندى يستهلّ كالديمة السكب ونشر كالكوكب الوباص
وبنان يريك للقلم النا　　حل فضلا على القنا العرّاص

قال : فأنف من وزارة الدركزينىّ بالعراق . ولقد كان على الدولة شديد

الاشفاق . وعرف الدركزينيّ ان نقصه مع فضل أبى الفضل بادٍ . وأن أمره مبنيٌّ لعمى دهره عنه على غير عماد . فلم يزل يعمل كيده فى نكبته . ويتسلق بالمكر على هضبته . وباطن الباطنية فى قتله . وفرغ فكره لشغله . فوجده متحرزاً متيقظاً . متحرساً متحفظاً . فبث عليه حبائله . وأدبّ اليه غوائله . وسير الى خراسان عدة من الملاحدة . فتوصل منهم واحد الى أن خدم فى اصطبل الوزير المختص سائساً لدوابه فأراد يوما عرض الخيل فحضر ذلك السائس وهو عريان . وقد خبأ سكينة فى ناصية حصان . فأطلق حصانه من يده حتى شغب . واستخرج من ناصيته السكين ووثب . وتعمد مقتل الوزير فأصابه . وعظم على الكرام مصابه . وبضّع السائس فى الحال تبضيعاً ومزّعوه تمزيعاً . وذلك فى شهر ربيع الآخر سنة ٥٢١

وما زال الدركزينيّ يتتبع الاكابر فمنهم من يقتله جهاراً باذن من السلطان . ومنهم من يقتله غيلة بمن يتخذه من أولئك الاعوان . قال : وكان سبب ميل الباطنية الى الدركزيني ان الامير شيركير رحمه الله كان مشتغلا بحصار قلعة أَلْمُوت وقد قارب فتحها . وشارفت الآمال فى أخذها نجحها . فلما توفى السلطان محمد وتولى ابنه محمود وتمكن الدركزيني من الدولة أعمل الحيلة فى استدعاء شيركير ونفّس عن القلعة ثم لم يزل يدقق الاحتيال حتى جعل لشيركير عند السلطان ذنوبا اختلقها . ومساوى لفقها حتى اعتقل ذلك الامير مع ولده شرف الدولة ولم يزل يطلب غرة السلطان فى أمرهما حالتَىْ سكره وصحوه حتى أخذ رخصة فى سفك دمهما الحرام . وأذهب بقتلها قوة الاسلام . واتخذ بذلك عند ذوى الالحاد يدا . واستكثر له من أعوانهم مددا

قال : وكان عمى العزيز يحسب انه انسان . وأن جزاء الاحسان له منه احسان . فلما أحس بشرارة شرّه . وضراوة ضرّه . افكر فى طريق الانزواء . والخلوص من تلك الاهوال والاهواء . فاستأذن فى الحج فسار فى سنة ٥١٧ أو ٥١٨ وكان حاج تلك السنة بأجمعهم فى ضيافته وكرامته . وعمهم شمول عارفته حتى قال الرئيس أبو الحارث البغدادى فيه

يا كعبة الاسلام مالي أرى … اليك تسعي كعبة الجود
تقصد فى العام وهذا الفتى … لم يلف يوماً غير مقصود

وهناه عند عوده القاضى أبو بكر الارجانىّ بقصيدته النونيّة المشهورة التى أولها

ورد الخدود ودونه شوك القنا … فمن المحدث نفسه أن يجتنى
لا تمدد الايدى اليه فطالما … شبوا الحروب لان مددنا الاعينا
ما ان جفوت الطيف الا ليلة … والحى قد نزلوا باعلى المنحنى
لما ألم وقد شغلت بمدحة … لعزيز دين الله فكرى موهنا
في ليلة حسدت مصابيح الدجى … حكمى وقد كانت لها هى أزينا
قلمى بها حتى الصباح وشمعتى … بتنا ثلاثتنا ومدحك شغلنا
حتى هزمنا للظلام جنوده … لما تشاهرنا عليها الالسنا
أفناهما قطى وأفنيت الدجى … سهرا فاصبحنا وأسعدهم أنا
لله مقدم ماجد أضحى به … عنا لنازلة النوائب مظعنا
أمنت اساءته عداه لانه … مذ كان لم يحسن سوى أن يحسنا
أتبعت غزوتك الحميدة حجة … فقضيت أيضاً فرضها المتعينا
وجررت أذيال الكتائب موغلا … في الارض خلف بني الخبائث مثخنا

حتى غدت تلك المجاهل منهم وكأنما هن المناحر من منى

قال : ولما عاد من حجه . استعفى السلطان من شغله . فما أجابه الى مراده . ولا مكّنه من انفراده . وأعاده الى منصبه على العادة . وأشرق به مطلع السعادة . وأصبح الوزير يجول فى مكر مكره . ويسر له ما يرجع بشغل سره . وعادت تلك الصداقة عداوة . والمعرفة نكرة وغباوة . وعبرت على ذلك مدة فثبت العزيز على الاستعفاء . وترك منصب الاستيفاء . فقال السلطان « اذا كنت مستعفيا . ولا تؤثر أن تكون مستوفيا . فمالي أعز من الولد والمال وقد سلمت اليك خزائنى وأولادى وبهذا يحصل مرادك ومرادى » فلما خلا منصبه منه . ورغب العزيز عنه . تولى الصفى أبو القاسم الجنزىّ ديوانه . وجلس مكانه . فتوازر هو والوزير والجماعة على قصد العزيز فلم يقدروا له على مضرّة . ولم يعثروا له على عثرة . ومضت على وزارته ثلاث سنين وشمل العدل بغير التئام . وسلك الملك بلا نظام . والمعاقد غير مبرمة . والقواعد غير محكمة . وتفرّغ العزيز لاعلام السلطان بالتشويش والتشويه . وحصول كل أمر كريم به فى الأمر الكريه . فأمر السلطان بقبض الوزير واعتقاله . وسلمه الى العزيز ليريح الناس من شره واغتياله . فرأى أن اهلاكه على يده شنيع . وان ذكره بالفتك وهو ليس من أهله فظيع . ودبر فى تولية وزير يسلمه اليه . وهو لاجل الخوف على منصبه منه يقضى عليه . فسعى فى استدعاء شرف الدين أنوشروان بن خالد بن محمد من بغداد فلما حضر واستوزر حمل الدركزينى الى داره على حاله . وصيّره فى اعتقاله

وكانت فى أنوشروان ركاكة ظاهرة . ووضاعة لحلق الرفعة قاهرة . فلما تسلم الدركزينى ضرب له فى داره الخركاه . وأذن لكل صاحب له أن

يدخل اليه ويلقاه . وكان في كل يوم يدخل اليه ويجلس بين يديه ويخاطبه بيا مولانا . وأنت أولى منا بالمنصب الذى خصنا به السلطان وأولانا . فسقطت حرمته . وذهبت هيبته . واتضعت وزارته . وعرفت حقارته . وخيف عود الدركزينيّ بعد استقرار سلامته . الى منصب كرامته . فشرعوا فى اعادته . وجروا على ارادته . وهو جالس فى دار أنوشروان . والناس متناوبون اليه لتقرير وزارة السلطان . فما شعر أنوشروان حتى أخرج من داره . ورُدّ الى مقره على قراره . وأذن لانوشروان فى العود الى موضعه . والغيض فى منبعه . فرأى الغنيمة فى الاياب . واغتنم السلامة التي لم تكن له فى الحساب . قال: وكانت وزارته سنة واحدة على ما أورده فى بابه . والآن أذكر ما ذكره عن نفسه فى كتابه

ذكر وزارة شرف الدين أبى نصر أنوشروان بن خالد

قال أنوشروان : كنت قد اتخذت بغداد مدينة السلام . دار المقام . وانا من حفظ الله في أوفى ذمام . فجاءنى كتاب السلطان محمود وخاتمه . ووصل رسوله وخادمه . يستحثني فى الوصول اليه . ويستعجلنى فى المثول بين يديه . فحين حضرت الخدمة شافهنى بالتقليد . وخصنى بأمره الاكيد . وكمل لى تشريف الوزارة وخلعها . وأدواتها محلاها ومرصعها . ودواة الذهب والسلاح المجوهر فجلست فى الوزارة سنة وأشهراً لا أقدر على الخطاب فى مصلحة . ولا على التنفس بفائدة مترجحة . وصاحبا يميني ويسارى الشهاب أسعد الطغرائى والصفى أبو القاسم المستوفى والامير الحاجب الكبير حينئذ

ارغان . وامرأته خلف الستر قهرمانة السلطان . فلما رأيت اتفاقهم على ماهم فيه قلت في نفسي لايظهر لى مع الناقصين فضلٌ . ولا يقبل منهم صرفٌ ولا عدلٌ . فاستعفيت واخترت العزل على التولية . واحدث نفسى عن الولاية بالتعزية والتسلية . ونفضت يدى من صحبتهم . وقلت العفاء على تربتهم ورتبتهم . وعاد الدركزيني الى الوزارة فانه ارغب أرغان الحاجب بالرُّشى . ومشى بغرضه فمشى . ورجع كالكاب الكلب . والبغل الشغب . وهابه من لم يكن يهابه . وامتلأ باللؤم والشرّ اهابه

قال : فعدت الى بغداد مستأنسا بالوحشة . آلفا بالوحدة . فلما وصل الدركزيني الى بغداد اجتهد ان ينالني شره . فعصمنى الله من كيده . لا لاساءة اليه منى سبقت . ولا لضغينة علىّ بقلبه علقت . فانى كنت اسلفته فى حال حبسه وعزله احسانا . وقلدته امتنانا . ولم أترك فى الانعام امعانا . ولما كلأنى الله من غائلته مد يده الى مالى . وانزل النوازل باسبابى . وقد كنت بنيت على دجلة دارا فادعاها لنفسه ملكا . واستحضر عدولا شهدوا له بالملكية زورا وإفكا . وانتقل الى الدار بحكم الشرع . وصير باطله حقا ببيناته الكاذبة فى الاصل والفرع .

قال : واجترأ على الاجترام . واجتراح الآثام . وسفك دم الكرام . فتارة يظهر التسنن باراقة دم العلوية . وآونة يدّعى التشيع في قتل الائمة السنّية . فمن جملة من سفك دمه . ورام عدمه . علاء الدولة رئيس همذان وكان شابا حسنا شريف النسب . كريم الحسب . وكان باصفهان قد حضر مجلس الوعظ فقام اليه رجل من أصحاب الدركزينى فضربه بسكينه . وفرى بمديته حبل وتينه . وكذلك عين القضاه الميانجىّ بهمذان كان من الاكابر

الائمة والاولياء ذوى الكرامات . وتمد خلف ابا حامد الغزالى رحمه الله فى المؤلفات الدينية والمصنفات . فحسده جهال الزمان المتلبسون بزى العلماء . ووضعهم الوزير عليه فقصدوه بالايذاء . وأفضى الامر به الى ان صلبه الوزير بهمذان . ولم يراقب الله فيه ولا الايمان . وكذلك الملك علاء الدولة بيزد سعى فى دمه وهتك حرمه . وكذلك رئيس ساوه اعتقله ثم قتله وتتبع البيوت الكبار واقتلعها . والجبال العظام فزعزعها . ومن جملة افعاله القبيحة . وأقواله العائدة على الدولة بالفضيحة . انه حسن للسلطان وقد وصل الى بغداد فى سنة ٥٢٠ ان زحف بعسكره الى دار الخلافة وقالوا وفعلوا مالا يحسن ذكره . واعتمدوا كل ماقبحت سمعته وعظم وزره . وكان حينئذ وزير الخليفة المسترشد بالله رضى الله عنه جلال الدين أبو على الحسن بن على بن صدقة فتوسط للامر بكفايته . وكشف تلك الضلالة بهدايته . وكان صديق عمى العزيز رحمه الله . فتعاونا على الاصلاح . وأسوا الجراح . وحملا السلطان على معاودة طاعة إمامه . والتصرف على أوامره وأحكامه . وذلك فى اواخر ذي الحجة سنة ٥٢٠ أو اوائل المحرم سنة ٥٢١

ولما قرب مسير السلطان من بغداد حدث به مرض ضعف منه جسمه وقلبه فاعتقد ان ذلك من شؤم خلافه الخليفة . فجلس فى محفة ووقف على باب الحرم للمواقف الشريفة . وأبدى الاعظام والاجلال . وطلب العفو والاستحلال . فخرج اليه التوقيع الامامى باجمل جواب . والطف خطاب . وطابت نفسه . وزاد بذلك أمله فى البر وأنسه . ووصل الى همذان وقد ابل وتوفرت له حصة الصحة . وشكر الله تعالى على رواح المنحة .

قال عماد الدين رحمه الله : وفى هذه السنة عزل الدركزيني وولى

انوشروان كما سبق ذكره ثم عزل انو شروان بعد سنة وأعيد الدركزيني وما زال عمي العزيز فى عصمة من شر الوزير حتى أخبر السلطان بأن عمه سنجر قد سير فى طلب ميراث ابنتيه وجواهرهما رسولا فانه كان قد تزوج باحداهما فماتت ثم تزوج بالاخرى فماتت ايضاً فوضع الدركزيني من قال للسلطان « ان رسول عمك واصل اليك بسبب تلك الجواهر . وأنه لا يعود عنك بما تقرره من المعاذر . وقد رضي سنجر بشهادة العزيز فانه أمين قوله صادق . والسلطان سنجر بصحته واثق . ونحن نرى ان تحبس العزيز فى بعض المعاقل . محفوظاً من الغوائل . حتى اذا وصل الرسول وأدى رسالته . وطلب العزيز وشهادته . قلت له هذا صاحبنا وقد نقمنا منه أمرا فعزلناه . وقبضنا عليه وأعتقلناه . وما بقينا نرجع اليه فى الشهادة . وسؤال المحبوس خلاف العادة » فتلوّم السلطان محمود وتذمم . وتردد فكره وتقسم . ففاوضه الدركزيني وهوّن عليه الامر . وسهل عنده الوعر . وقال له « اذا كنت معتنيا فما يضره العقود مصونا . وما يعيب الدرّ مكنونا . والذخر مخزونا » قال « وانا أطاق لك من مالى ثلثمائة الف دينار اذا حبسته . وأقوم بادائه اذا أجلسته »

فـ[illegible]ل الى المال . وحال بالمحال . فاستدعى عمي العزيز من داره وعرفه بغرضه ثم أمر بالتوكيل به على أجمل وجه وكان ذلك والسلطان حينئذ ببغداد فى أوائل سنة ٥٢٥ ثم قالوا للسلطان الصواب انفاذه الى معقل فقد قرب وصول الرسول فسلم العزيز الى بهروز الخادم شحنة بغداد حتى سيره الى تكريت فلم يلبث السلطان بعد حبسه الا قليلا . وكم تلا (ياليتنى لم أتخذ فلانا خليلا) وذلك انه لم يسمع من رسول عمه عند حضوره ما قيل عن رسالته .

واستدل بذلك على كذب الوزير فى مقالته . وأرسل الى الوزير وطالبه بالمال فزاغ عن مطلبه . ومطل به . وسير الى أصفهان فقبض على والدى صفى الدين وعلى عمى ضياء الدين واعتقلهما بقلعتها ونهب وسلب . واستولى على أملاكنا وأموالنا واستوعب . وأما العزيز فان السلطان كتب اليه بتكريت يعده ويأمره بالصبر ويقول « اذا أخذت من الوزير ما بذله فانا لابد أن أطلقك وأعتقله » والوزير فى كل مدة يزن له شيأ من المال ويريه أنه من عنده ومن ذهبه ولا يعلم أنه جباه من مال المصادرات وجاء به ووعده بالباقي الى همذان . وفى القدر ان بقاءه قد انتهى وان حينه قد حان . ورحل السلطان من بغداد ومرض فى الطريق واشتد مرضه . ثم فارق جوهره عرضه . وذلك فى شوّال سنة ٥٢٥ . وذكر ان الوزير سمه فى طعامه فانه لما قصر فى اداء المال . ونظر فى سوء المآل . شرع فى اغتيال السلطان على وجه الاحتيال . فتم له تأميله . وحين مضى السلطان لسبيله . وضح فى التسلط سبيله

قال : وكان قد اتفق وصول السلطان سنجر الى الرى فى سنة ٥٢١ قبل مضى السلطان محمود الى بغداد فعاد الى خراسان واستصحب الملوك معه تأنيسا لقلب محمود . باستصحاب اخويه طغرل ومسعود . عاد محمود الى سريره . وتفرّد الوزير بتدبيره . ومن الاتفاقات العجيبة . والواقعات الغريبة . انه اجتمع فى ذلك العهد فى خركاه واحدة السلطان سنجر والاخوة الاربعة السلطان محمود ومسعود وطغرل وسليمان والوزير الدركزينى والنصير محمود بن أبى توبة وزير سنجر وهناك رجل يقال له القلك وهو من الندماء المطبوعين فقام وصلى ركعتين . ورفع الى السماء اليدين . وجعل يدعو الله

ويتضرع . ويبتهل اليه ويخشع . فاستدعاه سنجر وقال « ما هـذه الصلاة والدعاء » فقال « ناجيت الله تعالى وقلت هؤلاء العصبة الذين اجتمعوا فى هذه الخركاه هم أصول الفتن . وفروع المحن . فاخسف بهم هذه البقعة . وانفض عنهم هذه الرقعة . حتى يسلم خلقك . ويسلم حقك » فضحك منه سنجر . واستخف النديم المتمسخر .

فلما عاد محمود سار الى بغـداد وشرع فى ازهاق النفوس فازهقها . والاخذ بمشورة الوزير لنفاقها عنده مع نفاقها . لاجرم انه ماتمتع بعمره بعد قطع تلك الاعمار . وانتقل بجوره وجبروته الى جوار الجبار

قال : وحكي نجم الدين رشيد الخادم الغياثيّ انه حضر السلطان محموداً وهو يتقلب على فراشه فى سكرة الموت ويقول « ادفعوا عنى شير كير وولده فقد شهرا سيفين ليقتلانى » وكان يكرر هذا القول الى ان قضى نحبه. ولحق بربه . وماعصبت به هـذا الوزر الاعصبية هـذا الوزير . فانه عجل له سوء الادبار بسوء التدبير . وكان السلطان محمود محمود الخليقة . مودود الطريقة . إن ترك وطبعه لكنه بلى بانواع من البلاء من أعوانه . ونغصوا عليه مشرع سلطانه . وفرقوا فى ابتداء دولته خزانة أبيه . واستضعفوا جانبه وطمعوا فيه .

قال : ووجد تفصيل بخط عمي العزيز رحمه الله ان الخزانة الغياثية المحمدية . كانت تشتمل على ثمانية عشر الف الف دينار سوى الصياغات والجواهر الثمينة وأصناف الثياب المعدنية. فآل الامر الى انهم احتاجوا الى اقامة وظيفة الفقاع . فلم يجدوا ما يصرفون فيها من المتاع . فاخرجوا الى الفقاعيّ عدة من صناديق الخزانة التى فرغت فباعها بما بلغت وحتى طلب السلطان من شابور الخازن غالية فاستمهله أياما وادعى اقلالا . ثم أحضر ثلثين مثقالا . فقال السلطان

لشابور وكان خازن أبيه «حدث لجماعات بما كان في خزانة أبي من الغالية»
فقال شابور «كان في قلعة أصفهان منها في الاواني الذهبية والفضية .
والبلور والصينية . مايقارب مائة وثمانين رطلا ومعنا في خزانة الصحبة
مقدار ثلاثين رطلا» فقال السلطان للحاضرين «اعتبروا بالتفاوت بين
الامرين وفصل مابين المصرين» قال: وكان محمود قوى المعرفة بالعربية .
حافظاً للاشعار والامثال الادبية . عارفا بالتواريخ والسير . ناظراً فيما يوجب
الاعتبار من الغير .

ذكر ما حدث بعد وفاة السلطان محمود

الى ان استقر الملك لطغرل

قال رحمه الله: كان قد تفرس الوزير في السلطان محمود . انه موؤد
وانه في الاحياء غير معدود . وحين فارق كنفه . ورافق كفنه . استصحب
الى الري مع عساكر العراق . وتظاهروا على الاتفاق . وأمراؤهم برنسق
وقزل وقراسنقر وقراطغان وغيرهم واقاموا بها ثلاث الشتوة . وعتدوا بها على
انتظار السلطان سنجر الحبوة . ولبثوا من يوم موت محمود الى حين
وصول سنجر أكثر من خمسة أشهر فوصل الى الري في شهر ربيع الآخر
سنة ٥٢٦ واستقبله عساكر العراق مع الوزير . وجلس سنجر على السرير
ووصل بعده ليلا طغرل سحرة . ولقى عمه بكرة . فترجل له الوزير الدركزيني

فما احترمه طغرل ولا التفت اليه . ولا قبله ولا أقبل عليه . وكان الرسول قد أرسل الى طغرل بتحفة ونسخة عهد . ابانة عن نصح وشفقة وبذل جهد .
قال : وحكى زين الدين المظفر ابن سيدے الزنجاني وهو الرسول انه لقى طغرل بخوار الرى فمثل بين يديه . وأوصل هدية الوزير اليه . فلم يجمل لها وزنا . وأظهر عند رؤيتها حزنا . وذكر آتابكه شيركير وشرف الدولة ولده واغرورقت عيناه وابدى عليهما كمده . وقال «اين هما فى هذا اليوم ولو عاشا لكانا انفع لى من هؤلاء القوم» ولما عرضت عليه اليمين بان فيه أثر السخط فشرع فيها متلفظاً . ومن ان يمين متحفظاً . فلم يتفوه بروابطها . ولم يتنبه على شرائطها . ولما رجع الرسول الى الوزير عرفه ما جرى وأخبره فلم يكترث بتلك الحال . اغترارا بقوة الاحتيال .

قال : وكان وزير السلطان سنجر نصير الدين محمود بن ابى توبة فأنعم على الدركزيني بفرع الري لتلك السنة فان الرى كانت من الاعمال السنجرية ووالیها من أصحابها الاجل المقرب جوهر المعروف بالامير الاجل فلما فرع الوزير الفرع ووزعه . منعه الامير الاجل ووزعه . فأغلظ الوزير له فى المقال . وكان ذلك من اسباب حتفه في المآل . قال : ورحل سنجر الى همذان وخيم بها ثلاثة أيام . ثم نهد الى نهاوند . وحث على اتباعه الجند . لان الخبر وصل بأن الملك مسعوداً وصل مستمداً للملك ومعه صاحب فارس آتابك قراجه . ولما سمع طغرل باقبال أخيه مسعود . لم يطمع من السلطنة فى مسعود . فعزم على الرحيل فأحس سنجر بعزمه وسير اليه الوزير والامير الحاجب وهو محمود القاشانى . والامير قماج وجماعة من امراء العسكر الخراساني . فأتوه وهو واقف على تلعة حذاء كنكوز وبلغوه رسالة عمه سنجر

وأنه ولاه سلطنة العراق وسلطه على ولاياته وانه وليّ عهده ومالك خراسان من بعده • فهوى الى الارض مقبلا . وجرى القدر بملكه من السماء فاصبح مقبلا . وسار سنجر الى نهاوند بعد ثلاث ونفذ السلطان طغرل فى العسكر العراقى فجاءهم الخبر بان مسعودا امسى عائدا الى آذربيجان على سمت دِينَور وما فى عزمه ان يلقى عمه سنجر فأغذ الجماعة اليه سائرين وهجروا تلك الليلة الكرى • ووصلوا السير بالسري. فما اسفر الصبح الا وليل العجاج جان • والخطّي يهتز على يمين الشجاع كأنه جان • والكوسات تذعر • والبوقات تنعر • وصادفوا العسكر المسعودى على موضع من عمل دينور يقال له بَنجَنكشت مرت تلك الجيوش به فامتلأ الملا وماج المرت وجاش الموت وطلعت راية السلطان الاعظم سنجر وهو تحت مظلته • كالقمر فى هالته • وعلى ميمنته السلطان طغرل والامير قماج • وعلى ميسرته خوارزمشاه وعدة أمراء مساعير يسعر بأسهم الهياج • فحملت ميسرة مسعود على ميمنة سنجر وفيها السلطان طغرل فصدمتها وهزمتها. وركض طغرل في الهزيمة فرسخين ثم تحيز الى عمه ووقف في قلبه • وثبت بجنبه • وحملت ميسرة سنجر على ميمنة مسعود ففرقت نظامها • والتهمت لهاميها • وفرّ قراجه ووقف في خواصه وكانت لسنجر صفوف وراء صفوف تخرقها الى القلب . ودارت في الاحاطة بها رحي الحرب • وكان أشجع أهل زمانه فاثبت في مستنقع الموت رجله • ولم ير فى الاقدام بالروح بخله فلما كسر أسر • وقبض معه من أمرائه على يوسف الجاوش ووزيره تاج الدين بن دارست

ثم ركب السلطان بعد ثلاثة أيام ووقف على تامة فاحضر بين يديه قراجه

ويوسف وهو مطرق لا يضرع له ولا يخاطبه فضربت رقبتهما . وطويت ورقتهما . ثم انصرف السلطان سنجر ذلك اليوم وارتحل من غده فلما وصل الى كور شذبه خلع على السلطان طغرل وسايره على انفراده . ووصاه ببلاده وتلاده . وأفضى اليه باسراره وأسرّ اليه بمفاوضاته . وأمره بان يكون مع رضاه ونهاه عن معارضاته . فقبّل عين الوزير ذاكره لماذا كره مخمه . وظن انه سرّ يخفر فيه ذمامه ويخفي ذممه . ثم دعاه وودعه . وأودعه من النصيحة ما أودعه . وانصرف الى الريّ راجعاً . ولمصالح الممالك جامعاً .

ذكر جلوس السلطان المعظم ركن الدنيا والدين

أبي طالب طغرل بن محمد بن ملكشاه

(ابن الب ارسلان)

قال رحمه الله : جلس طغرل على سرير الملك بهمذان بعد انصراف السلطان سنجر الى خراسان فى جمادى الآخر سنة ٥٢٦ ووزيره القوام أبو القاسم ناصر بن عليّ الدركزيني الانساباذيّ استبد بتمشية الامور . والامر والنهي على الجمهور . وكان لا يوقع فى الامثلة السلطانية مظهراً انه وزير سنجر . وانما خلفه بالعراق ليهذب الممالك ويدبر . وهو في هذا الكبر نشيط . والسلطان طغرل منه مستشيط . فهو فى بث العدل . والوزير فى بت الحبل . وذاك

يعطى وهـذا يأخذ . وهـذا يورّط وذاك ينقـذ . ووصلت رسـل الامام المسترشد بالله فلقيهم الوزير بعبوس وبؤس . ووقعهم بالنَجْه . وواجَهم بالجبه وضيع للطمع في الرُشي الرُشْدَ . وضل عن نهج الضلالة التى تشدّ . وأفسد ما صلح . وجرى على خاق الفلاحة وما أفلح . وانفصل الرسـل ولم يستقر بين الامام والسلطان قاعـدة . وكلما ظنت متقاربة عادت وهى بمادية عادة الوزير متباعدة .

ذكر ماجرى للملك داود بن محمود بعد وفاة أبيه

قال رحمه الله : كان داود ولى عهد أبيه . وآق سنقر الاحمديلىّ آتابكه ومربيه وهو بآزربيجان فى جمع كثير . وجم غفـير . وقصـده خواص والده وتغضبوا له وتعصـبوا . وثابوا اليه ووثبوا . ومعهـم الامير سـعد الدولة يرنقش الزكوىّ وكان من أجلّ أمراء الخدم . وأحدهم فى احياء رسوم البأس والكرم . ومعهـم ابنا قراجه ايلرمش وأخوه . وعدة من الامراء هم الاعيان والوجوه . ومن أرباب العمائم الصـفى الاوحد أبو القاسم الذى جعـل مستوفيا للسلطان محمد بعد العزيز . فحملهم على التبريز من تبريز . ونهض السلطان داود فى سـنة ٥٢٦ الى همذان ولما قرب من معسكر عمـه طغرل انحازت عدة من أمرائه الاتراك الى خدمة طغرل منهم بلنكرى وأخوه مع عصبة ذات عصَبية وكذلك شيمة الاتراك

غير وفية .

وبرز طغرل فى جنوده المتفقة . والبنود المختفقة . فلما تصاف العسكران . وتضايق العشيران . وقع البيض على البيض . ولم ير الا بحر الدم يجود من الغيظ بالفيض . ومضى الظهر ولا ظهور . وقد حمي بالصدور الظهور . وظفر العم وعم الظفر . ونفر ابن الاخ وفر منه النفر . وانهزم آق سنقر بداود . وباء الباقون باغلال وقيود . وقتل فى المعركة ايلرمش بن قراجه مقدما . وبذل روحه فى الملتقى مكرماً . وأُخذ سعد الدولة يرنقش الزكوىّ فاعتقل فى همذان عند الوزير فى قصره وأُمضى على سبعين الف دينار فصلُ أمره . وتسلم منه قلعة قزوين . وخلت منه بلاده وذوين . وأخذ أيضاً الصفى المستوفي المعروف باوحد بهروز وحبس عند جاولى جاندار . وسأل الوزير أن ينقله ويعتقله عنده بالدار . فما رخص فيه السلطان . ولا تمكن منه ذلك الشيطان فانه كتب الى طغرل يقول « ان سلمتني الى الوزير . أسلمتنى الى المبير وأنا أعطيك مائة الف دينار على أن أسلم ولا أُسلم . ويستصفى مالي لا الدم » .

فلما يئس الوزير من وقوعه في يده افكر فى حيلة ضعّف بها مال مصادرته حتى أدي مائتى الف دينار وذلك انه قال للسلطان طغرل « ان عمك أمرني أن أضرب الدينار الركني فى همذان . حتى يتفق نقد العراق وخراسان » وتقدم بضرب الف دينار بذلك العيار . ونادى بالتعامل به فى تلك الديار . وطولب الصفى الاوحد بذلك النقد . من غير تضعيف العقد . ثم انه صادر الامراء وأمر بالمصادرات . وبيت بالاذى ذوى البيوتات . فقرر على قتلغ الرشيدى وكان استاذ دار السلطان محمود ثمانين الف دينار ثم

غدر به الوزير فاستخرج من ودائعه ثلاثين الف دينار اخرى فقرته وأفتقرته. وكسرته وخسرته. وأخذ من الجمال بن منارة البيع فى همذان ثلاثين الف دينار . وولى فخر الدولة بن أبي هاشم الحسنى رئاسة همذان وأخذ منه عشرين الف دينار . وقرر على تاج الدين دولتشاه بن علاء الدولة ووالدته ووزيره مائة وخمسين الف دينار . وصادر الاكابر . وصدر الكبائر . وجر العظائم وعظم الجرائر . ووزع على بلاد الممالك بعلة صياغات بيت الشراب والمطبخ الوفا مؤلفة فاطلع السلطان طغرل على طغيانه وتسلطه فأنفذ اليه « انك اساءت سمعتي وأسمعت مساءتى . وفضحت أمرى وأمرت بفضيحتي . ألم يكفيك سلخ جلود العظماء . حتى شرعت فى استفراغ دماء الضعفاء . واستنزاف دماء الفقراء » فكف الوزير عن التوزيع بعد جباية الاكثر . والخيانة في الاوفر .

وسمع السلطان طغرل بتحرك اخيه مسعود . وخروجه مع اق سنقر فى جموع وحشود . فارتحل صوبه الى اذربيجان فلما سمع مسعود بقربه . لم يقف لحربه . وأغذ السير الى بغداد في حزبه . ودخل طغرل الى مراغة وكان الوزير فى تأخر عنه فانتهز فرصة غيبته . وبسط يد معدلته . فجاءه الوزير فجاءة . وجر عليه جراءة . وبطل الحق وعطل العدل . ووجه على وجوه البلاد البلاء . ومثل بالاماثل والى الرؤساء اساء . وصادر زرقان رئيس تبريز . على سبعين الف دينار من الذهب الابريز . ودخلت الشتوة رقصرت الخطوة . واختار السلطان طغرل دخول تبريز والمقام فى قلعتها الى حين انحسار شتوتها . وانكسار سطوتها . فاجتمع عسف الوزير . وعصف الزمهرير وادبار المسئ وسوء التدبير . وكان المستولى على فارس بعد قراجه منكوبرس

وقد اجتمع عليه الترك فكتب الى السلطان . يطلب ولده الب ارسلان . ليذعن بالطاعة . والاعتراف بالتباعة . فأوجب ذلك رحيل السلطان والطرق مسدودة . والسبل مصدودة . فتضرر الظهر وظهر الضرر . ونفقت الدواب وتضوّر العسكر . ووصل الى اصفهان . وأنفذ الى فارس ولده الب ارسلان . فوقعت على منكوبرس حينئذ على الحقيقة سمة الآتابكية . ودرّت له اخلاف الحرمات البكيه .

ذكر حوادث جرت فى أثناء ذلك من السلطان مسعود وآتابك آق سنقر الاحمديلي

قال : رحمه الله لما قصد السلطان مسعود بغداد عبر على تكريت وكان واليها الامير نجم الدين أيوب وعمى عزيز الدين عنده فقال مسعود لايستتب أمرى الا بوزارة العزيز . فان الامراء يميلون اليه واذا استوزرته كنت فى حرز حريز . فنفذّ اليه خادمه عماد الدين صوابا . والامير أبا عبدالله الدووى ومعه مقدمين وحجابا . وطلبوه من الوالى . فاظهر الامير طاعة الموالى . لكنه اضمر نية اللاّوى ولىّ المناوى . فان صاحبه كان مع السلطان طغرل فحصل فى الامر المشكل . ان سلمه خشى فى العاقبة عقوبة صاحبه الغائب . وان لم يسلم خاف من سخط السلطان الحاضر العاتب . واخرجه من القلعة الى المشهد بالمدينة . واشتغل بحمل اسباب التجمل والزينة . ولم يزل يدافع

الوقت حتى حان المغرب . وخان المطاب

فعزم العزيز على الخروج فيمن معه وتسابقوا الى الابواب فوجدوها قد أغلقت قبل وقت اغلاقها . وعند ذلك عاد وثوق الآمال بالانطلاق بوثاقها . وطلبت المفاتيح وقد حملت الى القلعة . فباتوا على مضضهم فى تلك البقعة . فلما اصبحوا وجدوا صطماز أحد مماليك بهروز وهو شحنة الحلة على الباب . وقد استتبع جماعة من الاوباش والاوشاب . وقد ساق فى ليلة واحدة اربعين فرسخاً . وجاء لمن بالقلعة مصرخا . ودخل على العزيز وأخذ بيده ورده الى القلعة وقال للقوم « انصرفوا بسلام . فلا حاجة بنا الى التعرض من صاحبنا لمعتبة وملام . وهذا السلطان مسعود ان استقرت له سلطنته فالآفاق له مذعنة . وما دام الملك لاخيه فلا مطمح له فيه » فعلم القوم انهم اخطأوا الحزم . وضيعوا العزم . فرجعوا الى السلطان وأخبروه بالحكم والعلة . نخل به الشحناء من شحنة الحلة . وطلب بعض اخوة العزيز ليستخدمه . ويتقرّب به اليه ويقدمه

وكان العم بهاء الدين أبو طالب وزير آق سنقر الاحمديلي وهو فى الخدمة فرتبه فى منصب الاستيفاء . وتعوض بالصعيد الطيب من الماء . واستوزر أنو شروان . وجمل بمكانته المكان . وأخذ العسكر للملك طالباً . ولاخيه مناصباً . وكان السلطان طغرل حينئذ باصفهان . وقد استخلف آتابك قرا سنقر بآذربيجان فلما نهد آق سنقر مع السلطان مسعود الى آذربيجان . تزحزح عنه قرا سنقر الى زنجان . وتحصن عين الدولة خوارزمشاه والاميران بيشكتين وبلاق بأردبيل والامير الحاجب تتار بأرمية وتحكم السلطان مسعود وآق سنقر فى تلك البلاد . وانتظمت امورهم فى سلك السداد . ونزلوا على

أردبيل محاصرين . وثبت اهلها صابرين مصابرين . وكتب الدركزيني الى قرا سنقر يحرّضه ويقول له « بارز آق سنقر فأنت له مبار بالمبارزة . واحضره وناجزه الحرب بنفسك والا حضرت بنفسي الى المناجزة » فكتب جوابه ومهد في تأخير القتال عذرا فلم يعذره الوزير وكتب اليه ثانيا يأمره بالمناجزة فأستشاط قرا سنقر من اشتطاط الوزير وقال لجماعته « قد بلانا الله بهذا الفلاح . والدولة بوجوده معدومة الفلاح » فاحتد الاميران الحاجب تتار وجاولي الجاندار وقالا « لا بد من طاعة السلطان في محاربة أهل العصيان . فلا تجبن فهذا مقام الشجعان » فاغتاظ وركب وساق نيفا وعشرين فرسخا في ليلة واحدة فوصل بخيول رازحة . وخيول آق سنقر جامة غير جانحة . فتلاقيا وتضاربا . ثم انهزم قرا سنقر وفر . وظفر آق سنقر وقر . وكانت الحرب على باب اردبيل . فشفى آق سنقر منهم الغليل . واحتوى على ما كان معهم . ولم يقم بعدهم وتبعهم . وهجر الكرى . ووصل السير بالسرى . حتى وصل الى همذان . وعنا الملك لمسعود ودان . وخرج السلطان طغرل وتحصن بازوَنْد وماوَشان وكان قد عرض له مرض اقعده عن الحركة . واعجزه عن حماية المملكة . فقدم الامير الحسن الجاندار على العسكر وهاجه الى اللقاء . وألقاه في الهيجاء . ثم انهزم طغرل الى الريّ قادما . وعلى الرأى نادما . وعلى وزيره واجدا . ولله شكرا على سلامته ساجدا .

ذكر ما كان من حديث عمي العزيز وحادثته

بعد عوده الى القلعة

قال : قال الدركزيني لسنجر عند عوده الى خراسان « انك تعود الى خراسان ويبعد علينا استئذانك فى المهام فاعطنا علاماتك فى دروج بياض . لمقاصد تعرض واغراض . فاذاعنت مصلحة . واتفقت منفعة للدولة مترجحة . أصدرنا بها مثالا بعلامتك فلا يخالفه القريب والبعيد . ولا ينقاد الاله القوى والرشيد » وكانت علامة سنجر تحت قوس الطغراء وفوق بسم الله (توكلت على الله) فاخذ العلامات فى عدة دروج . واتخذها أسبابا لاستباحة دماء وفروج . فاول مثال زوّره انه وقع تحت علامة منها بقتل العزيز الى صاحب تكريت بهروز الخصى . واتفق انه كان فى العسكر معهم فارهبه وأرعبه وأمره بالامتثال . والجرى على مقتضى المثال . ففزع الخصى وتمكن منه الخوف وكتب الى والي تكريت نجم الدين أيوب . وخاطبه فى الخطب المخطوب . وقال له « هذا توقيع السلطان مع صاحب وزيره . يأمر بقتل العزيز وتسليمه اليه وتسييره . فان أبيت فقد رضيت بسخطى . وخالفت شرطى . وأردت الخطأ فى رد خطى »

وكان نجم الدين رجلا مسلما . فما رأى أن يكون لرجل مسلم مسلما . وعرف أخوه أسد الدين شيركوه الحال . وحجز بينه وبين الوقوف على التوقيع الواصل وحال . فشاركه أخوه شيركوه فى رد الوارد . وصرفوه بالخلع والفوائد وكان شيركوه ملازما للعزيز ومتبركا به . ومتمسكا بسننه .

قال عماد الدين : سمعته يوما يقول « صليت ليلة مع العزيز فسمعت هاتفاً يقول جملك الله عزيزاً كما حميت العزيز « فما أطمعني فى مصر بعد نيف وثلاثين سنة الا هذه الدعوة . وأيقنت انى أنال هذه الحظوة . قال : فكان كما قال فانه ملك مصر وصار عزيزها . ومن حاز الجنة بما فعله فلا عجب لمملكة مصر ان يحوزها

قال : فلما عرف الدركزيني تمنع ماتوقعه . ضاق عليه الفضا وماوسعه . فثقل على بهروز وفزعه . وقال له « سر بنفسك ولا تتنفس بسرك حتى تأتى تكريت . وبيت من بها قبل ان تبيت » ووكل بالخصى أياما . ومزج له فى الشهد سماماً . ثم أطلقه على الشرط فلم يشعر نجم الدين أيوب وأخيه أسد الدين شيركوه حتى هجم الخصى عليهما القلعة وقال لهما « قد دافعتما عن هذا الرجل دفعات فكيف هذه الدفعة » فدفعاه فلم يندفع . وردعاه فلم يرتدع . فتركاه وشأنه . فما ترك ما شانه . وكان بهروز قد استصحب معه من أعوان الدركزينى ملحدا . مثله مفسدا . فلما عرف العزيز رحمه الله انه قد أسلم . وأحس بالامر وما أعلم . قام يصلى ركعتين فصلى الاولى بسورة الكهف وشرع فى الاخرى بياسين . وطالت صلاته على الملحد اللعين . فضربه وهو في السجود . فجاد بروحه فى مناجات المعبود . وشهد السعادة . وسعد بالشهادة . وكان مذ حبس متوفرا على العبادة . يصوم ويقوم وذلك فى سنة ٥٢٧ وعمره ٥٥ سنة . وجرى هذا الامر . ولم يكن عند السلطان طغرل خبر . وفى ذلك عبرة لمن اعتبر . فانه بعد قتله الدركزينى طلب العزيز فاعلم بحادثته وحديثه . فلعن الوزير على تأثيره . وشؤمة التارى وتأريثه . ولم يكن بين مقتل الشهيد العزيز وبين

مقتل المرتد الوزير سوى أربعين يوما

ذكر قتل الوزير الدركزيني وما آل اليه أمر السلطان طغرل

قال رحمه الله: قد ذكرنا انه أحجم الى الرى من قدام آق سنقر ومسعود. في عدد مفلول وفل معدود . وخرج الامراء الذين كانوا باردبيل فى الحصار ورحلوا على سمت أصفهان . ليلحقوا السلطان . وفارقهم العسكر فوصلوا فى خف من الخواص . وعبروا للخلاص . على النهج المعتاص . وجاءت العساكر الى مسعود من كل حدَب تنسلُ . وبكل عسال تعسل . وكان طغرل قد رحل الى أصفهان . ثم رحل لقصد أخيه مسعود الى خوزستان . وأيقن ان كل ماتم عليه من الوهن فى أموره كان بوزر وزيره . وإدبار تدبيره . فأمر بصلبه . فصلب بامره . وانقطع لثقل جسمه حبل خناقه . فوقع الى الارض فى آخر ارماقه . وفى جملة النظّارة مملوك من مماليك شيركير واقف . وهو بما جرى منه على مالكه عارف . فشق الحلقة بسيفه المسلول . وضرب رقبة الوزير المغلول . فقطع فى الحال اربا اربا . وأفرغ قحف رأسه وحمل الى ابن شيركير فاتخذه للكلاب شربا . وأهديت كل أنملة له الى من عنده له ثار . وانتعش بعثاره من كان له عثار . وكان مقتله بشابور خُواست

وكان السلطان طغرل قد قال له وهو جافل . ومن طلوع أخيه عليه آفل « اين العسكر أين الجند أين ما سبق به منك في الكفاية الوعد » فقال

له « لا تبالي ولا تخطر خطراً بالبال فانى قد ندبت جماعة من الحشيشية لقتل أعدائك وكأنى بهم وقد تعجل قمعهم وتفلل جمعهم » فاغتاظ السلطان وقال له « قد وضحت صحة الحادك . وبان فساد اعتقادك » فامر بتجريده واشمال نار الحديد في ماء وريده

قال : ووصل الخبر بان الباطنية قد دخلوا على آق سنقر فى خيمته بمرج قراتكين . وتناوبوه بالسكاكين . وان عساكره ارتحلت من همذان . على صوب آذربيجان . فان السلطان مسعودا وان كان فى جمع جم . وعسكر دهم لكن أمره مدبر . اذ عدم من هو له مدبر . فثنى طغرل عنانه . وشرع لنحر الخصم سنانه . ومضى الى الرى . وطوى المنازل اليها أسرع الطى . فلما خيم بها اجتمع الذباب على عسله . والذؤبان العاسلة فى محفله وجحفله . ورحل السلطان مسعود بعد مقتل آتابكه آق سنقر الى الرى لاضعاف آخية اخيه . ومناجزته قبل انتهاض قوادمه بخوافيه . والعسكر الباقى معه يزيد على ستة آلاف فارس وطغرل فى ثلاثة آلاف فبرزوا بعدة المبارزة . وانجزوا عدة المناجزة . فانهزم طغرل وحماه حماة خواصه . وخلصه ذوو اخلاصه . واستأمن الاميران بلاق وسنقر صاحب ذنجان وجماعة الى العسكر المسعودى . واستوت سفينة السكينة منهم فى بحر جوده على الجودي وذلك فى ثامن عشر رجب سنة ٥٢٧

وامتد طغرل الى طبرستان ونزل على الاصفهبد على فأكرمه وأعز مقدمه ووسع له ولعساكره الاتراك وأنفق فيهم الذخائر والاموال وأقاموا شتوتهم عنده فلما انحسر الشتاء رحل طغرل عائداً الى همذان واتصل به من الامراء الاكابر جماعة . لهم على الانام طاعة . مثل عين الدولة خوارزمشاه ومحمد

ابن شاهملك وحيدر بن شيركير وسعد الدولة يرنقش ووصل بزابه من عند آتابك منكوبرس فى الفى فارس من فارس فاشتدت شوكته . واحتدت شكته . وكان السلطان مسعود بآذربيجان فاستدعى فخر الدين عبد الرحمن ابن طغايرك واتصل به يرنقش البازدار ونجم الدين رشيد ونهضوا لصوب قزوين والرى . عازمين على حسم الداء بالكي . فرحل السلطان طغرل يتبع آثارهم . ويشق غبارهم . فنكلوا عن لقائه . وولوه ظهورهم عند ظهور لوائه . وتفرقوا ايدى سبا وغنم أصحاب طغرل ما وجدوه من دوابهم وأسلحتهم وندب قرا سنقر الى محاربة الملك داود بن محمود بالمراغه فهزمه . وفل غربه وثلمه . وتمكن السلطان من سلطنته . وتسلط بمكنته . وفرع سريره وعرف سروره .

وزارة شرف الدين على بن رجاء

قال رحمه الله : سمعت والدى صفى الدين يشكره ويثنى عليه ويقول لما قتل السلطان طغرل وزيره الدركزيني استدعاني من اصفهان وظن وان العزيز باق . وانه عن حضرته اذ طلبه غير معتاق . قال : فقربني وا كرمنى قال « خذ خطي الى بهروز باحضار أخيك . وأسرع فاني منتظر لتوافيك » قال : فمضيت الى بغداد واذا بالقضاء قد قضى . والحكم قد أمضى . فلما عرف طغرل بوفاته طلب رجلا كافياً فوجد على بن رجاء عليا كما رجاء . فعول عليه فى وزارته وسلم اليه المنصب وشرع فى مصادرة الدركزينية وقبض على

نوابهم . وضيق على أصحابهم . قال : وفى هذه النوبة قتل السلطان مسعود الصفى الاوحد المستوفى وصادر أهله على مائتى الف دينار وكان ذلك برأى سعد الدين أسعد المنشئ الخراسانى وبمواطأة الكمال ثابت القمى فانه تولى منصب الاستيفاء . فرأى اتلاف من يترشح لمنصبه حتى يبطش بيد الاستيلاء .

ولما استقرت قاعدة طغرل وأمن من معار معارضيه . وعلا على مقار مقارعيه . وجلس على تخته . وتجل بعلو بخته . فاجأه الاجل فانتقل من الثراء الى الثرى . ومن دار البلاء الى دار البلى . وذلك فى أوائل سنة ٥٢٨ فانه عرض له قولنج فشرب دواء أسهله وأدواه . وأسقط قواه . فتشتت ذلك الجمع . وانطفى ذلك الشمع . وغاض ذلك البحر . وغاب ذلك البدر . وكانت وفاته بهمذان ودفنه بها فى مدرسة بناها لبعض خدمه . وأسف بنو الآمال على كرمه . وكانت مدة ولايته سنتين وشهراً أو شهرين وكان جامعا للخلال التى تفتقر اليها السلطنة من الحزم والتحفظ . والعزم والتيقظ . الا انه كان مستبدا بآرائه . معجبا بأهوائه . لايستشير فى أموره . ولا يسترشد في تدبيره . وكان مصطنعاً لاراذل صحبوه فى أول عهده . فصاروا مقدمي جنده . والمخصوصين برفده . فكانت دنائتهم تغض من جليل قدره وتغمض على ذكره .

ذكر جلوس السلطان المعظم غياث الدنيا والدين أبي الفتح مسعود بن محمد بن ملكشاه قسيم أمير المؤمنين سنة ٥٢٨

قال رحمه الله: كانت أم مسعود حظية تسمى نيست اندر جهان وزوجوها بعد وفاة السلطان محمد بالامير الاصفهسلار منكوبرس والي العراق. ونقلوا معها برسم جهازها من الخزانة السلطانية اموالا لاتنفد مع دوام الانفاق. وكان منكوبرس من أكرم أمراء الدولة وأعيانها وكان قد استبدّ باقطاعات العراق بعد وفاة السلطان وتفرد بها مدة حياته. وارتفع بوفور ارتفاعاته. وحكي عن وزيره وليّ الدين المخلّص محمد الميانجى انه قال «جمعت له فى العراق الف الف وثلث مائة الف دينار نقداً مطبوعا بالسكة الامامية سوى ما كان له من الآلات والثياب والدواب والجواهر وقد ألممنا بذكر قتله فى عهد السلطان محمود. ورجعنا الى حديث مسعود. وذلك انه سلمه والده فى سنة ٥٠٥ الى الامير الاصفهسلاّر مودود صاحب الموصل

ثم جهز مودوداً لحرب الفرنج ووصل الى الطبرية وروّى صدى الاسلام من دم الكفر. وشهر على أيمان الايمان نصل النصر. وعاد الى دمشق محبوّاً بالفتح. محبوراً بالنُّجح. وحضر فى الجامع فى آخر جمعة من ربيع الآخر سنة ٥٠٧ وخرج ويده فى يد طغتكين صاحب البلد. وهو محفوف من جنده بذوى العَدد والعُدَد. فجاء اليه رجل وضربه بضربتين فنفذت احداهما الى خاصرته وحمل الى دار طغتكين. وعزّ فيه عزاء المسلمين. وقيل انه خاف منه على دمشق فدسّ اليه. ولولا ذلك لكان لما اهريق منه الدم شق عليه.

ولما وصل نعي مودود الى السلطان محمد سلم ولده مسعوداً الى آق سنقر البرسقي وأقطعه الموصل والجزيرة . وأجزل له عطاياه الغزيرة . ولما توفى محمد تولى محمود فزوّج أم مسعود بجنكوبرس استمالة لقلبه . واظهاراً للتقرب اليه ترغيباً له ورغبة فى قربه . فلما ظفر به قتله . وحلى بصبغ دمه من سيفه عطلة . وجمع جوشبك الجيوش وسار بمسعود الى حرب أخيه محمود فكان ما كان من هزيمته وقتل أبي اسماعيل الطغرائي وزيره

ثم استدعى السلطان سنجر بعد ذلك مسعوداً واخوته . وقرّر على السلطان محمود من مال العراق نفقتهم ونفقته . الى أن خرج الامراء على محمود فى آخر أيامه فاستدعوا مسعوداً من جرجان . وحملوه على مناجزة السلطان . فما تسنى له أمر . ولا تهيأ له نصر . فاستمال السلطان محمود أخاه مسعوداً وقربه وسيّره الى ارّانية . واستكانت لهيبته عيون أعيانها الرانية . ثم لما توفى محمود جرى له ما ذكرناه مع أخيه طغرل حتى مضى لسبيله

قال : وكان مسعود قد وصل الى دار الخلافة فى حياة أخيه وخطب الخليفة المسترشد بالله له وأجله وبجله ووقعت عليه سمة السلطنة بلا سموّ . وعلا صيته بلا صوت علو . وكان الجند يجتمع عليه ويفترق . ويشئم تارة معه ويعرق . فلما نبت غرسه . وثبت عرشه . وقرّ قراره . وسر أسراره . وكان وزيره شرف الدين أنوشروان بن خالد . قال رحمه الله : وكان المسترشد بالله رضي الله عنه قد استوزره مدة ولما وصل السلطان مسعود الى دار الخلافة وخطب له فى آخر المحرم سنة ٥٢٧ سفر أنوشروان وهو وزير الخليفة فى مهامه . فسفر بحسن سفارته وجه مرامه . وأحضره المسترشد وقال له شفاها « تلق هذه النعمة بشكرك واتق الله فى سرك وجهرك » وخلع عليه وطوّقه وسوّره وجلس على

الكرسى المعدله فقبل الارض وقال له أمير المؤمنين «من لم يحسن سياسة نفسه لم يصلح لسياسة غيره قال الله تعالى ذكره فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره» فأعاد عليه الوزير بالفارسية فأكثر من الدعاء والضراعة. ونطق بالاذعان والطاعة. وقلده بسيفين. وعقد له بيده لوائين. وسلم اليه ابن أخيه داود وآتابكه آق سنقر وقال له «أنهض وخذ ما آتيتك وكن من الشاكرين» فمضى مسعود وهى النوبة التى نصر فيها على طغرل قال: ثم رأي الخليفة عزل أنو شروان واستيزار شرف الدين نقيب النقباء على ابن طراد الزينبي وفيه يقول حيص بيص قصيدة أولها

شكراً لدهرى بالضمير وبالفم   لما أعاض بمنعم عن منعم

فجلس في بيته مكرما. ولزم منزله محترما. ثم اجتمع بالسلطان مسعود فاستوزره. وصدّ رهبة الاطماع حين صدّره. وكان المستولي على مسعود آق سنقر فلما استشهد تمكن الامير يرنقش البازدار فاستولى ولم يلتفت اليه ولا الي وزيره وكان آتابك قراسنقر حينئذ قد وصل الى الخدمة في حشوده وجنوده وحماة آذربيجان. وكماة ارّان. وعنده استشعار من زوجة السلطان الخاتون زبيدة بنت بركياق فانها كانت على السلطان متسلطة فرأى صلحها واصلاح رأيها. وحمله دهاؤه على حمل النفائس اليها واهدائها. فلم يعجب الامير يرنقش ذلك فأستوحش ووافقه الامراء الاكابر وهم برنسق وقزل أمير آخر وسنقر صاحب ذنجان وجاولى وحيدر بن شيركير فخرجوا عن الطاعة. وتدرجوا الى مفارقة الجماعة. ورحل يرنقش بهم الى بروجرد وبقى السلطان ومعه قرا سنقر فى جيوشه واتصل به خوارزمشاه ووصل الامير السابق رشيد من خراسان فنهض السلطان بهم الى هؤلاء اليهم والتقوا

فانهزم يرنقش وأسر من الامراء الطزلية جماعة . وقعت فى اطلاقهم من قرا سنقر شفاعة . ولم يزل بهم حتى اصلح حالهم . وقضى اشغالهم .

وأما يرنقش البازدار فانه رهب فهرب ودار بخلافه حتى أتي دار الخلافة . فحط بحرم الامن رحل المخافة . واستصحب معه من الاتراك جمعاً كثيراً . وصار بين الخليفة والسلطان للشر مثيراً . وأشاع عن السلطان نقض الأيمان . ورفض الايمان . وزعم أنه قد عزم على صدق القصد . وانه باغ باغ زرع الدولة المسترشدية بالحصد . وكان الخليفة قد انقرض من السلطان فى تغييرات غيرت فيه آراءه . وبدت من شحنة ببغداد ماأبدت شحناءه . فلما سمع قول يرنقش صار يرى نقشه فى الحجر . ونبت ما شجر من الخلاف والعناد عند الخليفة نبت الشجر . وكان السلطان قد هم باتباع يرنقش بعسكر يكفه ويكفيه . ويقف على أثره ويقتفيه . فصدق الخليفة قصده . وتحقق حق عناده عنده . فحينئذ خطب وخاطب . وطاب وطالب . وخرج بنفسه فى هيأة رائعة . وهيبة رائقة . وخرج معه من كل طائفة أعيانها . وتعاونت على التناصر انصار الدولة وأعوانها . وسار وقد صحبه حتى الشعراء والاطباء . والصوفية والفقهاء . وفي تلك السفرة يقول أبو القاسم بن الفضل الشاعر قصيدته التى اولها

في العسكر المنصور نحن عصابة ... مرذولة أخسس بنا من معشر

خذ عقلنا من عقدنا فيما ترى ... من خفة ورقاعة وتهور

ويقول فيها

تكريت تعجزنا ونحن بعقلنا ... نسعى لنأخذ ترمذاً من سنجر

قال : ولم يقدر على التخلف عن الخليفة ذو قدر . ولم يفسح لذى عذر .

وسار فى حشد وحشر . وضم ونشر . ونمي الى السلطان خروج الخليفة فشق عليه شقاقه . وأظلمت آفاقه . فخرج صوبه من همذان والتقوا ببرج يقال له داى مرك ولما تراءى الجمعان مال الجنس الى الجنس . فمال الترك الى الترك . وأسلموا حرمة الاسلام المصونة الى الهتك . وتفرد الخليفة مع مفرديه . وبعد من جدى منجديه . ثم أقشع نشاصه . وانفل عنه خواصه . ووقف ولم يولّ . وثبت ولم يخلّ . وهابت الجماعة الاقدام عليه . والتقدم اليه . فنزل أمير العلم السلطانى وتقدم ولم يزلْ يقبل الارض حتى وصل اليه فأخذ بعنانه . ثم أحدق به الامراء كما يحدق كلّ موكب بسلطانه . وأنزلوه فى خيمة ومعه وزيره نقيب النقباء وابن طلحة صاحب المخزن وسديد الدولة ابن الانباريّ كاتب الانشاء وبقى هكذا فى مخيم مسعود يرحل برحيله . ويحل بحلوله . وهو يعده باعادته الى دار الامامة حتى كان المعسكر على المراغة فوصل الامير يرنقش قرآن خوان من خراسان برسالة سنجرية كتم سرّها. وأسبل سترها . وهجم على الخليفة جماعة من الباطنية ففتكوا به فى سرادقه . وفجعوا الزمان بسيد خلائفه وخلائقه . وذلك فى يوم الخميس الثامن عشر من ذى القعدة سنة ٥٢٩ فعرف بقرائن الاحوال ان سنجر سير الباطنية لقتله . وما اشنع وأفظع ما أقدم عليه من فعله .

﴿ ولاية أمير المؤمنين أبي جعفر منصور الراشد بالله ﴾

(ابن المسترشد بالله رضى الله عنهما)

قال : فوصل الخبر الي بغداد باستشهاد الخليفة رضوان الله عليه يوم السبت السابع والعشرين من ذى القعدة سنة ٥٢٩ وبويع للراشد بالخلافة وجلس فى منصبها فى ذي الحجة وبقى فى دار الامامية ببغداد قريب تسعة أشهر على ارجاف مزعج للارجاء . وخوف غالب على الرجاء . حتى تفرغ مسعود الى شغله . فشمل بيته بيت شمله . وأخرج بدره من بيت شرفه . وأتى على متلده ومطارفه . وسيأتي ذكر ذلك فى موضعه

قال: فأما السلطان مسعود فانه بعد حادثة الخليفة بالمراغة قبحت سمعته . فذكرته الالسن . ونكرته الاعين . فصار يفكر فى شئ ينفى عنه الظنة . ويستل به من القلوب السخيمة المستكنة . حتى سولت له نفسه قتل الامير دبيس بن صدقة . وكان فى القرب منه بمنزلة انسان عينه الذي بوأه الحدقة فرأى انه اذا قتله نسب الناس اليه قتل الخليفة وان السلطان لذلك لم يبق عليه . وكان الامير دبيس المزيدى حضر باركاه السلطان وهو جالس ينتظر الاذن فجاءه من ورائه وهو لا يراه بختيار الوشاق . وأبان بسيفه رأسه وأسال على البساط دمه المهراق . وكان بين استشهاد الخليفة وقتل دبيس شهر واحد . وكانت هذه النوبة أيضاً شنيعة . والفضيحة فظيعة . وشفعت الكبيرة بالكبيرة . واتبعت الجريرة بالجريرة . فتقرحت القلوب وتحرقت . وأسفت النفوس وأشفقت . فلم يكترث السلطان بما كرث . ولم يحدث غماً لما حدث

وطما عباب طماعيته . ولفح شرر شرته . وخشيه الاكابر والاماثل . وغشيه الاصاغر والاراذل . فرفع قوانين السلطنة وأبطلها . ومحاسنا محاسنها وعطلها

فأول مابدأ به بعد حادثة الخليفة انه نهض الى بلاد سكمان فجلب على سكانها البلاء . وأضرى بها الضراء . وخافه ابن سكمان فجفل . ثم بذل له بالذل خدمة حتى قفل . وحينئذ توجه الى بغداد مناصبا للخليفة . ناصبا له وجه الخيفة . فنذر وحذر . وقام وقعد . وأحس بقرب من قتل أباه فأباه وبعد . وكان الامير زنكي بن آق سنقر صاحب الشأم ببغداذ . فحمله على السير منها والاغذاذ . وكان داود بن السلطان محمود قد وصل الى بغداد وزنكى موازره . ومظاهره وناصره . فلما حفرها مسعود وحصرها . ونازل بعسكره عسكرها . رحل داود عائدا الى آذربيجان . وأجفل زنكى راجعاً الى الشام . وقد خاف السلطان وأشار على الخليفة باتباع أثره فما أصغي اليه . ولا سهل خروجه من بيته عليه . ثم استوحش من مقامه بعد ان أقام مدّة على استيحاش . فرحل رحلة آيس ونفر نفرة خاش . ومضى اقبال خادم أبيه معه . وصحبه وزيره جلال الدين أبو الرضاء بن صدقة وخيم بظاهر الموصل متمسكا بحبل قاطعه . ومغتراً بسلم منازعه. فان زنكيا لما أصلح أمره مع مسعود سيّبه وخيّبه . وأخذ اقبالا خادمه وحبسه ثم قتله . وأزعج الخليفة فانتقل انتقال المرتاب وتحول تحول المرتاع . وبقى كذلك سنتين لايستقر به مكان . ولا يمكن له قرار . حتى اجتمع بالسلطان داود فى آذربيجان . وجاء معه الى محاصرة أصفهان . وختم له بالشهادة عليها سنة ٥٣٢ في ظهر يوم الثلثاء السادس والعشرين من شهر رمضان وكان ذلك فى القيظ وقت الهاجرة المتأججة . والقائلة المتوهجة . فهجم عليه

قوم من فدائية الباطنية . فأضجعوه على فراش المنية

قال : عماد الدين وانا اذكر فى صغرى هذا الحادث الكبير وحديثه وتأثيره فى القلوب وتأريثه . وكان ذلك بعقب سنوات اسنات . وشتوات شتات . ومجاعات للجماعات مفرقة . ونوائب نوابي للنوائب محرّقة . وهلك الناس جوعا . وخرج من أهل أصفهان من لم ينو اليها رجوعا . وما كفاهم ذلك حتى نزل عليهم داود فخربت القرى وألحقت بالوهاد وأغلقت أبواب البلد . ووهت أسباب الجلد . وأعيان أهل أصفهان لما أحسوا بالحصار . رغبوا فى الاصحار . وانتقلوا الى ظاهرها وسكنوا حتى فى مقابرها . وهناك بقرب زندروذ عند المصلى قصور عالية مبنية على قبور أكابرها . وكنا نحن من جملة المنتقلين الى بعض قصورنا . وقد عنينا بامورنا . فجاء العسكر المحاصر . في عدد كلّ عن عده الحاصر . وكان عمي بهاء الدين مع داود فى ديوان الاستيفاء واليه وزارة خوارزمشاه ولم يكن مع الراشد وزيره أبو الرضا بن صدقة فان زنكيا احتبسه عنده ثم استوزره فنفذ الى والدى صفى الدين والزمه بوزارته فأبى ثم اتفقت حادثة الراشد فحمدنا الله على ترك خدمته . والعصمة من واقعته . فان والدى رحمه الله حلف ان لا يخدم بعد العزيز سلطانا . ولا يتولى ديوانا . فوفى بيمينه مدة عمره . وعاش بعد أخيه نيفا وثلاثين سنة مقبلا على امره . ودفن الراشد فى مدينة جيّ وأفردت له تربة فى جامعها وصار الى اليوم . وضع قبره من أشرف مواضعها

وحينئذ تفرق شمل تلك العساكر ورحل داود آخذاً طريق الري وسار معه والدى واستصحبنى وأخي أبا بكر وخلانا فى المدرسة المحدثة

بقاشان وأقمنا بها سنة نتردد الى المكتب ونشتغل بالقرآن والكتب الادبية ثم عدنا الى اصفهان وكلانا لم يبلغ قمره الى الابدار. والوالدسار فى ليل الاسفار. قال: وأما أنوشروان الوزير فانه ما لبث فى الوزارة. وكان معهد الملك به غير مستتب العمارة. لا لنقص فيه بل لتغير القواعد. وتكدر الموارد. فعزل واعتزل. وما انتقل عن داره حتى تحول الى جوار ربه وانتقل. وجلس للوزارة عماد الدين أبو البركات الدركزينى. قال عماد الدين رحمه الله: وكان نسيباً للقوام الدركزينى من جهة اخواله. وقد حسنت فى ايام دولته حوالى احواله. ورتبه أيام الوزارة المحمودية عارضاللجيش وبقى مستمرافي منصبه. مستقيما على مذهبه. وهو الذى يقول فيه القاضى الارّجانى

دام علاء العماد فهورجاء العباد دام لنا طالعا فهو ضياء البلاد

له يد لم تزل تصدر عنها أياد عيون حساده مكحولة بالسهاد

كأن أجفانها أهدابها من قتاد

ولما رأى السلطان مسعود في عنفوان دولته. وريعان سلطنته. الخلل حالا والحال مختلة. والعلل بادية والمبادى معتلة. استعجز أنوشروان للين اخلاقه. وقرب قمر عمره من محاقه. فرأي صرفه باحترام. وعزله باكرام وظن انه اذا ولى دركزينيا أحي رسوم الاقتدار. وسطا سطوة الجبار. فولى العماد فما رفع عمادا. ولا عرف سدادا. ولا مشي الا فى طريق السلامة. وقنع بالدست والعلامة. وكان فى منصب الاستيفاء حينئذ كمال الدين ثابت القمى الثابت الكامل الباسل وكان فى زمان عمى من نواب ديوانه. وصنائع احسانه. وكان شهما ناقدا. وسهما نافذا. فأنس السلطان

بروائه . وركن الى رأيه . واستغنى به عن وزرائه . وهو الذى يقول فيه القاضى أبو بكر الارّجاني قصيدة منها

سل النجم عني في رفيع سمائه — أشاهد مثلى من جليس مبايت
أساهره حتى تكل لحاظه — وينسل فى الصبح انسلال المفالت
سقى عهدهم غيث تقول اذا بدا — تجلل وجه الارض ورق الفواخت
معلمة الامطار عيني على الثري — اذا ماسما إن لم يكن كف ثابت
له قلم ان هزه فى كتابة — أبر على سيف الكمى المصالت

قال : وهذا ثابت كان من دهاة الرجال . وكفاة الاعمال . وبمشورته شيدت القواعد . وشدت المعاقد . وولى المقتفى وخلع الراشد . وأما السلطان مسعود فانه بعد خروج الراشد من مقام الخلافة استشار الوزير شرف الدين علىّ بن طواد الزينبي وكان قد اعتقله بعد ماجرى على المسترشد ثم أطلقه واستصحبه وخاطبه فيمن يخطب له فاشار بخير الخلائف والخلائق أبي عبدالله محمد ابن المستظهر فبويع له بالخلافة فى ذى القعدة سنة ٥٣٠ ونعت بالمقتفى لامر الله ووزر له شرف الدين الزينبي واجمع الانام على بيعته . واجتمعت الآمال الظامئة على شرعته . وكر السلطان راجعاً الى الجبل . واثقاً بحصول الامل . وانتهى اليه ان آتابك منكوبرس للخروج عليه مستعد وانه مستجند مستنجد لمجاوريه مستجيد لعدة الحرب مستجد . فانهض آتابك قراسنقر الى أصفهان ليكون على طريق دفعه فسار ومعه يرنقش البازدار . وجاولى الجاندار . وسنقر صاحب زنجان وهم العظماء الكبار . وهم اعضاد الدولة وأركانها . وملاك مسكن المملكة وسكانها . ووصلوا الى أصفهان وكان القحط فى الابتداء . فكانوا سبب الوباء والغلاء . وأكلوا ماوجدوه من

الرطب واليابس . وألحقوا الغني بالفقير البائس

قال : وانا اذكر وقد وصل قرا سنقر ووزيره عز الملك ابو العز البروجردى وكان من الشياطين الذين استتبعهم في عصره الدركزيني فقبض بقايا أملاكنا التي أسأرتها المصادرات . وعمد الى شمل جماعتنا ليسرع فيه الشتات . وأقاموا تلك الشتوة باصفهان ثم صح الخبر بوصول آتابكه منكوبرس فعرف قرا سنقر والامراء انهم لا يطيقون مقاومته فساروا الى همذان . ولحقوا بالسلطان . وجاء منكوبرس الى أصفهان . نخلفهم فى الظلم والاظلام . ورعى الغلال قبل ادراكها . وأعجل الارماق عن امتساكها . وأقام مدة . ولقى الناس منهم شدة . ورحل فى أوفر عدة وأوفى عدة . فلما قرب من السلطان مسعود . تحاجز العسكران وباتا على لقاء موعود . والتقيا بالموضع المعروف بكورشنبه . وصدقا الوثبة . وكانت الدبرة فى الاول على عسكر فارس . فاصبحت فوارسه فرائس . وأسر منكوبرس وأمر السلطان بقتله بين يديه . وكان شجاعاً كريماً فاسفت القلوب عليه . وكان الامير بوزابه من أعظم أصحابه . وأنخم اضرابه . فلما رأى الهزيمة . أجلت عن الهزيمة . قال « اذا سلمنا فقد أبنا بالغنيمة » وحسب أن منكوبرس ناج . ولم يدر أن نعيه له مفاج . فلما نعى اليه صاحبه . ضاقت به مذاهبه . وحلف أنه لا يبرح حتى يأخذ بثاره . ويستقيل من عثاره . فعطف على معسكر السلطان مسعود وقد أمن . ووفى له النصر بما ضمن . والمضارب قد شيمت . والمضارب قد أقيمت . والسوابق قد أريحت . والسوابغ قد أزيحت . فبيناهم فى أغفل حالة اذ هجمهم بوزابه واستخرج كل أمير من مضربه . وسد على كل كبير طريق مهربه . وركب السلطان مسعود فأبلى بلاء حسناً . ولم يترك

فى الدفاع عن مهجته ممكنا . ثم ولى ومعه قرا سنقر هزيماً تشله الرماح . هشيما تذروه الرياح . وحصل فى قبضة بوزابه اثنا عشر اميراً منهم صدقة ابن دبيس بن صدقة المزيدى والامير عنتر الجاوانى والامير الحاجب الكبير ارغان وآتابك سنقر صاحب زنجان ومحمد بن قرا سنقر وجماعة آخرون وما منهم الا من قد ه . وأراق دمه . وشفى وتره . ووفى نذره . وذلك فى أواخر سنة ٥٣١

ثم قفل بوزابه الى فارس واستولى على مملكتها . واستقر في ولايتها . وعاد السلطان الى سريره . مسلما لقضاء الله وتقديره . وهو الغالب المغلوب . والسالب المسلوب . وقد بددت عقود سلكه . وبادت سعود ملكه . فجلس لما تم فى المأتم . وعاد الى ما ثم من عادة المأثم . واتخذ سواهم ندماء . ورفع غيرهم امراء

قال : وفى اثناء هذه الفترة كان خروج السلطان داود ومعه الراشد فجرى ما جرى واستشهد الراشد . وانعكست على داود المقاصد . وتمهدت لمسعود القواعد . واتصل بعد ذلك الملك سلجق بأخيه السلطان مسعود فاقطعه بلاد سكمان من خلاط وأعمالها ومنازكرد وارزن واضاف اليه الامير غزْ أُغلى السلاحي مقطع تبريز فقصدها واستصفاها . فاستخرج اموالها واستوفاها واوسعها سبياً وتخريباً . وسام أهلها ظلما وتعذيبا . ومازالت الدولة مضطربة والفتنة مضطرمة . وأيدى الظلم عائثة . والسن الذم عابثة . حتى استجد السلطان وزيرا . استجاد لمملكته تدبيرا . وحكم وأحكم . ونقض وابرم . وهو الوزير كمال الدين محمد بن على الخازن من اهل الرى قال : وكان السلطان استعجز العماد أبا البركات . ووجده فى تسكين الخطوب عديم الحركات .

فصرفه الى بيته على اجمل وجه . ولزم موطنه على رفق ورفه . ولم يفلت وزير كافلاته . وكانت الليالي بالسلامة كافلاته . وشغلته العطلة بصومه وصلاته

وتولى الوزارة كمال الدين وكانت وزارته فى سنة ٥٣٣ ببغداد وفى ديوان الاستيفاء كمال الدين ثابت وفى منصب الاشراف المهذب بن ابى البدر الاصفهانى وفى كتابة الانشاء ولى الدين المعروف بسياه كاسه وفى منصب الطغراء مؤيد الدين المرزبان بن عبيد الله الاصفهاني فانشرحت الصدور . وانتظمت الامور . ورتب الوزير لخزانة السلطان أموالا تحمل اليها . وجهات توفر عليها . وأحيي معالم للملك قد دثرت . ونظم عقودا للمصالح انتثرت . وابتدأ بكسر الجبارين وجبر المنكسرين . وقرر مع السلطان سرا . ان ينوى لقرا سنقر شرا . وبذل لقرا سنقر فى وزيره عز الملك أبى العز البروجردى خمسمائة الف دينار على انه يسلمه اليه . ويسلط يد الاقتدار عليه . فاعرض عنه . وما قبل البذل منه . وبخل بصاحبه لمحض الكرم . وما اسعد من اختار الصاحب على الدينار والدرهم . فلما ايس منه اخاف السلطان من عواقبه وقال له «لا يجمع فى غمد سيفان . ولا يظهر لك مع تسلطه قوة السلطان » وقرر معه استدعاء بوزابه من فارس ليفرسه به . ويجر الخلاف الى مذهبه . فاستوحش سر قرا سنقر فاضمر الكيد . واعمل الايد . فاستدعى الملك سلجق ووعده بان يمضى معه الى فارس ويستخلصها لاجله وحمل أيضاً على النهضة معه داود بن محمود وآتابكه اياز وكان من صنائع قرا سنقر

ورحل قرا سنقر عن آذربيجان نحو السلطان مسعود الى همذان ومعه الملكان ومعه من العساكر عشرة آلاف فلما قرب انفذ وزيره عز الملك

البروجردى الى السلطان رسولا . وتحدث معه وقرر سولا . وحمله منه ومن الملكين ومن جماعة الامراء كتبا مضمونها « انا لانأمن جانب الوزير الكمال . وانا لانصبر على ما يبدو منه من الاعمال. فاما ان تعدمه . واما ان تسلمه . فان دفعته الينا فنحن طائعون . وان دافعت عنه فنحن عن انفسنا مدافعون » فلما سمع السلطان ماقالوه . استقالهم فما أقالوه . فحار فى تدبيره . واضطر الى تسليم وزيره . فقبض عليه وسلمه الى الحاجب تتار فاوقع به التبار . وضرب عنقه وذلك في شوال سنة ٥٣٣ فحينئذ وصل قراسنقر ومعه الملكان سلجق وداود الي الخدمة السلطانية . وحمدوه على اتباع تلك الهمة الشيطانية . ورتب قرا سنقر الوزير مجد الدين عز الملك ابا العز البروجردى في وزارة السلطان مسعود وكان شيخا ذا بهجة وبهاء . ولهجة ورواء . ولم يزل مذ عهد السلطان محمد متصرفا مع اكابر الامراء لم يبطل ومتحليا بالولاية لم يعطل . وما زال متدرجا فى الولايات حتى بلغ الوزارة ووجد بعد النزارة الغزارة . فانه كان فى ريعان عمره يخدم شاكردا . ويستعذب فى كل اوان فى خدمة وزير وردا . فتمول الاموال وملك الاملاك وقيل انه كان يجرى فى ملكه ايام وزارته اربعمائة قرية

قال : فنكب الكمال ثابتا المستوفى وقبضه وأعدمه وقيل انه خنقه . واذهب بذهابه بهجة الملك ورونقه . وتولى منصب الاستيفاء بعده المهذب ابو طالب بن ابى البدر ولم يلبث فى منصب الاستيفاء شهرا حتى اختنق بدره فى السرار . وانتقل من هذه الدار . الى تلك الدار . وتولى مكانه ديوان الاستيفاء الكمال ابو الريان الاصفهاني قال : وهؤلاء الذين تولوا الاستيفاء كلهم كانوا من صنائع العزيز وتلامذته وكان فى ديوان الانشاء سعد الدين

الخراساني . وفى منصب الطغراء مؤيد الدين المرزبان بن عبيد الله الاصفهانى فاما آتابك قراسنقر فانه لما قتل الوزير كمال الدين محمد الخازن وجلس وزيره في وزارة السلطان رحل بالملكين سلجق وداود الى بلاد فارس فلما عرف بوزابه حضورهم لجأ الى قلعة كل وكلاب وهى بين خوزستان وفارس ودخل الملك سلجق مدينة شيراز وجلس على سرير الملك بها مسرورا . ونظم من المصالح ماكان منثورا . وغفل عن القدر فأنس بملكه مغرورا . واراد قراسنقر ان يخلى عنده عسكرا يحمى حماه . ويعدى على عداه . فحمل الامير غزاغلى السلاحى وهو مقدم عسكر سلجق حب التفرد والتوحد على اظهار الغنى عمن يجده . وانه لاحاجة به الى من يسعده . فقال لقراسنقر « انا ما احتاج الى احد . ولا افتقر الى مدد » فاستحسن قراسنقر منه هذا العزم وترك الحزم . فصار غزأغلى مستقلا . وسار قراسنقر مستقلا . ومضى صوب خوزستان . ليعبر منها الى همذان . وسرح الملك داود جماعة من العسكرية على طريق سواها . للمنية التى نواها . فلما وصل الى عسكر مكرم لم يوافقه الهواء الخوزى فوقع فى القوم وفي دوابهم الموتان . وعجزت القدرة وتعذر الامكان . فاقام على تلك الصورة . بحسب الضرورة

واما الملك سلجق فانه ظن انه ملك . وان خصمه هلك . وان بوزابه على كل حال مملوك لايقدم على الممالك . وانه انما فر لانسداد المسالك . ورجا أيضا من غزأغلى اتابكه انه لايخل بالتيقظ . ولا يخلى ما يجب عليه من التحفظ . وكان الامر بالعكس . وسقم حاله على النكس . فان آتابكه اشتغل بالاكل والشرب . واللهو واللعب . فبيناه كذلك اذ هجم عليه بوزابه وعلى الملك سلجق فقتل وفتك . وأسر وأوثق . ولم ينج من العسكر الا

القليل . ولم يعرج على الخليل الخليل . وقبض سلجق وحمله الى قلعة اسفيذدز وكان ذلك آخر العهد به . ولم يشك احد فى عطبه . فتمكن بوزابه من ملكه وجري على المراد مدار فلكه . واستشعرت الملوك مهابته . وتجنبت الاسود غابته . فلم يركض الى فارس بعدها فارس . ولم ينل الفريسة بها غيره فارس . واما قراسنقر فانه لما انتهى اليه الخبر . وعلم انه لا قدرة له على دفع مانواه القدر . مضى على وجهه مولّيا . موليا ان لا يكون بعدها متوليا . فلما وصل الى برُوجرد صادفه الخبر بان مدينة جنزة وأعمالها قد خسف بها . وان الزلزلة قد هدمتها . وانها خربت حتى كأن الارض عدمتها . وان الكفار الابخازية والكرجية هجمتها . وقد باد من أهلها مقدار ثلاثمائة الف نفس فأمرّوا الباقين الامن احتمى بقلعتها . وآوى الى ثلعتها . وذلك مع تشعث سورها . وتهدم دورها . وان الاموال نبشت . وان الخبايا فتشت . فأغذ قراسنقر السير اليها وكان إيوانى بن أبى الايث لعنه الله مقدم عسكر الابخاز قد قرن بالزلزلة الزلازل . وبالنازلة النوازل . وكان قد حمل باب مدينة جنزة وبنى مدينة سماها جنزة وعلق عليها ذلك الباب . واغتنم غيبة قراسنقر عن البلاد فسامها العذاب . وذلك في سنة ٥٣٣

فلما وصل قراسنقر عادت دولة الدين . وعادة النصر والتمكين . وظهر أهل التوحيد على أهل التثليت . ونعش الطيب بعثار الخبيث . ووافعهم قراسنقر فهزمهم وثلمهم . وقتل منهم مقتلة عظيمة وخرب البلدة المستحدثة وأعاد باب جنزة اليها وأعادها فى العمارة الى أحسن حالاتها . وأجمل هيآتها . وكان من جملة من هلك بها زوجته بنت الامير أرغان وأولاده فاستولى عليه الهم وعلق به السل . وبقى مدة يتداوى ولا يبل . وتوفى سنة ٥٣٥ بأردبيل

فأكثر المسلمون عليه العويل . وعدموا عنه البديل . قال : وكان لما اتصل به أجله . وانقطع عن الحياة أمله . أحضر جاولى الجندار ونصبه مكانه . وسلم اليه ابنه وجنوده وسلطانه . ووصى اليه بقطع دابر الكفار . ومواصلة برّ الابرار . فتولى ولايته . ووصل بنهايته بدايته . وأنفذ اليه السلطان مسعود الخلعة والعهد . وأجزل له العطاء والرفد . وقرر عليه جميع أعمال قراسنقر بأرّانية وآذربيجان . وولاه ثلاث المعاقل والمدن والبلدان . ونهض الامير جاولى فى السنة الثانية الى خدمة السلطان فقبل البساط وبسط له القبول . وعرض هداياه وتحفه وطرفه والحمول . فضاق الفضاء الواسع بمضارب جنوده . وخفقت القلوب لهيبة خوافق بنوده . واتصل بالامير عباس صاحب الريّ . ونشر من المودة بينهما ما كان فى الطيّ . وتوافقا وتواثقا ونظمتهما طاعة السلطان فى سلك المصافاة

وكان الامير عباس من مماليك جوهر خادم السلطان سنجر والريّ فى أقطاعه وقد نفذه اليها والياً . وكان أمره بها عالياً . فلما قتل صاحبه بفتك الباطنية به ثار عباس للثار وجدّ فى طلبه واستولى على الريّ وأعمالها . وتفرّد بحيازة أموالها . وقوى على السلطانين سنجر ومسعود . واستظهر بمن معه من جموع وجنود . وبمن اتصل به من مماليك الامير الاجل صاحبه وكانوا زهاء أربعة آلاف فى عدد كثير . وجمع كبير . وقصر عزمه على قصد الباطنية وكبسهم فى مواطنهم . وبيتهم فى أماكنهم . وقتل منهم مدة ولايته أكثر من مائة الف حتى بنى من رؤسهم بالريّ مناراً أذن عليه المؤذنون . وأخاف القوم فما كانوا فى عصرهم يأمنون المنون . وكان ذا همة كافلة للرعية بالمعونة فرضى السلطان بايالته . وأقره على ولايته

ولما اتصل جاولى الجاندار بخدمة السلطان وجده حاضراً . والفى روض الرضى به ناضرا . وكان الامير الحاجب الكبير فخر الدين عبد الرحمن بن طغايرك الحاكم على الدولة . المهيب الصولة . وكان وسيما جسيما . للسلاطين قسيما . لا يرى الا برأيه . ولا اجابة الا لدعائه . وكان الامير بك ارسلان خاصبك بن بلنكرى أخص الناس بالسلطان وأعلقهم بقلبه . قد اختاره منذ شعف به على صحبه . ولما كبر كان أكبر الامراء . وأعظم الكبراء . واجتمع هؤلاء الاكابر تلك السنة بالحضرة . والدنيا بالنعيم لهم بادية النضرة . وحمل فخر الدين عبد الرحمن بن طغايرك الامير عباسا على مباينة عز الملك الوزير . ومعارضته فى التدبير . وأطمعه في تولية نائبه الجمال الجاجرمىّ فى الوزارة وكان شابا مقبول الحركة . مأمول البركة . يرجع الى توسع فى المرُوءة . وترفع فى الفتوّة . فاستحكم طمعه في المنصب وقوى قلبه بمساعدة الاميرين عباس وابن طغايرك فتحمل وتجمل . وجد وجاد . واستجد واستجاد . وقرب أن يتم مراده وكاد . فتعصب الامير جاولى للوزير عز الملك . وأعاد نظم جاهه الى السلك . وساعده خاصبك على مساعدته فاستقام أمر الوزير وأجمع الجميع على ابقائه . واتفقت الكلمة على انه لا مضاهي له فى مضائه

ورحل السلطان الى بغداد رحلة الشتاء . واستصحب جماعة الامراء . وعاد عباس الى الرىّ . قال : وأنا أذكر وصولهم الى بغداد فى هيبة عظيمة وهيئة وسيمة في سنة ٥٣٦

قال : وخطب جاولى بنت عبد الرحمن بن طغايرك وتمت بينهما المصاهرة . وتأكدت ما بينهما المظاهرة . وعاد جاولى الى بلاد أرّانية وآذربيجان

مشتد الامر . قوى الظهر . مستبشرا بما تأكد بينه وبين الامير الحاجب الكبير عبد الرحمن من عقدى الوصلة والاخوّة . وأقام السلطان ببغداد تلك الشتوة . متوفرا على نيل الطرب وقضاء الشهوة . مستهاما بادناء الدنان . واقتناء القيان . وتقريب المساخر . وابعاد ذوى المفاخر . متكلا على السعادة فى دفع الاعداء فانه لم يزل كاسمه مسعودا . ولم يتصد لمعاداته الا من كفى الله شره فاصبح عنه مصدودا

قال : وكان الامير سعد الدولة يرنقش الزكوىّ من أكابر الدولة وقدمائها . وأكابرها وعظمائها . ومتولى وزارته يمين الدين المكين أبو علىّ العارض . وله الفضل المستفيض والافضال الفائض . وكان سعد الدولة يرنقش متولى أصفهان والامير غلبك نائبه وسعد الدولة للمعسكر غير مفارق . ولما لا يوافق رضاء السلطان غير راض ولا موافق . فكانت أبهة الملك بمقام أبهته قائمة . ونصرة الاقبال بدوام نظر اقباله دائمة . وكانت الخدام الحبوش . لهم الجيوش . والاسرة والعروش . منهم نجم الدين رشيد من مشايخهم وأكابرهم وجمال الدين اقبال الجاندار وشرف الدين كردبازو ومسعود البلالىّ ودونهم فى الرتبة عماد الدين صواب وشمس الدين كافور وأمين الدين فرج الدوويّ وأمثالهم وهم عصبة فيهم عصبية على الشافعية . ويتقربون الى الله بما يوصلون اليهم من الاذية . ونكبوا أصحاب الشافعىّ بانواع البلاء فى جميع البلاد . وخصوهم بالطراد والابعاد . وحاولوا إخفاء مذهبه فتمالى ظهوراً . وأرادوا إطفاء نوره فما زاده الله الا نوراً

قال : ونكبوا رؤساء المذهب فى كل بلد . ولم يبقوا منهم على أحد . فمنهم أبو الفضائل بن المشاط بالرى ومنهم أبو الفتوح الاسفرائنىّ ببغداد

ومنهم بنو الحجندى باصفهان ودخل فى مذهب ابي حنيفة جماعة طلبا للجاه. وخوفا منهم لا من الله . ومن جملتهم القاضى عمدة الدين الساوى . قال : وكان وزير الخليفة المقتفى لما تولى شرف الدين على بن طراد الزينبي وكاتب الانشاء سديد الدولة بن الانباري وصاحب المخزن كمال الدين بن طلحة وتزوج الامام المقتفى بأخت السلطان مسعود فاطمة خاتون . وعزل شرف الدين الزينبى عن وزارة الخليفة فى سنة ٥٣٤ وسببه انه استشعر فمضى الى دار السلطان بها معتصما ثم لزم بعد ذلك داره محترما وتولى الوزارة نظام الدين ابو نصر بن جهير وكان الاستيلاء بالعراق لاصحاب السلطان . وليس لاحد بكفهم يدان .

قال: وفى سنة ٥٣٥ خرج الكافر الخطائى واستولى على ماوراء النهر . وكسر السلطان سنجر اشد الكسرة ووقع عظماء مملكته فى الاسر . وفى سنة ٥٣٨ قتل السلطان داود بن محمود بن محمد بن ملشكاه بأيدى الملاحدة بتبريز غيلة . وعاش أيامه من شريد الدهر شريداً ولم يسترح ليلة . وكان قد زوجه السلطان مسعود بنته وأقنعه بتبريز ملازما لبيته . قاعدا فوق تخته تحت بخته ولما خانته فى المبدأ السعادة . ونمت له في العاقبة الشهادة . وقيل ان الامير زنكى بن آق سنقر وضع عليه من حشيشية الشأم من نتك به . فأمن على بلاده بسببه . وذلك ان السلطان مسعود كان قد عول علي أن يسير داود الى الشأم . ويحفظ به ثغور الاسلام . ففزع زنكى وجزع . وسقط فى يده من حديث الحادث الذى وقع . وخذله الايد . ولكن نصره الكيد . ووصل خبره الى بغداد فعقد له فى دار الخلافة مجلس العزاء ثلثة أيام بحضور أرباب المناصب . وعدت المصيبة بقتله من أفجع المصائب

وفى سنة ٥٣٩ رحل السلطان مسعود الى أصفهان . وكانت دار السلطنة

قد تشعثت فشد منها الاركان. وتغير رأيه في الوزير عز الملك البروجردي فعزله. ولم يستبق العزلة واستصفى ماله. وشغل بوباله سردوباله. واستوزر مؤيد الدين المرزبان بن عبيد الله الاصفهاني ونقله الى الوزارة من الطغراء وكانت له زوجة من جواري مسعود تركية سليطة متسلطة. حاكمة عليه متبسطة فتسلم عز الملك وسلمه اليها فخنقته. بعد ماعذبته وعلقته. فقتل مثل القتلة التي قتل بها الكمال ثابتاً. وكل من كان حاسداً له على منصبه عاد شامتاً. وكان عز الملك البروجردي شيخاً بهيجا بهيا قد جاوز الثمانين سنة ومع شيخوخيته يقطر ماء النضارة من محياه. وكان في السعادة سعيداً في محياه وكان في أيام وزارته مرهوب الغرار. مشبوب النار. وكان نائبه في الوزارة نجيب الدين عبد الجليل السهم المصيب. والشهم المهيب. والسيف الذي يفري. ويقصل ويبري ويفصل بت الاصول ويستأصل البيوت. ويستنزل من الجو العقاب ويستخرج من قعر البحر الحوت. وقد ضربوا على بغداد الضرائب. ومكسوا المكاسب

قال: وكان رضي الدين أبو سعد مستوفى السلطان. البعيد من الشين البديع الشأن. ممن ينفشاه والدى بسبب خدمته لاخيه العزيز فى أيامه. وكان ربيب انعامه. وكان من أوسع صدور ذلك العصر صدراً. وأقلهم شراً. وكان نائبه كمال الدين أبو الريان الاصفهاني من تلاميذ عمى العزيز وغلمانه. ولم يكن أعرف منه بقانون الاستيفاء فى زمانه. لكنه كان خاليا من الادب. عاليا مع نقصه فى أكمل الرتب. وهو صورة بلا معنى. وحسن بلا حسنى. وبرق بلا وابل. وطول بلا طائل. وكان عز الملك الوزير مع جهله وشدة بخله. ربما نسمت له ريح أريحية. وسمت بنفسه روح

تحية . ومن جملة ذلك انه كان بالعراق عميدٌ رازيٌّ تولى سنة . واكتفى ثروة . واستقنى واستغنى . وحبا وجنى وخبى . فلما جاء السلطان قيل له « اعمل حسابك » فأحضر المشرف وكان يعرف بابن الحكيم من أهل بغداد وقال « أريد ان تدع المكر منك . وتدعو مكرمتك . وتهتم بأمري وتستأمر همتك . وتحسّن الحسبة . وتحتسب الحسنة . وتكف بكفايتك عني الايدى والالسنة » فقال المشرف « انا لا اجسر ان استر . ولكل ما اذكر لابد ان اذكر . وعليّ ان اخفى كثيرا مما خفى من الجنايات والجبايات . والاجتذابات والجمالات . ولا بد ان اجمع ما أخذته من المرافق الوافرة . والفوائد الظاهرة » واتفقا على اسقاط مبالغ حتى تقرر ذكر خمسين الف دينار فبذل له الفى دينار على انه يذكرها فى الحشو ولا يبرزها لعل الوزير يغفل عنها . ولا يؤاخذه بسببها . فأبى الا ايرادها . وتخصيصها بالذكر وافرادها .

قال : عماد الدين حدثنى المشرف بن حكيم قال : دخلنا بالحساب الى الوزير عز الملك فأول ما وقعت عينه فى المجموع . على المبلغ المرفوع . فقال ماهذا فقيل الرسوم التى اخذها . والمرافق التى اجتذبها . فضرب عليه بقلمه وقال « كيف تجيزون ان تجمعوا عليه ما ارتفق به من رسومه وخدمه . هذا بقى على الباب سنتين يتدين ويموّن . فلما شفى ألم أمله . ورفع علم عمله . صار له معلوم . وحصلت له رسوم . فليس من المروة ان نستعيدها وما فوض اليه الشغل الا ليستفيدها » قال : فخرجنا نسحب اذيالنا انا للخجل . والعميد للجذل . وقد رُدّ الى العمل . فأخذ بيدى وناولنى صرة فيها ستمائة دينار وقال « هذا ما جعلته باسمك . وما ضرتنى أمانتك . فاجر فيها على رسمك »

قال : ولما جلس مؤيد الدين المرزبان في الوزارة بدأت الامور في الاختلال . والعقود في الانحلال . وكان قد قنع من الوزارة باسمها . ومن المرتبة برسمها . وكان يروق الناس ببشر المحيا . ويروقه الانس بشرب الحميا لا ينافر الا الغواني ولا ينافث الا الاغاني . وكان وزراء الامراء قد غلبوا على امره . وبلغوا الى قدره . فما له قول مسموع . ولا طول متبوع . ولا هو مشكور ولا مشكوّ . ولا مخشي ولا مرجوّ . وخاصبك بن بلنكرى هو الآمر الناهي . وهو داهية من الدواهي . وكان وزيره رئيس الدين ابو تغلب بن حماد السهروردي المبيق بريا لرياسة . الابيق برأى السياسة . قد استولى على الامر واحتوى . وتمكن من ورد الملك وارتوي . وكل أمر لاينفذه لاينفذ . وكل حق لايؤخذه لايؤخذ . وكان كصاحبه مسعودا مصحوبا بالسعادة . ممدودا من المال والجاه بالزيادة

قال : وكانت قد تأكدت بين الامير عباس صاحب الري وبين الامير بوزابه صاحب فارس صدقة صادقة . ومودة أحوالها الحوالى متناسقة . فطمعا في المملكة وزعما ان البركة في الحركة وقالا « ان العرصة خالية . والفرصة بادية . وهذا وقت الارتماء الى العرة . والامتراء للدرّة » فكتب بوزابه الى السلطان انى واصل الى خدمة السرير وخرج من شيراز بالملكين محمد وملكشاه ابنى السلطان محمود بن ملكشاه وخرج عباس من الرى بالملك سليمان أخي السلطان مسعود وكتب أيضاً « انني واصل الى جنابك . لملازمة ركابك » فحمل السلطان قولهما على الظاهر . وخاف ما خفي في الباطن من الباطل . وعرف ان أمره معهما غير مستقيم . وانه ان رحلا اليه فهو مقيم . فكتب الى جاولى الجاندار يستدعيه فوجده متجنيا متجنبا بالقبض

على الوزير عز الملك من غير مشاورته . وقلة اكتراثهم به وترك مراقبته في مصادرته .

فلما شعر السلطان بتأخره استشعر حذره وورى عن الهزيمة برحلة الشتاء الى بغداذ . وحث السير بالاغذاذ . ومعه من الاكابر عبدالرحمن بن طغايرك وخاصبك بن بلنكرى ووصل بوزابه وعباس الى همذان على ظن انهما يجتمعان بالسلطان . وهما مبديان للطاعة مخفيان للعصيان . فاقاما بها شاتيين واتصل بهما الامير ناصر الدين خطلبة البازدارى وكان ليثا خادرا . وقسورا قاسرا . وكتبوا الى الامير جاولى الجاندار بآذربيجان وقالوا له « انت الكبير . لك التدبير . ونحن اتباعك واشياعك فان قدمت الينا . قدمت علينا . وكنت صاحب جيوش من ينتصب على سرير الملك . وانخرطنا معك طائعين في السلك » فرد جوابهم بجميل واعاد رسولهم بتأميل . واشتغل بحشد الجموع وجمع الحشود . وحشر الجنود ونشر البنود . واتصل به أتابك اياز وكان آتابك داود في حياته وهو مشكور الغناء في مقاماته . وعضده الامير شيرين آق سنقر فاظهر حينئذ النهدة الى همذان . والنهضة الى الناهضين المتسلطين على السلطان . فوجد الطريق مسدودة بالثلوج . فأقام بعسكره مجمعا . وللنهوض عند انحساء الثلوج مزمعا . وتطايرت كتبه الى بغداد لاستدعاء السلطان اليه . واستقدامه عليه . والسلطان في بغداد ساه بسهوه . لاه بلهوه . زاه بزهوه . فلما تنبه من وسنه . ندم على خلع رسنه . ورجع من الحزم الى سننه . ولبى نداء جاولى واجاب دعوته . وعزم على الرحيل اليه وسار على الدربند القرابلي الى المراغة في أوعر طريق . وأعسر مضيق . حتى اتصل بالامير جاولى فكثف من العدد الجم . وكثر من العدد اللمم .

واعجب السلطان الحال وحل به العجب . وانقلب الى القوة وقوى منه القلب .
فحسدت الجماعة جاولى وغبطوه . وتحيلوا فى أن يقبضوا عليه ويربطوه . فان
ابن طغايرك مع مصاهرته له كان بامكانه متبرما . وكذلك خاصبك كان
من استيلائه متوهما . فاجمع الامراء واحتالوا لاغتياله فى سرادق السلطان
فاطلع على السر ووقع على مكر المكر . فاحترز منهم وتقبض عنهم واراد
أن يبطش بهم كما أرادوا البطش به . ثم جرى فى الحلم والكرم على حسب
مذهبه وقال للسلطان «أنا لى مناصحتك . وفى منى صحتك . ولا يجمعنى واياك
بعد هذا ناد . ولا يسمع تلبيتى فيه مناد » فما اجتمع السلطان وجاولى بعد
ذلك الا راكبين . منفردين عن العسكر متجانبين . وقال للسلطان « ان اردت
تدانى امني . فتباعد عنى ودعنى انهض بعساكري الي اعدائك واذكرهم
بحقوق نعمائك فان أتوا قبلتهم . وان أبوا قتلتهم . وان اتبعوا سررتهم . وان ساروا
تبعتهم » فاعتذر اليه السلطان واستماله . واستعفاه من ذكر ماجرى واستقاله .
وحكمه فى الحل والعقد والاقطاع . وامر الجند والامراء بالائتمار لامره
وسر بسرور سره . وشرع جاولى فى مكاتبة الملك سليمان وخدعه . ورده عن
المقام مع القوم وردعه . وتوثق له من السلطان بيمين . وسير نسخة امان له
مع أمين . ففارقهم . وانفصل وانفصم عنهم . ووصل أيضاً خوارزمشاه يوسف
واخوه . فاتبعهما للتوجه الاعيان والوجوه . ولما عرف بوزابه وعباس تعذر
ماحاولاه . وتعسر مازاولاه . وتفرق الجند الذى جمعاه . تفارقا على مواعدة فى
معاودة الجمع . وودعا على موادعة مودعة للطاعة والسمع . وعزم كلاهما على
الرجوع الي بلده بنية الرجوع . والغروب فى أفقه على استئناف الطلوع

وكان السلطان عند اتصال أخيه سليمان بجانبه . واستظهاره بكتائبه .

علم ان بوزابه وعباسا يفترقان . وانهما يعدان بانهما يعودان . فرحل بالعسكر الى مدينة سجاس مع جاولى على عزيمة الاسراع والاتباع . والسلطان وخواصه على حالة من الارتياب والارتياع . فقال لجاولى «انهض انت وراء بوزابه فالعسكر والشوكة معه . والرأى مسيرى الى الرىّ لالقى عباسا واقمعه» فمضى جاولى الى همذان ومحمد مسعود نحو الرىّ . فحصل من وردها بالرىّ وغنى بالسعادة عن استعمال المشرفى والسمهرى . وقبض سليمان شاه اخاه وحبسه في قلعة سرجهان . وتلقى ماصعب بالاحتمال والاحتماء فهان

ولما علم بوزابه ان جاولي جاء ولىّ وخلّى همذان وترك اثقاله وخزائنه بها وسار فسار جاولي وراءه جريدة . وقطع حتى وصل الى القرب مراحل بعيدة . فلما دنا منه ابدي البقيا عليه . واسدى الحسنى اليه . وقال «اتخذ اليوم عنده يدا . لينجدنى عند الحاجة غداً . فهذا السلطان غير موثوق بمواثيقه ولا موفق فى تسديده وتفويقه» وذكر غدرهُ باخيه سليمان شاه فكتب الى بوزابه وهو على حد الهزيمة كتابا مضمونه «انى مصدقك ومصادقك . وموافقك لا مفارقك . وخاطب حبك . وطالب ودك . وقد صرت من حزبك . وما سرت لحربك»

وفاعتمد بوزابه على قوله واعتد بطوله . وملأ ايدى الرسل بالايادى ارسالا . وقال حسنا وحسّن مقالا . واعاد ما كتب بما كبت الاعادى . وذكر «انى اجبت الداعى ولبيت المنادى . ولم يبق الآن الا التعاهد على الجد . والتساعد على العهد . وعلامة صدقك فى صداقتك انى خلفت خزائنى ثلاثين وقرا من المال الصامت بهمذان فى دار الاثير أبى عيسى فان رأيت ان تأخذها فخذها . وان سمحت بانفاذها فانفذها . لتعلم انى مستوثق منك بشفيق

مسترفق لشقيق » فعاد جاولي الى همذان وتسلم من الاثير ابي عيسى المال .
وسير على جماله تلك الاحمال . وندب معها مائة فارس من عسكره الى اصفهان
وكتب الى الامير غلبك واليها أن يضم لحفظها الي فرسانه الفرسان . فلما
وصلت خزانة بوزابه اليه عقد على الود الخنصر . وزكى فى الوفاء والوفاق
منه العنصر . وتعاقدا على المعاهدة . وتعاهدا على المعاودة . وابن بوزابه يأتى
بالملك محمد بن محمود متى أراد . وان يجعلا همتهما الجمع والاحتشاد . وعاد كل
واحد منهما الى مركزه . واحتمى على السلطان بتعززه . وتأكدت بين
جاولي وبين السلطان الوحشة . ودبت الى أعضاء المملكة بسبب فتور
اعضادها الرعشة . واعتلت العقائد . وانحلت المعاقد . ولما تمادي الامر .
تبدى السر ووقع الشر . فانفذ جاولي الامير تتار الي بوزابه بفارس يستنجزه
الوعد . ويستنجح منه القصد . وأقام بميانج ومعه جميع أكابر الامراء
والرسل تترى منهم الى الامير تتار لاستحثاث بوزابه بالاستدعاء

وأقام جاولي مدة ينتظر . وفى تدبير الملك يفكر . فكان من قضاء الله
مالم يكن فى حسابه . ودنا الاجل الذي فى كتابه . وكان فخر الدين بن
طغايرك لما عرف توجه الامير تتار الي فارس لاستنهاض بوزابه شخص
اليه بنفسه من جانب السلطان ليصده عن الورود . ويرده عن الصدود .
وتمادى على جاولى المقام له بظاهر ميانج واجتمعت عليه العساكر العظام .
وازدحف اللفيف والتف الزحام . وكان فى اثنى عشر ألف دارع وكانت معه
عساكر ارانية وأرمنية تخيم على زنجان . وحتم على عزم همذان . وكان بيدايده
زمام الزمان . وهو أصم عن حديث الحدثان . وكان قد افتصد . لغير مرض
عرض . ثم تصرف على عادته بيده فبسط وقبض . ونزع فى قوس فتألم عرقه

فتألم عرقه وتورم . ودجا أفقه وأظلم . وكان سريان الورم من شريانه . وصعد فيه الدم بعد جريانه . وتجاوز من عرقه الى حلقه وصدره . وانتقل الى بطن الثرى من ظهره . وكانت وفاته بزنجان فى جمادى الاولى سنة ٥٤١ وفى ذلك يقول زين الدين المظفر بن سيدى الزنجانى من قصيدة

عشرون الف مهند قد أصلتت   فلت مضاربها نكاية مبضع

وقيل ان فى الليلة التى توفى فيها جاولى جندار قتل زنكي بن آق سنقر بالشام . وكان كلاهما قطباً يدور عليه فلك الاسلام

قال : والصحيح ان زنكى بن آق سنقر قتل فى شهر ربيع الآخر من السنة على قلعة جعبر قبل موت جاولى بايام . ولكن تدانى موتهما . وتنادى فوتهما . ومن قبلهما كانت وفاة سعد الدولة يرنقش ووفاة قزل أمير آخر وكان قد قتل من قبل ناصر الدين قتلغ ابه البازدارى فتقاربت مناياهم . وتبدلت نقودهم بنساياهم . وصاروا أسمارا . وعادوا اخبارا . ولما اخترم جاولى انحلت تلك المعاقد . واختلت تلك القواعد . وتفرق ذلك الجمع . وتشوش ذلك الوضع . وعاد كلُّ طائر الى وكره . وكل صاح الى سكره . وآمن السلطان من أمله . وأقبل اليه من قبله . وعاد الامير تتار الى السلطان ابوزابه متوسطاً . ولتمكينه مشترطاً . وكان ذلك برأي الامير الحاجب الكبير فخر الدين عبد الرحمن بن طغايرك وعملت سعادة السلطان عمله . وقدر الله له مالم يجر بخاطره أمله

قال : وحيث أجرينا ذكر زنكي بن آق سنقر وقتله بالشام في التاريخ

الذى توفى فيه جاولى جاندار بزنجان فانا نذكر جملة من أموره الى ان قضى الله عليه بمقدوره

ذكر زنكي بن آق سنقر فى آخر عهده

قال : كان جباراً عسوفاً . بنكباء النكبات عصوفاً . نمرىّ الخلق . أسدىّ الخنق . لا ينكر العُنف . ولا يعرف العُرف . قد استولى على الشام من سنة ٥٢٢ الى ان قتل في سنة ٥٤١ وهو مرهوب لسطوه . مجفوّ لجفوه . عادعات . حتف عداة ورعاة . لكنما ختم الله له فى آخر عمره بالسعادة وبالشهادة . ووفقه للجهاد الذى هو أفضل أركان العبادة . وهو الذى فتح الرّها عنوة . واحتل بها من السعادة ذروة . وذلك يوم السبت السادس والعشرين من جمادى الآخرة سنة ٥٣٩ فتسني بفتح الرها للمسلمين . جوس بلاد جوسلين . وعاد جميعها الى الاسلام فى عهد ولد زنكي نور الدين وصارت عقود الفرنج من ذلك الحين تنفسخ . وأمورها تتنسخ . ومعاقلها تفرع . وعقائلها تفترع . ثم ان زنكي بعد فتح الرها نزل على حصن البيرة وهى على الفرات . وهو مشحون بالفرنج العتاة . فجاءه الخبر بان نائبه بالموصل وهو نصير الدين جقر قتل . فترك الحصار وارتحل .

ذكر مقتل جغر نائب زنكي بالموصل

قال: كان مع زنكي ملكان من أولاد السلطان محمود بن محمد بن ملكشاه أحدهما يسمى الب ارسلان وهو في معقل من معاقل سنجار. والآخر يسمى فرخشاه ويعرف بالملك الخفاجيّ وهو بالموصل. وكان هذا الملك مسلما الى الامير دبيس بن صدقة فانتزعه منه زنكي في حرب. وأنزل من اكرامه في منزل رحب. وكانت الخاتون السكمانية زوجة زنكي تربيه وتبريه. وتجرى به في حلبة تجريبه وتجربته. حتى بلغ وأدرك. وساكن فطنته تحرك. وفهدته المرأة غير مرة وأنهدته. وعاهدته على الوفاق وعلى الوفاء عهدته. وتأسد الشبل وضاق به عرينه. وشمخ عرنينه. وكان نصير الدين جغر نائب زنكي بالموصل للدماء سفاكا. وبالنفوس فتاكا. يأخذ البرىء بالسقيم. ويلحق الولود بالعقيم. وقيل انه لما أحكم سور الموصل. واحترز بالحفظة منه على المخرج والمدخل. وأعجبه كمال احكامه. وملاك أحكامه. ناداه مجنون نداء عاقل وقال (هل تقدر أن تبني على الموصل سوراً يسد طريق القضاء النازل) فدار المنجنون بتصديق ما قال المجنون فانه لما أحس من الملك نحس الملك صار يقبض عنانه. ويبسط فيه لسانه. ويقول (إن عقل والا عقلته وان نقل طبعه والا نقلته) فسمع الملك ما راعه. وأسره في نفسه وما أذاعه. فقدر ودبر. وفكّر ومكر. وجمع اليه من حوله. وقال لهم فكتموا قوله. واتفقوا على انه اذا جاء الى سلام خاتون أو سلامه. أحيط به من خلفه ومن قدامه. فاذا أصابوا منه المقتل. ملكوا الموصل.

فركب نصير الدين بكرة على عادته . وهو يزعم ان ادارة الفلك بارادته . واخترق المدينة ووصل الى الدار التى فيها الملك للتسليم فملكت حشاشته حاشية الملك . وقطعت سلك حياته فى طريق الدهليز المنسلك . ومزقوه بسيوفهم ومزعوه . وضربوه بسكاكينهم وبضعوه . ونادوا بشعار الملك واركبوه . وذلك في أواخر سنة ٥٣٩ وتشوش البلد وخاف أهله العاقبة . وحذروا من زنكي سطواته المعاقبة . فخرج القاضى تاج الدين يحيي بن عبد الله الشهرزورى وجاء الى الملك وهناه . وسهل له الصعب مما جناه . وقال له « نحن قدامك . وقد صرنا مماليكك وخدامك . فسر فى المدينة واسلكها . وادخل القلعة واملكها » فركن الى قوله . وسكن بحوله . واحدق به الجند كانهم فى خدمته . وصوبوا له سداد عزمته . حتى صعد الى القلعة فأجلسوه فى المركز . وأحاطوا به احاطة الدائرة بالمركز . والتقطوا مماليكه من حواليه وأفردوه واحتاطوا عليه . ولم ير له بعد ذلك أثر . ولم يسمع له خبر . ولا شك انه بعد ما احتيل عليه اغتيل . وبعد ما استنزل أزيل

وولى زنكى الموصل بعد جغر زين الدين على بن بكتكين المعروف بعلى كوجك فنظم السلك ونهج المسلك . وتلافى واستدرك . ووصل زنكى بعد ذلك الى الموصل فاستصفى أموال جغر واستخرج ذخائره . واستنظف أوله وآخره . وصادر أهله واقاربه . وأحل بنوابه نوائبه . وسلبهم القوة والقوت . ونوع عليهم جوره الممقوت . ثم عطف زنكي على الملك الآخر الب ارسلان فاستخرجه من معقله . وعنى بتفاصيل امره وجمله . وضرب له نوبتية ونوبا . ورتب له فى حالتى جلوسه وركوبه رتبا . واغرى بتولى اكرامه وتوخيه . وغرضه خفاء ماجرى من هلاك اخيه . وقصد حصار قلعة جعبر وصاحبها

عز الدين على بن مالك بن سالم بن مالك ونازلها . وقابلها وقاتلها . وأحاط بسورها المعصوم احاطة السوار بالمعصم . وربض على ربضها فى مجثم المخيم . ولج فى الحصار وهو مستظهر بالانصار . مستنصر بالاستظهار . ومتكثر بالاستمداد معتد بالاستكثار . مغرور بالدهر . مسرور بالقهر . يظن ان القضاء بحكمه . وان القدر خصم خصمه . وأهل الحصن قد اشفوا منه على الدامغ الدامر . وقد بلوا من وبل وباله بالهامل الهامر . فأتاهم الفرج من حيث لم يحتسبوا . ووافاهم الفرح من حيث لم يكتسبوا

وذلك ان زنكيا كان اذا نام ينام حول سريره عدة من خدامه . يشفقون عليه فى حالتى يقظته ومنامه . يذودون عنه ذود الآساد في ملاحمه ويزورونه زور الخيال فى احلامه . وهم من الصباح الروق . فى حسن الصباح لدى الشروق . وهو يحبهم ويحبوهم . ولكنه مع الوفاء منهم يجفوهم . وهم ابناء الفحول القروم . من الترك والارمن والروم . وكان من دأبه انه اذا نقم على كبير ارداه واقصاه . واستبقى ولده عنده وخصاه . واذا استحسن غلاما استدام مرؤديته بالخصى والسل . وفاجأه ووجأه بقطع النسل . فهم على انهم من ذوى الاختصاص . ينتهزون فيه فرصة الاقتصاص . فنام تلك الليلة اليهم مستنيما . وبالوثوق بهم مستديما . وهو صريع الراح . نزيف الاقداح فغلبه نعاسه وملكه رقاده . وحوله مماليكه مُرَّده ومراده . فانتبه وهم قد شرعوا فى اللعب . وأخذوا فى الشرب والطرب . فزبرهم وزجرهم . ومنعه السكر من الكلام حين أبصرهم . فحرك رأسه يتوعدهم . وهينم بلسانه يتهددهم . ولم يدر ان تحريكه للرأس سبب قطعه . وان نزوله على القلعة بالنازلة خاتمة قلعه . فتولى كبيرهم الامر والباقون ساكتون . وتحرك ورفقاؤه

سا كنون . وكان اسمه يرنقش نخف اليه . وبرك عليه . وفرشه على فراشه وغشيه فى غشاشه . وذبحه فى نومه . ولم يغن عنه ذب قومه . وخرج ومعه خاتمه . وهو لا يرتاب به لانه خاص زنكى وخادمه . وركب فرس النوبة موهما انه فى مهم . وقد ندب لكشف ملم . وأهل القلعة فى أضيق شدة وأشد ضيق . وكلهم لباس المطيف بهم غير مطيق . حتى أنام الخادم فتحدث بما احدث . فأشاعوا قتل زنكى من القلعة . وارتاع الناس لما هالهم من الروعة . وركبوا ولبسوا السلاح . ورقبوا تلك الليلة لامرهم الى الصباح . وزحف بعضهم الى خيمة جمال الدين محمد بن على بن ابى منصور فرمى بالنشاب وحصل من امره فى الاضطراب . فقصد من حماه من الامراء . وشاركه في تصويب الاراء . واتفقوا على ان يبادر نور الدين محمود بن زنكى الى الشام . للحوطة على ثغور الاسلام . فسار معه أولياؤه . وكبراء الشام وأمراؤه . وكبيرهم صلاح الدين محمد اليغبسانى وسار معه أسد الدين شيركوه . وانحازت اليه الاعيان والوجوه . فملك حلب . وبلغ المراد وغلب . وافتض الفتوحات الابكار . واستخلص من الكفار الديار

وأما الوزير جمال الدين محمد بن على بن أبى منصور فانه لما بعد عنه من كان يحذره . وعرف الامر ممن كان ينكره . ضم العسكر واستمال الملك الب ارسلان وأطمعه فى المملكة . وحثه على الحركة . وكاتب زين الدين على كوجك بالموصل على ان يستدعى سيف الدين غازيا اكبر أولاد زنكى وكان لا يفارق خدمة السلطان مسعود بأمر والده . امنا به من غوائل القصد ومكايده . فكتبوا اليه بالواقعة . واشاروا عليه بالمسارعة . فاتفق وصول الخبر اليه بشهرزور . وقد انفصل عن السلطان بدستور . فأغذ السير

واستعجل الخبر وسبق الى الموصل قبل وصول الجماعة . ولما عرف جمال الدين بوصوله سبق أيضا الى الموصل وبقى الملك منفردا فاستوحش . وتشور فى رأيه وتشوش . وركب صوب الجزيرة مفارقا . والى حلبة النجاة مسابقاً فسيروا وراءه من وثق بتوفير أمانته أمانه . وخيلوا له ان قد عاد القوم غلمانه . وان غازيا اذا كنت معه اخذ البلاد باسمك . وجمل الممالك برسمك . وما زالوا يحدثونه بالختر والختل . الى قلت القتل . فانه عاد معهم ودخل الموصل فى استقبال ونثار . واعظام واكبار . حتى دخل الدار . وخال الاستقرار . فما أجلسوه . حتى اختلسوه . وما رسموه . حتى رمسوه . وكتموا أمره . وختموا عمره . وجرى بين جمال الدين الوزير وبين زين الدين على كوجك وسيف الدين غازي التعاقد . على التعاضد . والتعاهد . على التساعد . وتولى جمال الدين وزارة الموصل واستولى . وكان باسترعاء ما أولاه الله من نعمه أولى . وانه عاش بنداه الجود . وعشا الى ناديه الوفود . وعادت به الموصل قبلة الاقبال . وكعبة الآمال . فانارت مطالع سعوده . وسارت في الآفاق صنائع جوده . وعمر الحرمين الشريفين وشمل بالبر أهلها . وجمع بالامن شملها .

ذكر حال جمال الدين الجواد أبي جعفر محمد بن علي ابن أبي منصور

قال رحمه الله : كان والده من أصفهان الكامل عليّ وهو حاجب الوزير شمس الملك بن نظام الملك وكان أبوه أبو منصور فهادا في عهد السلطان ملكشاه بن الب ارسلان وابنه الكامل نجيب . أديب لبيب . وزادت أيامه في السموّ . وأيامنه في النموّ . حتى تنافس في استخدامه الملوك والوزراء واستضاءت برأيه في الحوادث الاراء . وكان قد زوج بناتا له ببعض أولاد أخوال العم العزيز فاشتمل لذلك العزيز رحمه الله على ولده جمال الدين أبي جعفر محمد وخرّجه في الادب . ودرّجه في الرتب . فاول مارتبه في ديوان العرض السلطاني المحمودي محلياً . فبرز في تلك الحلبة سابقاً ومجليا . وغلب في تحليته ذكر الابلج . فنعته الاتراك بالابلج . واستقام في نجابته على المنهج . واتفق انه لما تولى زنكي بن آق سنقر الشأم تزوج بامرأة الامير الاسفهسلار كُنْدُ غدى وولدها خاصبك بن كند غدى من أمراء الدولة وأبناء المملكة . وهو يسير معها فرتبه العزيز جمال الدين لخاصبك وزيراً فسار في الصحبة وكان مقبل الوجاهة . مقبول الفكاهة . شهى الهشاشة . بهي البشاشة . فتوفرت مني زنكي على منادمته . وقصر صباحه ومساءه على مساهمته . وعول عليه في آخر عمره في اشراف ديوانه . وزاد المال وزان الحال بتمكينه ومكانه . فلم يظهر من جمال الدين في زمان زنكي جود . ولا عرف له موجود

فانه كان يقتنع بأقواته . وتزجية أوقاته . ويرفع جميع مايحصل له الي خزانة زنكى استبقاء لجاهه . واستملاء به على اشباهه . فمكنه زنكى من أصحاب ديوانه . فمنهم من استضر باساءته ومنهم من انتفع باحسانه . ولما قتل زنكى صار للدولة الآتابكية ملاذا . وللبيت الاقسنقرى معاذا . واستوزره الامير غازى بن زنكي وآزره على كوجك على وزارته . وحلف له على مظاهرته ومضافرته . فأجرى بحر السماح . ونادى حيّ على الفلاح . فصاحت بافضاله ألفاظ الفصاح . وأتوا اليه من كل فج عميق . وقصد من كل بلد سحيق . وقصده العظماء . ومدحه الشعراء . وممن وفد اليه ومدحه أبو الفوارس سعد بن محمد بن الصيفى المعروف بحيص بيص . قال : وأنشدنى لنفسه من قصيدة أولها

يال الصوارم والرماح الذُّبل نصراً ومن أنجدتما لم يخذل
لو شئتما ومشية بمشية جاد الزمان وبالعلى لم يبخل
أنا فارس اليومين يوم مقالة ووغى أصول بصارمي وبمقولى

ومنها يصف بناءه لسور المدينة وعمارة قبر

وتقر عين محمد بمحمد محيي دريسَى علمه والمنزل
معمار مرقده وحافظ دينه ومعين أمته بجود مسبل
خِرق تُناط قميصه ورداءه بعباب زخار وهضبة يذبل

قال : وكنت أنا في ذلك العهد ببغداد متفقها واتفق حضورى بالموصل في ذي القعدة سنة ٥٤٢ فحضرت عند جمال الدين بالجامع فى جمعتين . وتكلمت عنده مع الفقهاء فى مسئلتين . ومما مدحته به من قصيدة أولها وذلك من أول نظمى

أظنهم وقد عزموا ارتحالا ثنوا عنا جمالا لا جمالا
سروا والصبح مبيض الحواشى فلما حال عهد الوصل حالا
أخلائى وهل فى الناس خل به أخلى من الاشجان بالا
لئن لم أشف صدرى من حسودى ولم أذق العدى داء عضالا
فلا أدركت من أدبى مراما ولا صادفت من حسبى منالا
ولا وخدت اليكم بى جمال ولا واليت مولانا الجمالا
وقائلة أفى الدنيا كريم سواه فقلت لا وأبى المعالا

قال : ولم يقنع بما جاد به للوفود . حتى زم الى البلاد ركائب الجود . فجعل لكل بلدة من بلاد الاسلام من مواهبه راتباً . وأصبح جوده فى الآفاق الى المقيمين سائراً وللطالبين طالباً .

عاد الحديث الى ذكر ما جرى للسلطان مسعود ابن محمد بن ملكشاه بعد موت جاولى فى سنة ٥٤١

قال رحمه الله : ولما توفى جاولى جاندار طمع الامير الحاجب الكبير فخر الدين عبد الرحمن بن طغايرك فى تولى بلاد ارانية وأرمنية وعرف انه لا يتمشى له ذلك مع تسلط خاصبك بن بلنكرى فتوسل في استمالة الامير بوزابه صاحب فارس الى السلطان ليتم له مراده بتوسطه وأرسل الي الامير الحاجب تتار وهو عند الامير بوازبه انهذا أوان قدومه . وزمان هجومه .

فقدم المعسكر السلطاني في عسكر ضخم . ومقدم فخم . واتصل به الامير عباس صاحب الري في عدة وعديد . وبأس شديد . واتفق هؤلاء الثلثة ابن طغايرك وبوزابه وعباس على تدبير الدولة وتقرير قوانينها . وترتيب دواوينها . وكف عادية المتسلطين عنها . وتوفير حظوظهم بالاستقلال بها منها . فأحوجت السلطان الضرورة الى النزول على حكمهم . ورأى السلامة في سلمهم . وأقسم على رضاهم ورضي بقسمهم . فاول ما فعلوا انهم عزلوا وزيره . ونقلوا الى الوزير الذي ولوه تدبيره .

ذكر وزارة تاج الدين ابن دارست الدارسي

قال : كان ابن دارست وزير بوزابه صاحب فارس فرتّبه في وزارة السلطان ايصدر الامور على مراده . ويورد على وفق ايراده . وكان هذا الوزير رفيع القدر . وسيع الصدر . محبا للخير مبغضاً للشر فما فعل أمراً ينقم عليه . ولا احال حالا يتوجه لاجلها اللائمة عليه . ونائبه أمين الدين أبو الحسن الكازروني ذو الدين المتين . والحلم الرزين . والاستهتار باعمال الشر . والاشتهار بافعال الخير . وتولى ديوان العرض والد الوزير عضد الدين وهو جميل مجمل لمذهبه . مهذب مذهب لمنصبه . واقروا ولاية آذربيجان وارانية جميعها على بن طغايرك عبد الرحمن . وقرروا ابعاد خاصبك بن بلنكري عن السلطان . فسار في خدمة ابن طغايرك أميرا . وصحبه في مضمار الخلصاء . ولم يخلص في صحبته ضميرا .

وتقرر ان يكون احد الثلاثة بالنوبة ملازماً لخدمة السلطان حتى يسلم لهم جانبه . وتؤمن نوائبه . وانفصل الامير بوزابه الى بلاد فارس ورحل السلطان الى بغداد ومعه الامير عباس صاحب الري في شركة مانعة . وهيئة رائعة

قال : ولما قدموا بغداد في خريف هذه السنة خرجت مع الفقهاء لتلقيهم والناس مشتغلون على تخوفهم منهم وتوقيهم . فلما حلوا ببغداد نزلوا دورها وسكنوا للتخريب معمورها . وألهبوا الكروب . وأرهبوا القلوب . وكانت هذه عادتهم اذا وصلوا . وعادتهم اذا نزلوا . فتمكن الاتراك لايتركون ممكنا من الجهل . وعندهم ان الظلم من العدل . ولكن الوزير نزل في دار الوزارة بالاجمة . متوخيا شيئا المكرمة . وأمر بتجديد عمارة المدرسة التاجية التي بناها خاله الوزير تاج الملك أبو الغنائم بن دارست ببغداد وأوطنها شيخنا شرف الدين يوسف الدمشقي فاحيى دريسها بدروسه . واشرق افقها بنجوم العلم وشموسه . ورتب الوزير في داره مجالس للختمات . وحضور ائمة الفرق وفقهائها للمناظرات . ولم يعارض السلطان في شيء من أوامره وأموره . وابتسمت الدولة باسفاره وسفوره . لكنه مع تقاصر مدته ما أمر ولا أحلى . ولا شغل ولا اخلى . ولا عزل ولا ولىّ . كل ذلك طلباً للسلامة . واستقاء لماء الاستقامة . وعلما بوخم العاقبة . وألم المعاقبة . فلا جرم توفرت الدواعي على حبه . وفرت العوادي من حربه وحزبه

قال : وفي هذه السنة قدم الامير العالم قطب الدين أبو منصور المظفر ابن اردشير العبادي الواعظ فاعجز بالفصاحة وأعجب . وشرّق بأنوار البلاغة وغرب . وأنا اذكر وقد حضرت مجالسه وقد وضع له منبر على شاطئ دجلة والسلطان مطل عليه من أعلى مكان والامير عباس صاحب الري جالس

فى شفارته بدجلة بحيث يسمعه . والعبادى يفتن الناس بما يبديه من سحره
ويبدعه . وحضرت مدة مقامى ببغداد جميع مجالسه أ كتبها من لفظه .
وأقبل عليه الامام المقتفى وقبله . ورفعه وبجله . وأمره بالجلوس فى جامع
القصر فى موضع يقرب من منظرته . ليجلس حيث لا يراه وهو بحضرته .
وانبثت بدائعه وبدائعه . واشرقت بنجح مطالبه مطالعه .

﴿ ذكر ما جرى من الحوادث التى انحلت بها تلك العقود واختلت تلك العهود ﴾

قال رحمه الله : وصل الخبر بقتل الامير عبد الرحمن بن طغايرك بأرانية
وكان من قدر الله سبحانه انه استصحب معه خاصبك بلنكرى ليبعده عن
الخدمة السلطانية غير مكترث به وكان مع خاصبك امر من السلطان سراً فى
الفتك به ان خلت عرصة . أو أمكنت فرصة . فركب ابن طغايرك يوما
لتجهيز العساكر الى غزاة الكرج ووقف منفرداً فى ذلك المرج . وهو
يسير أميراً أميراً . ولا يمكن من المقام كبيراً ولا صغيراً . وابن بلنكرى
واقف لا يريم . وهو لبرق مايشيمه من عارض العمد يشيم . ومعه الامير
زنكي الجاندار فتقدم وأقدم وضرب رأس ابن طغايرك بسوط حديد شدخه
وفشخه . واستصرخ بأعوانه فمدم مصرخه . وضرب بعد ذلك بالسيوف .
وتفرقت عنه جموع تلك الصفوف . وتغلب ابن بلنكرى على ارانية فأحسن

الى الذين ساعدوه . وعقد حبى الحب لهم حين عاقدوه . وامتد الى أردبيل محاصرا وبها الامير آق ارسلان وأخرجه منها بالامان . ثم اشتغل بحصار مراغة لينال منها ماراغ . وحصرها طويلا ولم يجد فيها المساغ

ولما نمي الى السلطان ببغداد خبر قتل ابن طغايرك أحضر الامير عباسا فى داره ليخلو به ويستشيره فلما خلا به أمر بضرب رقبته . ورمى جثته . وذلك بكرة خميس من ذى القعدة سنة ٥٤١ فركب عسكر عباس يقدمهم الامير آق سنقر الفيروز كوهى وشقوا مدينة بغداد وساروا . ونهض الاوباش لنهب دار الوزير وثاروا . فأركب السلطان جماعة منعوا من الوصول الي داره . وبقي موقراً موفراً على حرمته وقراره ثم أذن له في الانصراف الى فارس مصحوبا بالصيانة مصونا بالصحبة . مرتب الاحوال حالى الرتبة . فجاء اليه وودع ودعا . ورعى له السلطان حق مارعى وتلا (وأن ليس للانسان الا ماسعى)

﴿ ذكر وزارة شمس الدين بن النجيب الاصم الدركزيني ﴾

قال : وحفظ السلطان حرمة الوزير تاج الدين فلم يتمم شمس الدين الوزير بوزارته . حتى انصرف الوزير بجاهه وماله وحرمته . وحشمته ونعمته . ولم ير وزير للسلجقية صرف ولم ينكب فى نفسه أو فى ماله سواه ولانه كان يرجو منه استمالة الامير بوزابه وتحصيل رضاه . فانه لم يشك فى حركته . والابتلاء بمعركته . فضمن له تاج الدين بن دارست ان يكفيه أمره

ويكف شره . وكان هذا من دهائه لينجو من الداهية . ويستفيد الاحكام لقواعده الواهية . فرحل فرحا للسلامة . ظاعناً من وطنه الى دار المقامة . فاستقل بالوزارة حينئذ شمس الدين أبو النجيب وكان من قبل يخدم ابن بلنكرى فلما سار أقام يخدم الامير الحاجب تتار . مستديما لود مخدومه الانتظار . فرغب السلطان فيه لاجل اختصاصه بخاصبك ولم يكن فيه من أدوات الوزارة الا كونه للقوام الدركزيني نسيبا . فحاز من منصبه نصيبا . وكان بزمانه شبيهاً . وفى مكانه نبيها . لائقا بالقوم . وموافقا للسوم . يطلب مرافقهم فى مرافقهم . والتخلق بخلائقهم . والسلطان لاه بالملاهى . متناه في المناهى . لايسأل عما يفعل ولا يفعل مايسأل . ولا يقبل مايقال ولا يقول مايقبل . وعنّ للسلطان ان يحرك ساكن الموصل بابداء عزمه اليها . واظهار عوجه عليها فبادر متولوها بحمول . وتحف وهدايا وخيول . فقبلها منهم . ورضى عنهم . وأقام ببغداد باقي تلك الشتوة فلما رحل ضيف الشتاء حل السلطان حبوة مقامه . وأمرخبر خروج بوزابه صاحب فارس ما أحلاه من احلامه . فخفقت القلوب والبنود . وقلقت الجنوب والجنود . ثم اغذ السلطان مسعود الى همذان سيره ليسبقه اليها . قبل اطلاله عليها . فانها مقام ملكه . ونظام سلكه . وطير الكتب الى خاصبك ابن بلنكرى وهو على حصار مراغة ليقدم تلك المساكر . ويقدم اقدام الليث الخادر

وأما بوزابه فانه لما نعى اليه عباس وعبد الرحمن قامت قيامته . وغامت غمامته . وكدر عيشه . وكثر طيشه . وجاش جاشه وجيشه . ونهد بالملكين محمد وملكشاه ابنى محمود وأقبل بهما كالنيرين . من جترهما فى فلكين . فلما

قرب من اصفهان تلقاه صدر الدين ابن الخجندى وفتح له أبوابها . وحمل على الاصحاب له أصحابها . فدخل دار مملكتها . ومقر سلطنتها . وأجلس الملكين على السرير الالب ارسلانى . والتخت الخسروانى . ثم خرج بهما على سمت همذان وهو لايشك انه اذا بلغ غلب . واذا بسل سلب . فوصل الى مرج قراتكين وهى من همذان على مرحلة واتصل به ابن عباس صاحب الرى فلما عرف السلطان مسعود قربه . حزّب حزبه . وقوّى قلبه . وطير الى ابن بلنكري كتبه . وضيق في التأخير عذره ووسع عتبه . فوصل وقد حم اللقاء . وحق البلاء . فقوى السلطان وتسلطت قوته . واحتبى بالشدة واشتدت حبوته . ولما تقارب الفريقان . باتا ليلتهما يعبّيان . وبحرهما يعب . وجمرهما يشب . وريحهما تهب . فلما بدا الصباح خلف من العجاج الليل ليل . وانجر على المجرة من مجرى المجرين ذيل . وطما بما سل من الجفون سيل وطلع فى كل أفق من لمع اليمانى سهيل . والتقى الصفان . وتلاطم البحران . وصال العديد على العديد . وصل الحديد فى الحديد . وكادت الكسرة تصح على مسعود . وبقى قلبه ثابتاً بين طارد ومطرود . وبوزابه قد تهور وتهجم وحمل على القلب ليقلبه بحملته . ويميز تفصيله بجملته . فكبا به الفرس ففرس . واختلسه القدر فقدر عليه واختلس . وحمل الى السلطان أسيراً . فخاطبه وعاتبه كثيراً . فلم ينبس ببنت شفة وأراد السلطان الابقاء عليه لشهامته . فأبى ابن بلنكرى الافش هامته . فأمر السلطان بالاضراب عن رقبته . وضرب رقبته . وأمر بحمل رأسه الي العراق . وأن يطاف به في جميع الآفاق . وانجلى الغبار عن ابن عباس قتيلا . وانهزم عسكر فارس والملكان موليان لايلويان . وموليان لا يليان . وجلس مسعود للهناء وخص خاصبك بالاصطناع

والاصطفاء . وحظه على الامراء . وأمره على العظماء . وذلك في سنة ٥٤٢

ذكر ماجرى باصفهان من الفتنة بعد مصرع بوزابه

قال رحمه الله : كان نجم الدين رشيد الغياثيّ والى اصفهان من قبل السلطان وهو متعصب على الشافعية فلما تم من صدر الدين محمد بن عبد اللطيف الخجندىّ الى بوزابه الميل . بادر بالارسال الى اصفهان للايقاع بمن خرج على السلطان وعلم ابن الخجندى فخرج منها وزحف العوام الى المدرسة فنهبوها وأحرقوا دار كتبها وتشتتت بنو الخجندى فقصد صدر الدين محمد وأخوه جمال الدين محمود الموصل . وأوردهما جمال الدين الوزير من انعامه واكرامه المنهل المنهل . ومضى جمال الدين الى الحج . وأقام صدر الدين وبحرُ جود الوزير له متلاطم اللج . ثم انصرف عنه مملوّ الحقائب . محبوًّا بالمواهب . وعمل فى جمال الدين ابياتا من جملتها

جئت الى بابك فردا وقد خرجت من نعماك فى قافله

ووصل الي اصفهان فتوفراهلها على خدمته . وافترضوا اقامة حرمته وأما جمال الدين اخوه فانى لما عدت الى بغداد لقيته وقد عاد من الحج فى صفر سنة ٥٤٣ . وكان قد عزم والدى على العود الى اصفهان فصحبناه وجمعتنا الطريق ووجدناه نعم الرفيق . ثم تفارقنا وسار هو مع قافلة همذان . وسرنا مع قافلة اصفهان . ثم وصل الخبر بان السلطان رضى عنه وعن أخيه وخلع عليهما . وأعاد الرئاسة اليهما . ثم وصلا . وعلى اضعاف ما كان لهما من الحشمة حصلا .

ذكر بعض الحوادث

قال : في سنة ٥٤١ حج ابن جهير وزير الخليفة المقتفى فرتب صاحب المخزن قوام الدين بن صدقة وزيراً . وكان بيته اثيلا أثيرا . ورتب فى المخزن عوضه زعيم الدين يحيي بن جعفر ورتب بعد ذلك يحيي بن محمد بن هبيرة صاحب الديوان . وفى سنة ٥٤٣ مات قاضى القضاة ببغداد يوم النحر وهو فخر الدين على بن الحسين الزينبي . ورتب بعد ذلك عوضه عماد الدين بن الدامغانى

قال : واما السلطان مسعود فانه ارسل الى ابن أخيه الملك محمد بن محمود بعد قتل بوزابه فاستدعاه . ومنّ عليه ومناه . وزوجه بنته . وعهد اليه فى الولاية وولاه عهده . ثم ملّكه خوزستان ولما امن ابن بلنكري من الجوانب عمد الى الامير الحاجب تتار وقبضه وأوثقه . وأنفذه الى قلعة سرجهان واعتقله بها ثم خنقه . وصفا له الجوُّ فباض وصفر . وصفا عليه الضوء فاجتلى الظفر

قال : وفى شهر ربيع الاول سنة ٥٤٣ وصلت شعبة من أكابر الامراء ومعهم الملك محمد الى بغداد محاصرين . وعلى خذلان السلطان مسعود لشقوتهم متناصرين . منهم شمس الدين ايلدكز والامير قيصر وملك العرب على بن دبيس وغيرهم . فحضروها وحصروها . فخرج أهل بغداد لردهم فأفرجوا عنهم . حتى اصحروا فكروا عليهم كرة اردتهم . وما ابقت عليهم بل أفنتهم . وكانت بالقرب منهم حُفَر الغسالين . وتنانير الآجُريين . وأتاتين الجصاصين . فما نجا الامن آوى اليها . وقتلوا زهاء خمسمائة نفس وجلّ رُزْءُ بغداد بأهلها . وأمضها ما دهاها من شغلها . ثم طلبوا من الديوان العزيز

ثلاثين ألف دينار ليرحلوا . وفصلوا الامر على المبلغ لينفصلوا . فاستشار الخليفة الوزير وأرباب المناصب فى انه هل يبذل لهم الذهب . وهل يحتمل للراحة منهم التعب . فما فيهم الا من عجل بالعذل . للتأنى فى البذل . فاخرجت العين . فأشار ابن هبيرة وهو يومئذ صاحب الديوان بضد ما أشاروا . وصار من الراى الى غير ما صاروا . وقال للامام « هؤلاء خرجوا عليك وعلى السلطان . وجاهروكما بالعصيان . فاجعل بالله الاستجارة . وقدم منه الاستخارة . وأنفق ما عزمت على بذله لهم . فى عسكر يقاومهم ويدفع شرهم . فانك ان دفعتهم بالعطاء لم تسلم من عتب السلطان مسعود . وان هزمتهم باللقاء قلت له انى فللت جنود عصيانك من أهل طاعتك بجنود . وأنت لا تحمد على ما تحمل . ولا تشكر على ما تعمل »

فقبل الخليفة رأيه ولم ير خلافه . وجمع حينئذ وجند . وحشر وحشد . واستخدم من البطاليز ابطالا من المقاتلة المقابلة المبطلين . وفرق المال ومال اليه الفريق . وأنفق فنفق فى سوق تفويقه التوفيق . وصار من ذلك اليوم للخليفة جند مهيب . ونار لها فى أفئدة العدى لهيب . فرد هؤلاء الارداء بالحد الحديد . والجد الجديد . وقال « انى أري المشورة الهبيرية أريا مشورا . وصوب صوابه لري الرأى مشكورا » . فجاء به وزر عليه جيب الوزارة . ولم يزل عنده مودود الشارة . مقبول الاشارة . وذلك يوم الاربعاء الرابع أو رابع عشر شهر ربيع الاول سنة ٥٤٤ . فشرع فى نصر أمر الشرع . رحيب الصدر والباع والذرع . وأكرم الفضلاء . وفضل الكرماء . وعاش فى وزارتى المقتفى والمستنجد ست عشرة سنة وشهرين . قرير العين . أيد اليدين

وكان به عمش . وبوزير السلطان طرش . وأمر الدين والدولة بهما منتظم . وشعب الخلافة والسلطنة بكفايتهما ملتئم .

ذكر وصول السلطان سنجر بن ملكشاه الى الرى في أواخر شعبان سنة ٥٤٤

قال رحمه الله : لما عرف سنجر ما تم بالعراق من اغتيال النفوس . واقتطاف الرؤس . واستيلاء خاصبك على خواص الاولياء . واغضاء السلطان في مهد الاغفال . وخدعه بالالطاف خدع الاطفال . قال « لابد من الادراك والاستدراك . والامساك والاستمساك . وتهذيب المستملى . وتعذيب المستولى . واخفاء الشر اللائح . واطفاء الشرر اللافح » فنهض على كبر سنه ووصل الى الرى في صميم الشتاء وقرها في قره فأجفل مسعود من همذان راحلا على سمت بغداد فثنى عنانه شرف الدين الموفق كردبازو وقال له « أنت لسنجر مقام الولد . والاولاد ببر الآباء فازوا . وما أسعدهم اذا حصلوا رضاهم وحازوا » فسار الى الرى معه . وأبى ابن بلنكرى أن يتبعه . وأقام هو والوزير الاصم بهمذان فلما بصر سنجر بمسعود قدمه وأكرمه . وقر عينا به وقربه . وتحدث معه بما يحبه . ورضى عنه وماعتبه . ونسى كل ماذ كره . وادبر عن كل ما دهمه . وشفع السلطان في خاصبك فأجابه . وذكر له فعله فاستصابه . فما أمر بمعروف ولانهى عن نكر . ولا أبدل شكوى بشكر . ولا كشف ظلامة . ولا كف قلامة . لكنه ودع ابن أخيه وعاد .

واغذ الى خراسان التأويب والاساد . ورجع السلطان واستصحب خاصبك والوزير الاصم معه الى بغداد . وأقام تلك الشتوة بها فى رفاعة وفراغ . وصباح صباح ومساء مساغ . وكان مع سنجر كبراء أمرائه مثل المؤيد يرنقش هريوه والفلك على البحتري وسنقر العزيزى وغيرهم من عظماء عسكره وخواص معشره

﴿ ذكر حوادث فى تلك السنين ﴾

قال رحمه الله : وفى السادس من شهر ربيع الاول سنة ٥٤٣ نزل ملك الالمان بجمع عظيم من الفرنج على دمشق وحاصرها وأشرف المسلمون فيها على اليأس ثم منعها الله تعالى ورحلوا عنها بعد أربعة أيام خائبين هائبين . خاسئين خاسرين . وفى أوائل جمادي الاولى من سنة ٥٤٤ توفى الامير غازى بن زنكى صاحب الموصل وتولي أخوه قطب الدين مودود . وجمال الدين الجواد وزير على حاله وزين الدين عليّ كوجك متولى العسكر ورجاله . وتوفى الحافظ متولي مصر فى خامس جمادي الاولى من هذه السنة . وتولى بعده ولده الظافر . وفى موسم سنة ٥٤٤ وقعت زعب ومن تابعها من العرب على قافلة الحج عند قفولها من مكة الى المدينة فاهلكت الناس . وأحلت بهم البؤس والبأس . وعظم مصاب المسلمين فى الآفاق . ونجا من الآلاف آحاد بآخر الارماق . وفى الحادى والعشرين من صفر سنة ٥٤٤ كسر نور الدين محمود بن زنكى على انب من الشأم ابرنس انطاكية

وقتله وحز راسه . وشد بتلك النصرة للاسلام قواعده وآساسه . وفى سنة ٥٤٥ أسر التركمان جوسلين وسلموه الى نور الدين ونزل الملك مسعود ابن قلج ارسلان على تل باشر وهى مع جوسلين ونزل نور الدين بعد أسر جوسلين على قلعة عزاز وفتحها بالامان . وفى يوم الخميس الخامس والعشرين من شهر ربيع الاول سنة ٥٤٦ تسلم الامير حسان المنبجي تل باشر بالامان . وفى سنة ٥٤٦ أغار عز الدين على بن مالك صاحب قلعة جعبر على أطراف الرقة فنزعوا اليه وأدركوه وقتلوه . وجلس مكانه في القلعة شهاب الدين مالك ولد عز الدين .

﴿ ذكر ماتجدد من الملك ملكشاه بن محمود
ووفاة السلطان مسعود ﴾

قال : اغار فى ربيع الاول سنة ٥٤٥ ملكشاه بن محمود على أصفهان وساق بعض مواشيها . وصار يغاديها بالاخافة ويماشيها . وكان فيها نجم الدين رشيد واليها . فانهض السلطان اليها شرف الدين كردبازو وضم اليه جماعة من الامراء . فلما وصلوا الى أصفهان راسلوا الملك ملكشاه وقبحوا له ماالستحسنه . وتحركوا اليه بما سكنه . وتحمل له رشيد بمال حمله وسيره اليه ورحله . ونزلت السكينة وسكنت النازلة . وأسبل الامن وأمنت السابلة . وشتى السلطان مسعود سنة ٥٤٥ ببغداد غائصا مع لداته فى لذاته قانصاً من العيش فرصاته . ثم رحل عنها رحيل مودع فلم يعد بعدها الى

العراق وترافق السلطان وخاصبك ولم يتفارقا . وتوافدا على الترافد وتوافقا وكان خاصبك فرحا باختصاصه . ومنذ كان ماخلى صاحبه من حبه واخلاصه . فوصلا الى همذان وانقضت سنة ٥٤٦ صافية عن القذى . كافية للاذى . ماضية مع الغنى . مضية السناء . ولم يعلما ان سنة سبع بسنها كالسبع عضوض . وان كل ماأبرمه اليوم الزمان غداً منقوض . وان الحياة مختومة وان الوفاة محتومة . وان عمران العمر مهدوم . وان سر القضاء مكتوم . فلم يزل مسعود مسعوداً حتى عاجله القدر . وما أجله الاجل . وأصابته علة الغثيان والقئ فما سلمت حتى أسلمت نشره الى الطئ . وشمسه الى الفئ . وجمد فى آخر جمادى الآخرة ذوبه . وخمد ضرامه وأقلع صوبه . وكان مسعود ضخم الدسيعة . جم الصنيعة . لكنه يصطنع الاراذل . ويرفع الاسافل . وكان كثير الاتكال . على استمرار الاقبال . قليل الاحتفال . بمكايد الرجال . دائم الاغضاء عن ذميم الفعال . لايضمر لعدو سخيمة . ولا يقبل فى ولى نميمة . واتفق قبل وفاته ان اخاه سليمان شاه كان بقلعة قزوين معتقلا . وكان عليه بالحوط مثقلا . فواطأه مستحفظها . ووفق الخادم على الخروج بعد موت أخيه لطلب السلطنة . واتصاله بذوى الايدى المتمكنة . وكان الملك ملكشاه بن محمود . قد اتصل بعمه مسعود اليه لاجيا . ولآلائه راجيا . وقد أجل اليه . واشتمل عليه . وهو حاضر حين حضره الحين . وغارت وغاصت العين والمعين . ولابد ان يقطع بين المتواصلين البين . ودفن بهمذان فى مدرسة بناها جمال الدين اقبال الخادم الجاندار

﴿ ذكر جلوس السلطان ملكشاه بن محمود ﴾

قال: لما توفى عمه اجتمع العسكر على نصبه . وعقد حبي الاعتقاد لحبه . وأجلسوه على السرير وأطاعه الامراء وأتمروا بطاعته . وتيمنوا بيومه وسعدوا بطالعته . وتفرد ابن بلنكرى على عادته ومساعدة سعادته . بالامر والنهى والحل والعقد . والقصر والمد . والقبول والرد . والميل الى جمع المال . وجباية الاعمال . والحاق ذوي الاثراء بذوي الاقلال . واشتغل ملكشاه بالانهماك فى القصف . والانهتاك بالعزف . وفوض الامور كلها الى ابن بلنكري . وكان من فلك ملكها فى أوج المشترى . واعتاق بنجحه . ووثق بنصحه . وما درى انه يخسر من ربحه . ويظلم يومه بطلوع صبحه . فان ابن بلنكري طرب فبطر . وخطر بضميره ان يضمر الخطار . وجمع الامراء وكبيرهم الحسن الجاندار وقال لهم « هذا سلطان لا يفلح . والملك لا يصلح . فانه غرٌ ذو غرور . وغمرٌ جاهل بالامور . قد شغلته الخمر عن الامر . وأغناه الحشف عن التمر . وأنا أرى من الصواب ان نخليه . ونستدعي أخاه محمداً ونوليه » فلم الامراء ان خاصبك كالباحث عن حتفه بظلفه . والجالب النكر الى عرفه . وكانوا قد كرهوا استيلاءه . وشنوا استعلاءه . فوافقوه على الرأى الرائب . وعدوه من المواهب . وقالوا لعل الملك اذا تولاه حازم جازم . وعاقل بمصالحه عالم . انتحى له من هذا العادى . وشفى بصداه غليل الملك الصادى . فقالوا لخاصبك « عجل هذا الامر قبل ان يفطن به فنأيس

من نجح مطلبه » فقبض ابن بلنكرى ملكشاه فى دار الحسن الجاندار وهو فى ضيافته . فقراه بآفته . واعتقله ببرج همذان وكان قد أنفذ الى الملك محمد بن محمود جمال الدين ايلقفشت بن قايماز الحرامى ونفذ ابن بلنكرى لاستحلافه الامير مشيد الدين بن شاهملك ومعه وزيره الكمال ابو شجاع الزنجانى المعروف بالتعجيلي فخانوه فى الرسالة . وحسنوا للسلطان محمد ضد ما أراده ابن بلنكرى من الحالة . وقرروا معه قتله يوم الوصول . وقالوا له لا تقبل غير هذا الرأى لتحظى بالقبول . وعادوا وقالوا لابن بلنكرى « انا قد حلفناه واستوثقنا منه بالايمان . وأكدنا أقسام القسم بحيث يكون حنثه ارتداداً عن الايمان » فوثق بأمانتهم وأمن للوثوق بهم وأرسل واسترسل . وعجل واستعجل . وأما ملكشاه فانه تخلص من اعتقاله . وخرج نجمه من بيت وباله . وكانهم توانوا فى حفظه . ووكلوه الى حظه . وكما أغفلوا الاحسان اليه . أحسنوا بالغفلة عنه . ولم يكن لهم عنده ثار فيحملهم على الانتقام منه . وصرحوا بهربه . ولم يعرضوا بطلبه . ولم يلبث في سلطنته الا شهرين أو ثلاثة ثم تقلبت به الاحوال الى ان استقر بخوزستان ملكا . وفى سلك سلوك نهج السلامة متسلكا

ذكر جلوس السلطان غياث الدنيا والدين

أبي شجاع محمد بن محمود بن محمد بن ملكشاه

(فى أواخر سنة ٥٤٧)

قال : وقدم السلطان محمد همذان فى عدة يسيرة . وعدة غير كثيرة . فتلقاه خاصبك بلقائه مستبشراً . وبوفائه مستظهراً . وبصفاء وده موقناً . وبصفات مجده مؤمنا . والى دينه راكنا . والى عينه ساكنا . وحمل اليه ما تجمل به من آلات الملك وأدواته . ومخبيات المال ومدخراته . وخيمه وسرادقاته . والخيل العراب . والعروض والثياب . فعلقت بالنفوس نفائس أعلاقه . وسكن المسكين الى وفاء السلطان ووفاقه . وخرج له من قشره . وأرج منه بنشره . ولقيه السلطان بوجه له باشر . ولسان لحمده ناشر . لكن ضميره للشر مضمر . وفكره للفتك به مفكر . ثم انه فى اليوم الثالث من قدومه جلس فى أعلى القصر واستدعى ابن بلنكرى لمسارته فى التفويض ومفاوضته فى السر . فجاء ومعه الامير زنكى الجاندار والامير كشطغان المعروف بشملة . فلما حصلوا على سلم القصر عرف شملة العملة . ورأى أمارات لا توافق المراد . فعاد وجذب ذيل ابن بلنكرى ليعود فما عاد . ونزل وقد رهب . فركب وهرب . وأما ابن بلنكري وزنكي فانهما صعدا فأمر بحز رأس ابن بلنكرى ورمى بجثته الى الميدان . وضربت أيضاً رقبة زنكي الجاندار وكان كبير الشان . وارتاعت القلوب وارتابت النفوس . وذرفت العيون وأطرقت الرؤوس

ومما يعتبر به المستبصر ويستبصر به المعتبر ان خاصبك خلف أموالا لاتأكلها النيران. ولاتحويها الحسبان. ومن جملة ماوجد له الف ثوب وسبع مائة ثوب أطلس عتابيّ فكيف غيره من الالوان. وطلب له كفن فى ذلك اليوم فلم يوجد. وبقى على حاله ولم يلحد. وما ألقى عليه رداء. ولم يبذل له فداء. حتى جي له من سوق العسكر الكفن والقطن. وتهيأ لمن تولى أمره حسبة لله الغسل والدفن. فيا بعداً للدنيا ما أكدر صفاءها. وأغدر وفاءها. تخيف من آمنها. وتزعج من سكنها. وتقتل من أحياها. ولا ترعى من رعاها.

وأما السلطان محمد فانه ظن بعد قتله أن الموانع قد ارتفعت. والمنافع قد اتسعت. وأن الامراء النافرين منه بسببه يجتمعون. وعلى نصره يُجْمِعُون والى جنابه يفزعون. وكان وزيره فى خوزستان الوزير جلال الدين بن القوام أبى القسم الدركزينى وقد أبقاه على وزارته. وجرى ما جرى بمشورته واشارته. فأشار عليه بأن يسير رأس خاصبك الى الاميرين الكبيرين شمس الدين اتابك ايلدكز ونصرة الدين خاصبك بن أق سنقر صاحب مراغة. وظن انه يعجبهما اتلافه. ولا يسعهما عصيان السلطان وخلافه. فلما وصل اليهما الرأس هالتهما حالته. وأعيتهما فى هذه العثرة اقالته. وقالا «لقد أقدم على فتك عظيم بعظيم. ولقد الام الكريم بظفر لئيم. أما كان استوثق منه باليمين. أما استمسك من وعده بالحبل المتين. واذا كان هذا الملك الاكرم ابن الملوك الاكرمين مجترئاً على مثل هذه الجرائم. ومستصغراً لامثال هذه العظائم. فقد عز العزاء. وخاب الرجاء. وجل المصاب وعظم البلاء» فمالا عنه. ونالا باللوم منه. وأرسلا اليه «انك أخطأت. وزعمت انك أصبت. ومايثق قلب اليك. وان وثقنا فانك باليمين التى حلفت بها له تحلف. ولمثل

الوعد الذي أخلفته معه تُخْلِفُ » فليس لنا بك المام . ولالك معنا كلام

ذكر ماجرى للسلطان سليمان بن محمد بن ملكشاه وجلوسه على سرير السلطنة

قال رحمه الله : كان لما خرج من مجلسه بقزوين . ووجد التمكن والتمكين . خرج به مظفر الدين الب ارغو بن يرنقش البازدار الى زنجان . وكاتب فيه الاميرين شمس الدين ايلدكز ونصرة الدين صاحب مراغة وهما في أمره متروِيان فلما نفرا من محمد وتذمما وتذمرا سارا بعساكرهما الى زنجان طالبين لخدمة السلطان سليمان وحملاه الى همذان . وأجفل السلطان محمد في شرذمة يسيرة الى أصفهان . فاستقر سليمان على سرير الملك وكان معه ينالتكين خوارزمشاه وأخوه يوسف وأختهما زوجة السلطان سليمان وهي لامره متولية . وعليه مستولية . وكان سليمان وزيراً شرّيباً خمّيراً . اذا سكر وقع صريعا . ونام أسبوعا . كلما رفع رأسه لاذ بالعقار . ثم لاث خمارا لخمار . وكان يقلي لانه لايلقي . ويشق عليهم انهم لايسعدون به وهو يشقي . وكذلك وزيره فخر الدين أبو طاهر ابن الوزير المعين أبي نصر أحمد بن الفضل بن محمود القاشاني لايصحو ساعة . ولايمحو عنه شناعة . وهو أشبه بسلطانه . وكلاهما اليق بزمانه . فضجر الامراء الاكابر من المقام . وشرعوا في الانفصال والانفصام . وعاد شمس الدين ايلدكز الى آذربيجان لقصد أرانية وانتزاعها من يد روادى ابن عم ابن بلنكرى . وعزم نصرة الدين

آق سنقر على العود الى ولايته ثم ان الامراء الباقين بعد رواح شمس الدين ايلدكز قرروا مع نصرة الدين . وانتقلوا الى مرج قراتكين وخلوا السلطان مع خواصه بقصر همذان واجتمعت اراؤهم على قبض الوزير وأرادوا اتباع ذلك بقبض خوارزمشاه ينالتكين . والسلطان سليمان كان حينئذ قد نكح زوجة أخيه بنت ملك الكرج ودخل بها وهو فى عرس وانس فجاءت اليه أخت خوارزمشاه زوجته وقالت له « ان لم تأخذ لنفسك أخذت نفسك . وطال حبسك . ومضى غداً يومك . ورجع فى التطبق عليك أمسك » فهرب ليلا معها ومع أخويها وترك خاتون الابخازية وقد بنى عليها وأصبح الامراء وقد فقدوه . ونشدوه وما وجدوه . فتولت العساكر الى ولاياتها . وغابت تلك الاسود الى غاباتها

﴿ذكر رجوع السلطان محمد بن محمود بن محمد بن ملكشاه الى مقر ملكه بهمذان بعد غيبة سليمان﴾

قال : لما وصل السلطان محمد الى أصفهان . منحازا عن عمه سليمان . كاتب الجوانب . وراقب الاجانب . واتصل به الامير ايناج صاحب الرى فقويت يده وعرف ان العساكر الغريبة لاتقيم مع عمه . وانهم اذا انفصلوا عنه كان عزمه مليا بهزمه . فوصلته البشرى بان عمه عام فى بحر الليل سابحاً وساح لعرض الفلاة بالافلات ماسحا . فسر بما وعى . وسار وسعى .

وتلقاه أمراء الدولة مهنئين . وبحدة جده متهنئين . وعاد الى قصره . وعادة نصره . وذلك في سنة ٥٤٨

﴿ ذكر ما اعتمده الامام المقتفى لامر الله بعد موت السلطان ﴾
﴿ مسعود محمد بن ملكشاه ﴾

قال رحمه الله: كانت السدة الشريفة الامامية قد منيت بجور الاعاجم . ولم يزل عودها من عداوتهم تحت سن العاجم . وكان أهون ما اعتدهم خلاف الخليفة وعناده . وتمردهم عليه بأن يحصل مرادهم لامراده ولم تزل بغداد مظلمة . مشحونة منهم بالشحن الظلمة . ولهم من الديوان العزيز مطالب لايفي بها خواصه . ومغارم ملحقة منهم يتعسر منها خلاصه . والحرم من جناياتهم خائف . والشرف لهاباتهم عائف . وشريعة الشريعة مكدرة . والدماء والفروج مستباحة مهدرة . والخليفة يغضي ويغضب . ويَعتِب ولا يُعتَب ويُقدَر عليه ولا يَقدر . ويُغدر به وهو على العهد لايغدر . فلما توفى السلطان مسعود قال «لاصبر على الضيم . بعد اليوم . ولا قوام مع هول هؤلاء القوم» وآزره وزيره عون الدين بن هبيرة وأعانه . وثبت جنانه . وكان مسعود البلالى الخادم والى بغداد فقامت عليه قيامة . وتعذرت عليه الاقامة . فرحل الى الحلة . ومضى متحملا في تدبير الامور المضمحلة . وأقام يحشد ويحشر . ويطوي وينشر . وكان بالحلة السلار الكردى من اكابر امراء السلطان فلم يكترث بالخادم واسترسل اليه . وقصده

ليسلم عليه . فاخذه الخادم وقتله وغرقه فى الفرات . وجمع العساكر واقطع تلك الولايات . وفرق على فريقه الاقطاعات . فسار اليه ابن هبيرة وهزمه وكسره ولحق البلالى بهمذان مستصرخا . وغدا عقد جمعه منفسخا . وملك الخليفة العراق من أقصى الكوفة الى حلوان . ومن حد تكريت الى عبادان . واقطع واسط واعمالها . والبصرة وانهارها . ومعاقلها وولاياتها . والحلة والكوفة ونهر الملك ونهر عيسى ودجيل والراذان . وطريق خراسان الى نواحى حلوان . وأقطع الوزير عون الدين ابن هبيرة جميع ما كان لوزير السلطان وأرباب مناصبه في جميع هذه البلاد . وأعانه على الاستعداد واضعاف الاعداء بتضعيف الاعداد . ونعته بتاج الملوك فلك الجيوش

وكان الامام لما استخلف على انه لايشترى مملوكا تركيا . وكان يقتنى مدة خلافته إما ارمنياً أو رومياً . ولم يكن له من الاتراك الا ترشك ملكه قبل الامامة فولاه الامارة على الامراء . واختص من مماليكه الروم والارمن عدة من النجباء . سماهم الجاية . وولاهم الرتب العلية . وأحكم اسوار بغداد وحفر خندقها ورتب الولاة فى الولايات وبث العيون وأصحاب الاخبار . وبث الجواسيس الى جميع الامصار . واشتغل السلاطين بعضهم ببعض في تلك السنين . وأعطى الله الخليفة التأييد والتمكين . وكان الخليفة قد سير قطب الدين العبادى فى سنة ٥٤٦ أو ٥٤٧ رسولا الى محمد بن محمود بخوزستان فتوفى هناك . وختمت به الفصاحة الوعظية واظلمت مطالع العلم المضيئة

ولما عاد السلطان بعد هرب عمه سليمان الى همذان راسل الخليفة وخاطبه فى الخطبة له فما اجابه . وتجني عليه بقتل ابن بانكرى وعابه . وآيسه

من ملك بغداد وخيب رجاءه . فحينئذ اجتمع عند السلطان الامراء الذين حلت اقطاعاتهم ببغداد وقالوا « ارزاقنا قد أُقطعت . واعراقنا قد قُلعت . ودورنا قد أُنزلت وولاتنا عزلت . ولا بد من مداواة هذا الداء قبل اعضاله . وتداركه قبل استفحاله » وكان السلطان محمد يرجع الى عقل ودين . وحلم ركين . ورأى رزين . فقال « لاتعجلوا فان مخالفة الخليفة شؤم . ومواليه محمود ومعاديه مذموم . وأنا استقبح ان أستفتح سلطنتي بمعاداته . وبنية مناواته » فقالوا له « نحن نمضي ونقضي هذا الشغل . ونخفف عنك هذا الثقل . ونلقى بجمعنا الجمع . ونحصد بسيوفنا الزرع » فقال لهم « كان رأيى ماذكرته . وعرفتكم ما أنكرته . والآن فافعلوا ماراأيتموه . واعملوا مانويتموه » فودعوه وركبوا . وجاء اليهم من وافقهم وذهبوا . وتجمعوا فى جحافل حافلة . وعساكر فى ذلاذل السوابغ رافلة . وساقوا بين ايديهم التركمان ببيوتهم ومواشيهم . وأهاليهم وحواشيهم . وكان حصن تكريت قد بقى فى يد مسعود البلالى وبه نائبه أسبه وحصره الخليفة مرارا فتمنع ولم يفتح مغالقه المتصعبة . وفي هذه القلعة ملكان من السلجقية معتقلان وهما ملكشاه بن سلجق بن محمد بن ملكشاه وارسلان شاه بن طغرل بن محمد بن ملكشاه فقالوا لمسعود البلالى « أحضر لنا الملك ارسلان بن طغرل ابن عم السلطان . ليثق بحضوره جموع الاجناد وحشود التركمان » فاقطع عليهم بدره . ورفع جتره . ثم وصلوا الى نواحى العراق

ولما عرف الامام ذلك أمر فاصحرت أسده الحوادر من عريسها . وتبدات خيش الوشيج من خيسها . وبرز فى مظلته . كأنه البدر فى هالته . ونور النبوة يشرق من جبينه . والقضيب النبوى يورق بالنصر فى يمينه .

والبردة الموروثة فوق ردائه . والقدر بالقدرة على اعدائه . ملبي ندائه . فسار فى موكبه الشريف وعلى مقدمته وزيره عون الدين بن هبيرة فى أسود استلأمت من الدروع بأهب أساود . وفى سحائب قساطل من المناصل والصواهل بوارق ورواعد . وفى الميمنة والميسرة امراء ومقدمون من عظماء العسكر كناصر الدين منكوبرس وأمير واسط مظفر الدين قتلغ برس وكلاهما من المسترشدية . وحامياً الحوزة المقتفية . وفخر الدين قويدان ومنكابه العباسى وبهاء الدين صندل والامراء المصطفون المصطنعون . والحماة الكماة المدرعون المقنعون . وخيم الخليفة على مرحلتين من بغداد في موضع يعرف بيجمزا وأقام دون شهر ينتظر منهم البداية . ويستبعد من غوايتهم الهداية

ولما تزاحم المجران . وتراجم الجمران . تجرأ العدى ببغيهم وغيهم على الاقتحام . وحسروا عن أقدام الاقدام . وقالوا ان للقوم بنا طاقة . ما تحملوا من توسيع مدة الاقامة اضاقة . فقد عزت الاقوات وعدم العلف . ووجد التلف . وجهلوا ان الامام متبع حكم الشرع . فى قتال أهل البغى عند صيالهم بالدفع . فركبوا وما رقبوا . وبرزوا وجلبوا . فركب امير المؤمنين فى مهاجريه وأنصاره . ووقف فى القلب منهم بين اسماعه وأبصاره . وقدم وزيره ابن هبيرة امامه . وسير معه اعلامه . وأمر الامراء ان يكونوا معه قدامه . فاقمرت ليالي الرايات السود بوجوه رافعيها البيض . واشرقت ايامن الايام الامامية بنوره المستفيض . وشرع برق الحديد اللامع على حواشي بوارق البوار فى الوميض . واولئك قد ساقوا دواب التركمان ومواشيها وأغنامها . وقدموها بين يدى صفوفها قدامها . وكانت آلافا كثيرة الاعداد . كثيفة السواد . ومن ورائها الوقاة الكماة . ذوو الحمية الحماة . وقد اخذت هذه

المواشي طول الارض وعرضها . ومنعت بتراصها تقويض صفوفها ونقضها

فنزل الامير فخر الدين قويدان قائد الجنود وقبل الارض للخليفة وطاب بلاد الحلة . واقتدى به ناصر الدين منكوبرس في طلب البصرة . فانم بهما عليهما . فتأهبا للقاء . وتلهبا على الهيجاء . وحمل الوزير ومن معه فلم يجدوا في تلك النقاد للآساد طريقاً . وصادفوا فى ذلك الفضاء الواسع للانعام المحشورة اليه مضيقاً . وكان ترشك مملوك الخليفة للمخالفين مخالفاً . وفى الميمنة واقفاً . فحملت ميمنتهم على ميسرة الخليفة وفيها مهلهل ابن أبى عسكر والاكراد فهلهلت نسجها . وحلحلت برجها . وعادت صفوة صفوف الاكراد اكداراً . واجفلوا كالظلمان هزيمة وفراراً . ودخل ترشك بين اطناب السرادق الشريفة فطعن برمحه ظهير الدين بن الفقيه المرتب في المخزن فقتله وركضت ميمنتهم خلف المنهزمين فلم يعرجوا . ومروا وراءهم ومرجوا . وأما الميمنة الميمونة الامامية فانها حملت وفيها ناصر الدين منكوبرس وفخر الدين قويدان ونفذت الى القوم وقوضت ماقابله من البنيان المرصوص . وحكمت بنصر الحق المنصوص عليه على الباطل المنقوص . فلم ير غير رأس سائر . ورأس طائر . ورمح يتشظي . وصارم يتلظى . وتبدد شمل آمال الاعادى وتفرقوا عباديد . وأخلفهم الشيطان ماكان مناهم من مواعيد وطاروا على خيولهم كانما استعارت من قوائمها قوادم . وتركوا بتلك المغانى من أغنام التركمان مغانم . وخبّت البشرى الى بغداد بالنصر بعقب ارجاف الاجلاف المنهزمين بالكسر

ووقف بعد الهزيمة مسعود البلالى فى قلبه ثابتاً قلبه . راجياً ان يثوب اليه حزبه . فهب اليه ابن هبيرة فهبره . وبرى أجزاء صفه وجزّ وبره . وانتهز

الفرصة الامير سنقر الهمذانى فانفرد بالملك ارسلان بن طغرل وسار به وأخفى مسيره فى مضايق كل وادى ومساربه. حتى وصل به الى شمس الدين ايلدكز زوج أمه وكانما أنزل به الغنى بعد عدمه . وأما الخليفة فانه سجد لله شكراً . وانشرح بالنصر صدراً . ودخل الى بغداد منصور الالواء . مصحوبا باملاك السماء. ولما تمت على أولئك القوم في أملهم الخيبة . تملكتهم من جانب أمير المؤمنين الهيبة . ونكصوا على أعقابهم عاثرين بذيل الخجل. عابرين علي سبيل الوجل . فلما رجعوا الى السلطان محمد بن محمود ندّمهم. وعاتبهم على الملك الذي ندّ منهم . وقال « كسرتم ناموسكم واتلفتم نفوسكم . وأهلكتم التركمان وعرضتم لسبي الذرارى منهم والنسوان . ثم أخرجتم الملك ارسلان وغفلتم عن حفظه . وهو الآن عند ايلدكز وستبصرون ما يفضى اليه الامر . ولا بد ان يتوجه اليَّ من جانبه الشر . وقد صار الخليفة خصما فلا يخلص بعد هذا ورد دولتنا معه من الشوب . ولا يقبل على قبول التوبة ولا يرتضى صوابا ارضاء هذا الصوب » وكان كما حسب فان الخليفة لم يغفر للسلجقية بعدها ذنباً . ولا فرغ لهم من جهته قلباً . وكانت الوقعة ببجمزا فى أواخر سنة ٥٤٩

﴿ذكر وصول السلطان سليمان بن محمد بن ملكشاه الى بغداد﴾

﴿وقبول الخليفة له وتجهيز الجيش معه وذلك فى سنة ٥٥٠﴾

قال رحمه الله : كان سليمان قد تخلى عن الملك وأخلى سريره . ووافق ادباره تدبيره . يدور فى البلاد ويلي بالدوائر . ويجد مع المنجد ويغور مع الغائر . لايستقر بهقرار . ولا تؤويه دار . ولايجيره جار . فلم ير لامره وأمنه حاميا غير حمي أمير المؤمنين . فقصد ان يعلق من عصمته الحبل المتين . قال وكنت حينئذ ببغداد فوصل الخبر بان سليمان قد دنا ودان فقابلوا بوفور القبول وفوده . وأكرموا وروده . ولو وفوه حق السلطنة لتلقاه الوزير ومعه قاضى القضاة والنقيبان . وأجلاء الخدم كما جرت عادة السلطان . لكنهم اقتصروا فى تلقيه على موكب شريف يقدمه عز الدين محمد ابن الوزير ومعه مخلص الدين ابن الكيا الهراسى وخادمان ووقف الموقف خارج البلد حتى قرب ثم لقيه ابن الوزير وخاطبه بكل ماأطربه وأعجبه . وقال « أمير المؤمنين صلوات الله عليه يسلم عليك ويهدي تحية اليك » وترجم ابن الكيا الهراسى له هذا السلام بالفارسية . فنزل سليمان عن فرسه وقبل الارض ثم ركب ودخل البلد وخرق الاسواق من باب سور الحلبة . الى أن جاوز فرضة لرحبة . وحين وصل الى باب النوبيّ أنزلوه وألزموه بتقبيل العتبة وقدأكرموه . وهناك حجر اذا وصل الرسل ومقدمو الحاج نزلوا عنده ولثموه وعظموه . وماقبل تلك العتبة قبل سليمان

سلطان سلجق . ولا ملك ديلمي . وكان منهم شقي وسعيد

ثم أركبوه وخرقوا به السوق حتى عبروا به باب سور السلطان وأنزلوه بدار السلطنة ووظفوا له الرواتب ورتبوا له الوظائف وشرفوه وسوروه وطوقوه وخطبوا له على المنابر فى الجمع والجوامع . وخصوه بالعوراف والصنائع النصائع . لكنهم لم ينعتوه الا بالمعظم ولم يسموه بالسلطنة ولم يسموه . وكانوا يقتصرون به على المعظم وذلك غاية أن يعظموه . لكنه كان فى قد عقلة من غفلته . وعى لهجة من غيّ جهلته . وفي كسرة من سكرته . وفى ذلة من لذته . فما زال مدة مقامه مستحلا لمحارم شهواته . مستحلياً مذاق الهو فى لهواته . مترنماً بنغماته . متبغما بخرافاته . والخليفة مع ذلك فى ولائه معتقد وللوائه عاقد . متيقظ لتدبير مصالحه وهو عنها راقد . وقد اوعز الى عساكره بالتأهب للمسير فى خدمته . واعادته الى عادته في سلطنته . واستوزر له شرف الدين الخراساني وكان رجلا كبيراً يرجع الى سودد وكرم محتد . وكان قد وصل الى بغداد فى عهد السلطان سنجر رسولا وأعاد البردة والقضيب النبويين معه الى دار الخلافة وكانا قد أخذا فى النوبة المسترشدية

وأقام شرف الدين هذا فى الظل الاماميّ وهو مخصوص بالاحترام فرأي المقتفى ان يجعله وزير سليمان . وسيره الى آذربيجان . وجهز معه عساكر وافية العدد . وافرة العُدد . فمضوا به الي أرانية ثقة بأتابك ايلدكز فما رفع بهم رأساً . ولاقراهم ايناسا . ووصل السلطان محمد بن محمود وجرى المصاف . ووقع بين الفريقين الانتصاف . ثم انهزم سليمان مولياً . وعن عسكر الخليفة متخلياً . فعادت العساكر الى بغداد عادمة للظفر . نادمة على السفر . ورجع سليمان عائداً الى بغداد فى طريق الدربند القرابلى فصبّحه زين الدين على كوجك من الموصل .

وقبضه في المضيق وحمله الى قلعة الموصل . واعتقله وأراحه من التعب . واباحه ما كان يؤثره من اللعب . وكان ذلك في شعبان سنة ٥٥١

ذكر اتصال الملك جغري شاه بن محمود باخيه السلطان محمد

قال رحمه الله : كان الملك جغرى شاه مع آتابك اياز في آذربيجان . فشغل خواطر الاميرين ايلدكز وارسلان آبه صاحبي آذربيجان عند اتصالهما بالسلطان سليمان . بعد انهزام محمد الى اصفهان . فلما عاد محمد الى السلطنة سير شرف الدين كردبازو لاصلاحهم والصلح بينهم . فوصل والحرب قائمة على ساقها . آخذة من الارواح باطواقها . فأصلح ذات البين . وعاد قرير العين وقد تسلم جغرى شاه . وملأ بحمده ومدحه القلوب والافواه . وجمع شمل السلطان بأخيه وعاد آتابك اياز الى ولايته . وكانت رعيته آمنين في كنف عنايته . واقتسم شمس الدين ايلدكز ونصرة الدين ارسلان ابه بلاد آذربيجان وأفرجا عن أرديبل للامير آغوش . وأعادوا من رسوم العدل النقوش . واجتمع السلطان محمد باخيه جغري . والاخوة تحمله على الشفقة والملك به يغرى .

قال: وكنت في ذلك العهد سنة ٥٤٩ بهمذان وقد عدت من الحج صحبة جمال الدين محمود بن عبد اللطيف الخجندى فشاهدت السلطان قد أنس بأخيه وسر به . وامتزج به في مطعمه ومشربه . ولاطفه بعطفه . وعطف عليه بلطفه . ثم امر باعتقاله ووكل به الامير عز الدين ستماز بن قايماز الحرامى

يرصده ليلا ونهارا . ويرعاه سرا وجهارا . وما زال الامر على ذلك حتى فارقنا العسكر . فما أدرى اين أقبل به القضاء بعد ما أدبر . ومن حين نقل ماسمع له خبر . ولا رئى له اثر . فكأنما سل طين السلاطين من جفن الجفاء وجبلت جبلتهم على الاغفال والاغفاء . فالرحم عندهم مقطوعة . والرحمة ممنوعة . والعزة فى خدمتهم بالذل مشفوعة . والاغترار بهم غرر . وصفوهم كدر . يقسون ويخشون . ويبرمون وينكثون

ذكر حوادث جرت في تلك السنين

قال : فى سنة ٥٤٨ استولى الغز على السلطان سنجر وكانت حادثة هائلة وسنذكر أيام سنجر عندوفاته . وفى هذه السنة استولى الفرنج على عسقلان وفى هذه السنة قتل العادل ابن السلار سلطان مصر قتله ابن امرأته . وفي هذه السنة توفي ابن منير الشاعر بحلب فى جمادى الآخرة . وتوفى ابن القيسرانى الشاعر بدمشق في الحادى والعشرين من شعبان . وتوفى ابو الفتوح بن الصلاح الفيلسوف البغدادى بدمشق فى الخامس والعشرين منه وفى سنة ٥٤٩ توفى تمرتاش صاحب ماردين فى أول المحرم . وفتح نور الدين محمود بن زنكي دمشق يوم الاحد ثالث صفر سنة ٥٤٩ . وقتل الظافر متولي مصر ليلة الخميس لانسلاخ صفر

قال : وفى هذه السنة توفيت حليلة السلطان محمد بن محمود بنت السلطان

مسعود بمجلس للعزاء . وامترى در البكاء . وكنت حاضراً في زمرة العلماء .
ووصل الى خدمته آتابك ايلدكز فى عساكر آذربيجان والامير شير بن آق
سنقر بعسكر أخيه وأقاما عنده على همذان ثم استأذنوا في العود وعادوا .
وزادهم السلطان حرمة وقوة فزادوا . ووصل رسول ملك كرمان فاكرم .
وأحضر حملا فقدم . وسير جمال الدين ابن الخجندى مع الرسول رسولا الى
كرمان . ليخطب بنت الملك للسلطان .

قال : فمدت معه الى اصفهان فسامنى السفر معه فى تلك السفارة .
فرأيت الربح فيه عين الخسارة . فتأخرت وتقدم . واحجمت فأقدم .
وأقمت فظعن . وأسهلت فاحزن . فاتنى عند مسيره الى كرمان سرت
على طريق خوزستان الى بغداد وجئت الى عسكر مُكْرَم فى شوال
سنة ٥٤٩ والملك ملكشاه بن محمود مالكها . وقد امنت به ممالكها
ومسالكها . ولقيت رئيس الدين محمد بن القاضى أبي بكر الارجانى وهو فى
نيابة القضاء . موفور الحرمة فى العلماء . فذكرلى ان والده توفى سنة ٥٤٤
وأعطانى مسودات من أشعار والده . فتنزهت في رياض فوائده . ثم
ارتحلت الى بغداد بعد وصول الخبر بنصرة الخليفة فى حرب بجزا وظفره .
وكنت مع والدى نخرضته البشرى على سفره

قال : وشتى السلطان محمد بن محمود فى هذه السنة بساوه واستعجز
جلال الدين بن القوام وزيره . واستقصر تدبيره . واستقصى من فارس تاج
الدين الدارستى ليستوزره فوصل تاج الدين الى أصفهان وأقام مدة فبرد أمره
وخمد جمره . واستبطأ السلطان سيره . واستوزر غيره .

﴿ ذكر وزارة شمس الدين أبي النجيب الدركزيني ﴾

قال : قيل للسلطان انه وزير عمك . وظهير عزمك . وقد سبقت له خدم وثبت له فى القدم قدم . فنصبه فى المنصب . ورتبه فى أعلى الرتب . واستند وتصدر . وأورد وأصدر . وخاطب الامراء الذين استأثروا بالبلاد ان ينزل كل منهم عن شئ مما فى يده ليكثر الخواص السلطانية . واستضاف بلاداً عامرة الى النواحى الديوانية . فتوفر الاستظهار وظهر التوفير . وأثمر الرجاء ورجي التثمير . وقال للسلطان قد اتسقت الاحوال . واتسعت الاموال . وقد فرغ البال لشغل بغداذ فاسترجع حقك المغصوب . ولا تترك نجحك المطلوب . فانها دار ملكك . ومقر أبيك وجدك . وأنت اذا مضيت بنفسك فما يقف قدامك أحد ولايكون معك لاحد يدٌ فلما خضر الربيع مائدته . ووفر فائدته . وأحسن عائدته . عاد السلطان الي همذان وذلك فى سنة ٥٥٠ ورحل على سمت بغداذ ورحل عدة مراحل . ونزل في قصدها منازل . ثم بدا له فعاد لان الامراء الذين سبقت منهم المواعدة على المعاودة اخلفوا العدات . ولم يطاوعه العسكر على مفارقة البيوت والاقطاعات . عند ادراك الغلات . فانصرف راجعاً وتوجه الى آذربيجان . وتم المصاف الذى نصر فيه على عمه سليمان . ثم عاد الى مقر ملكه وفي قلبه من أمر بغداذ هم شاغل . فى صميم روحه واغل . وعلم ان الجند لايفارق بلاده فى الصيف . فانه لايجمع بين حر بغداذ وحر السيف . فواعدهم الى الخريف . وأمنهم من الغرر المخيف . واشتغل بالاستمداد والاستعداد . والاجتهاد فى الاحتشاد . وتجهيز الكتب

الى مجهزى الكتائب . وتبريز المضارب وتمييز الطلائع والمقانب . فارتحل لما انقضى المصيف . وأقبل الخريف .

ذكر وصول السلطان محمد الى محاصرة بغداذ وما اعتمده أمير المؤمنين المقتفى لامر الله من حسن الصبر المعقب حميد الظفر والنصر

قال رحمه الله وصل الخبر الى بغداذ فى ذى القعدة سنة ٥٥١ بأن السلطان محمد قد قرب فى عسكر هائل . وعرمرم صائل . وهو بمنزل « قصر قضاعة » فصدق اهتمام الخليفة بالاحتراز والاحتراس . واجد لباس الجد للباس . وبالغ فى تحصيل العدد . وتحصين البلد . وأدار بالمنجنيقات سورا على السور . وملأ أبراجه بالحماة المساعير . وخرج الوزير ابن هبيرة وخيم تحت التاج الشريف عند المثمنة على شاطئ دجلة بحيث يطل الخليفة من المثمنة على خيمة وزيره . ويقرب الاستئمار فى دقيق الامر وجليله وقليله وكثيره . وفتح باب الكرم المرتجى المرتج . وثبت قلب الاسلام الخافق المرتج . وأعد العدد الخاصة والحرجية . واستخدم المنجنيقية والجرخية . وكان من حزم الخليفة انه مذ توفى السلطان مسعود ونفى مسعود الخادم البلالى من بغداذ أوعز باعداد الذخائر وادخار العدد والاستظهار بشغل صناع السلاح وكانت حجارة المنجنيق معوزة . فأحضر منها فى السفن ألوفا صارت محرزة . وأمر ببناء المراكب المقاتلة والسفن

فرعن في دجلة راسيات كالرعن . وعبر محمد شاه دجلة الي الجانب الغربى من أعلى بغداذ على بعد منها بجموعه . وراع كل قلب بصدوعه . وكان قدواعد زين الدين على كوجك فوصل بعسكر الموصل يوم الميعاد فى وفور من العدد والاعداد . وأطلوا من الجانب الغربى على بغداذ وكدروا المشارب . ووفروا المصائب . ثم بكروا وأشرفوا . وبالغوا فى العتو وأسرفوا . ووقفوا بازاء التاج الشريف وشرعوا في السبع . جارين على سوء الطبع . ونبعت من معاجس قسيهم غروب النبع . وجرحوا من النظارة جماعة أحسنوا بهم الظنون . وأمنوا منهم المنون . وقابلوا الفرض بالرفض . وقاتلوا الله تعالى بقتال خليفته فى الارض . ونزلوا على بعد من بغداذ حتى تألفت الوفهم . والتف لفيفهم . وسيروا الى الحلة والكوفة وواسط والبصرة ولاة ومقطعين . وشحناً ومتصرفين . وفى كل يوم يسير الخليفة فى دجلة مراكب . مملوءة بعقاب . فيها المجانيق الخفاف . والعرادات اللطاف . والرماة الكماة . والجرخية الكفاة . فيحاذون المعسكر المحمدي فى دجلة ويرمونهم . ويشوونهم ويصمونهم حتى رأى السلطان محمد التنقل الى حوالى سور بغداد فجاء ونزل على الصراة بدار يرنقش الزكوى وعبر أمراءه الكبار الى الجانب الشرقى مثل آتابك أياز وعز الدين ستماز . ومن يجرى مجراهما من ذوى الاعتزاز وبقى على كوجك بالعسكر الموصلى فى الجانب الغربى والسلطان معه وهو يعبر فى دجلة الى دار السلطنة في جانب بغداذ كل وقت ويعود . والبيض قد هجرتها الغمود . والعقول قد انحلت منها العقود . وتبرز خيل بغداذ فى كل يوم منها من يأتى سور السلطان والظفرية ويقفون خلف الباشورة المبنية . للحملة على من يكون منهم فى الجاليشية فهم يخرجون . ويجرحون ويجرحون . فيأمر لهم الخليفة بالعطاء . على قدر البلاء .

وكان لكل جراحة على مقدارها عطاء . ولكل عمل مبرور جزاء . فتوفرت دواعي العوام على التهافت في نار الحرب تهافت الفراش في النار . للفوز عند العود بالدين والدينار . فقامت الحرب على بغداد بالمساء والصباح . والغدو والرواح . وطالت مدة الحصار . ولم يؤثر في الاسعار . وما عز غير اللحم . ولا عز الملح . والامل مقترب النجح . وخسران الخصم دليل الربح . وكانوا قد نصبوا من الجانب الذي من دجلة على مسناة دار العميد وبقرب القمرية منجنيقين عظيمين وهموا بنصب منجنيق آخر على الخان الذي بناه سرخاك مقابل التاج . ولو تم ذلك لأعضل داء الازعاج . فعين الخليفة ليلا رجالا أتوا بنيانه من القواعد . وكان لوقوعه سحرا رجفات كأصوات الرواعد . وكانت السفن المترددة في دجلة برماة الجروخ والنشاب والقوارير المحرقة . والنفاطات المزرقة . قد آذتهم وآذنتهم بعجزهم . وعزت بازهاقهم . فأزهقت روح عزمهم . وما كانت لهم مراكب الا عدة يسيرة يسخرون ملاحيها . ويخسرون مالكيها . ثم لا يثقون بالركوب معهم فيها فحاروا وخاروا . وتشاوروا واستشاروا . فقال لهم بدر بن المظفر بن حماد صاحب العراف . وكان قد جاهر الخليفة بالخلاف . أنا أكفيكم بسفن مقاتلة . وأغنيكم بمراكب حاملة وجواري منشئات . وزوارق وشفارات . من بلد واسط والبطائح . من الداني والنازح . فحمدوه وشكروه ومضى وأقاموا ينتظرونه حتى وصل بالسفن الخفاف والثقال . والملاحين والرجال . فامتنع عليهم عبورها في البلد اليهم ورتب الخليفة الرجال في المراكب للقائها . واحراقها بالنار وارادئها . ولما شق عليهم ذلك ردوها الى نهر عيسى بعد ان مدوها الى الفرات . وأخرجوها فوق بغداد في الصراة . وتكاملت مدة شهرين في ذلك . ثم

بدأوا بعقد جسر على دجلة فوق دار السلطان من تلك الزواريق . واتسعت طريقهم فى العبور بالتغريب والتشريق . وضايقوا فى الحصر من الجانبين . وشددوا في منع الميرة وقطع الاقوات بجدع الانوف وقطع اليدين . ووصل اليهم من الحلة امراء بنى أسد ورجالها . وفتا كها وأبطالها . وقالوا هذه بغداد من جانب دجلة ماعليها سور . وتوانيكم فى هجمها قصور وفتور . فسلموا الينا المراكب لنهجمها . وما اسهل علينا ان نقتحمها . واذن لهم السلطان فى الزحف فركبوا المراكب مستلئمين معلمين . وعبروا الى المدينة على الموت مقدمين . ولما وصلوا الى قرب السور خرجوا من السفن شاكين . فخرج اليهم من الباب من مماليك الخليفة من طاردهم وجالدهم . وهم مع ذلك يبعدون من الشاطئ . ويوسعون الى الموت خطوة المصيب غير الخاطئ . ثم كثر عليهم رجال بغداد كثرة حصلوا منها تحت العسر . وفى قبض الاسر . وتظافروا الي السفن فغرق أكثرها . وانخسف بهم موقرها . وقبض الامير حسن المضطرب وأخوه ماضى وعدة وافرة من معروفي بنى اسد . وعدم كثير ممن غرق أو قتل أو فقد . وأمر الخليفة تلك الليلة بصلب حسن وأخيه على دقل زورق . واصبح الباقون على السور مابين مصلوب مشنق . ومقتول معلق . ففتح الله لخليفته من المهابة لاوليائه . والمهانة لاعدائه . كل باب مغلق . وسقط فى أيديهم . بعد ما بسط من تعديهم . ولما طال الحصار . وتمادى الانتصار . خاف الخليفة الغلاء . ففتح الاهراء . واقتصر للاجناد فى الاعطيات . على تفريق التمور فيهم والغلات . وأخذوها واحتاجوا الى أثمانها فى النفقات . فرموها فى الاسواق وباعوها بالدينار . فخمد بذلك استعار نار الاسعار . ومازاد سعر فى الاقوات

ولا غلا مطعوم فى وقت من الاوقات

وفى صفر سنة ٥٥٢ وصلت قافلة الحج فوجدوا دار الخليفة محصورة . والهمم من الخارجين على خلاف تعظيمها مقصورة . ونزلوا فى المعسكر السلطانى ثم تفرقوا الى بلادهم . ورحلوا طالبي أغوارهم وأنجادهم . ومن كان من بغداد تحيل في الدخول الى منزله . والوصول الى منهله . وببغداد حينئذ خلق من التجار يريدون بل يؤثرون مرافقة الحاج . ويقولون متى أخذوا البلد نهبوا بضائعنا . واستخرجوا ودائعنا . فحضروا التاج وأكثروا الضجاج . وحاولوا من ضيقهم الافراج . فقال لهم الوزير « أمير المؤمنين يقول لكم أنتم في حرم احسانى . وفى ضمان أمانى . ولكم بى اسوة وهذه النوبة . مالكم انبوة . وأموالكم فى البلد مصونة . وبأسباب الرعاية منا مضمونة . واذا خرجتم وضعتموها على طرق الطوارق . وتعرضت لكم دون السفر عوائد الحدثان فى البوائق . فاصبروا فان الصبر محمود العواقب . والله لنا كفيل بفل ناب النوائب . فضجوا حتى أضجروا . وزجروا فما انزجروا . فوكلوا الى آرائهم الفائلة . وآرائهم الحائلة . فاستبقوا الباب . وما استبقوا الالباب . فخرجوا وأحرزوا تلك البضائع فى الدار السلطانية . ولم يقدموا مع تلك الفتن على السفرة الهمذانية . فما مضت عليهم الا أيام قلائل . حتى غالتهم غوائل . فنهبوا وسلبوا وأصبحوا فقراء . وهذه سنة الله فى الاغنياء . اذ كانوا أغبياء . وسنذكر سبب ذلك ان شاء الله . قال وأما العسكر النازل فان السلطان رأى مراسلة الخليفة بالاستعطاف والاستعطاء . والاستغفار والاستعفاء . وكان فى صحبته من العلماء صدر الدين محمد بن عبد اللطيف الخجندى وشمس الدين أحمد شاذ الغزنوي فأرسل كلا منهما على حدة فلم يمكنا من الوصول . وقيل لا مطمع فى نجح

السؤال بالرسول . فانكم لو أردتم الاجمال . لقدمتم الارسال . والآن ان استرجعتم . ورجعتم ورأى الورى منكم الندم على مافعلتم . فهنالك نسمع الرسائل . ونقبل الوسائل . فقنط القوم من قبول الرسالة وشرعوا في الشر وعادوا الى العدوان ولجوا فى العصيان والطغيان . وتخريب العمران . وانخرقت مهابتهم عند أهل بغداذ. فطلبوا بكل نوع عليهم الاستحواذ. فصاروا يكبسونهم فى الضياع . ويغافصونهم [1] بالقراع . ويقطمون الطرق على علافتهم . ويوجدون السبل الي تكثير مخافتهم . وكانت الاكلاك واصلة من الموصل اليهم بالميرة . والاقوات الكثيرة . فتلقوها فى دجلة فأخذوها . وعبروبها عليهم وعجزوا ان ينقذوها . وامتنع أهل الموصل بعد ذلك عن تسيير الاكلاك فما أنفذوها. وكان وزير الخليفة منذ وصل محمد للمحاصرة واصل مكاتبة أتابك شمس الدين ايلدكز وحثه على الحركة مع أحد الملكين ملكشاه أو ارسلان شاه الى همذان فوصلهم الخبر بأن ملكشاه هجم على البلاد . واستولى على الطراف والتلاد . واقتطع الاقطاعات وحوي الغلات . ورفع الارتفاعات . ففت ذلك فى عضد العسكر وتضعضع ثباتهم بهذا الخبر . وحمي أيضاً عليهم الحر . واشتعل البر والبحر . فاجتمع عند السلطان الخواجكية والامراء . والاماثل والكبراء . وكان الوزير شمس الدين ابو النجيب الاصم الدركزيني والمستوفى رضى الدين أبو سعد الخوافى ونائب الاستيفاء كمال الدين ابو الريان ومن الامراء آتابك أياز وعز الدين ستماز وشرف الدين كردبازو ومسعود البلالى وظاهرهم على الرأى زين الدين علي كوجك الموصلي وقالوا نعبر باجمعنا الى الجانب الشرقى ونصدقهم القتال .

(١) غافصه أي فاجأه وأخذه على غرة . اه محيط للفيروزابادي

ونديم عليهم النزال . فان تيسر الفتح . فقد سفر النجح . وان تعذر وتعسر تفرقنا
على مواعدة المعاودة من قابل . وحصلنا من ادراك الطوائل على طائل . ثم
عمدوا الى الجسر الذى لهم فاحكموه . وتجاسروا على الحكم الذى اعتمدوه .
وأصبح العسكر فى يوم الاربعاء من شهر ربيع الاول وقد أخذ عدته . ولبس
شكته . وركب خيله . وسحب من السوابغ على السوابق ذيله . وشرعوا فى
العبور على الجسر مزدحمين . وعلى العثور بالمنية مقتحمين . واتفق في ذلك اليوم
هبوب ريح عاصف . وتموّج بحر من الهواء قاصف . وتلاطمت الامواج .
وتزاحمت الافواج . وثقل الجسر وانقطع . وهم العسكر ان يرجع . فلم يجد
طريقاً للرجوع . وخاف من على الجسر من الوقوع . فمدوا ايديهم الى
الدبابيس . فاضطربوا واضطروا الى التنكيس والتعكيس . ولم يشعر من ورائهم
بالامر ولم يطلعوا على انكسار الجسر وانخرعوا لما هالهم . وحسبوا ان خطبا
غالهم . فهاموا وما فهموا . وهموا بما وهموا . وركب السلطان عند اشتباه
الخطب . واتجاه الخبط . وشط نازلا ونزل الى الشط . فقيل لزين الدين
على كوجك ان السلطان قد ركب . وان العسكر قد اضطرب . وانه قد
عبر الى الدار . وحصل على الاستشعار . فركب أيضاً فى العسكر الموصلى
على سبيل الاستظهار . ولما شاهد أهل بغداذ اختلافهم واختلالهم .
واختلاطهم واختباطهم . فتحوا أبواب البلد . وهتفوا بارباب الجلد . ونادوا
بشعار أمير المؤمنين ونصره . وزحف العالم فى بره وبحره . وجذفت السفن
الخفاف بمن خف من الرجال . وهجم الحق على الباطل بالابطال . والقوم
مشغولون بانفسهم . حائرون لما عراهم من تمكسهم . ومن حصل منهم فى
الجانب الشرقى . لاطريق له الى الجانب الغربى . فتقحم البغداذيون على الدار

السلطانية وأجلوهم عنها . وأبعدوهم منها . ودخلوها ونهبوا ما فيها من الأموال المودعة . والأثقال المجمعة . وعاثوا في بضائع التجر وودائع السفر . ولما لم يبق في الدار شيء قلعت أبوابها . وقطعت أسبابها . وانصرف القوم هائبين . خائبين سادمين . نادمين . وشغلوا عن أثقالهم . وثقلوا باشغالهم . ووقفوا على صهوات الخيل . الي دخول الليل . ثم سروا وأدلجوا . وعرّجوا الى تلك المسالك ولم يعرّجوا . وسار من بالجانب الغربي من عساكر همذان وآذربيجان مع عسكر الموصل للضرورة . ودفعوا الي ما لم يقدروه ولم يخطر لهم من الاخطار المقدورة . وأصبحت بغداد وقد أتاها الله بالفرج . وقرن بهاءها بالبهج . وأحكم حكم نصرها من الطائفة بالحجج . وأنجي أهلها في سفينة السكينة من طوفان الفتن المتلاطمة اللجج . وغيض الماء وقضى الامر . ونصر الحق وحق النصر . وكف المقتفي عن اقتفاء المنكفين . وستر على المستترين منهم في المحال والمختفين . وانتشرت عساكر أمير المؤمنين في البلاد . واستبشرت بالنصر المعتاد . وعرفت الاعاجم انه لا مطمع بعدها في بغداد . قال : وكنت حينئذ ببغداد . وحبرت قصائد في هناء الامام واستخدمني الوزير عون الدين تلك السنة في النيابة عنه بواسط فنقلني من المدرسة الى العمل . وعطلني عن الاشتغال بالعلم وظن انه حلاني بشغله من العطل .

ذكر وفاة السلطان سنجر بن ملكشاه بن ألب ارسلان بن داود بن ميكائيل بن سلجق وشرح نبذ من (أحواله من ابتداء عمره الى خاتمة أمره)

قال رحمه الله : توفى سنجر يوم الاثنين رابع عشر شهر ربيع الاول سنة ٥٥٢ بعد خلاصه من أيدى الغز وكان مولده بظاهر سنجار يوم الجمعة لخمس بقين من رجب سنة ٤٧١ وولاه أخوه بركيارق بلاد خراسان سنة ٤٩٠

ذكر السبب فى ذلك

قال : كانت بلاد خراسان فى أيام ملكشاه ساكنة الممالك . آمنة المسالك . مشحونة الاطراف بالشحن . مسكونة الاكناف بالسكن . موطنة الديار بالابرار . دارة المواطن بالمبار ونظام الملك بنظام الملك مستتب مستدِفٌّ . ونائله لذوى الفضل مُستَكِف ولذوى الجهل مستكِفٌّ . وما بخراسان رأسان . وما تسلط بها سلطانان . فلما استشهد النظام . وأباح حمي ملك ملكشاه الحمام . انفسخت تلك العقود . وانتسخت تلك العهود . واستشرى الشر . واستضرى الضر . واستولى كل صغير على كبير . وكل مأمور على أمير . وكان

للسلطان ملكشاه أخ يقال له ارسلان ارغون وكان مقطعاً بمبلغ سبعة آلاف دينار فى نواحى همذان وساوه فقيل له الي كم تلزم مرارة العُطلة والقناعة. وتهجر حلية الملك والحلاوة . وحركوا ساكنه . وبعثوه على شغل أخلى عنه مساكنه . فنزل عن قراء القرار . وركب مطا المطار . واشتد بطل الطالب . وشد لبب الخبب . وجاء الي نيسابور فما تمكن منها . ودفعه أهلها عنها . فصدع مروة مرو . وقال أملكها ولا غروَ . فانقاد لامره الامير قودَن شحنتها . وجعلت تحت مكنته أمكنتها . فقوى ارسلان ارغون بقودن . فانه وجد الجواد وعدم الكوْدن . واستولي على بلخ وتِرمذ وصفت له خراسان . وحيزت بلدانه البلدان . وكتب الى ابن أخيه السلطان بركيارق «انى قد ملكت موضع جغرى بك داود جدّى . بجدى وجدى . وقد رضيت به رضاء قانع . وأنا فيما سواه غير طامع ولا منازع . وانا باذل لما تطلبون . وحامل لما فيه ترغبون» فرأى بركيارق انه بالعراق فى شغل شاغل . وهم زائد غير زائل . فأمسك عنه . وأظهر انه قبل منه . ثم بدا له وآثر قتاله وكان عنده عمه الآخر بورى برس بن الب ارسلان فأنهضه لقتال أخيه وضم اليه مسعود ابن ماجر وأمير آخر التونتاش . واجتمعت عليه عساكر خراسان فطار من النشاط وطاش . وحث العزم البطاش . فأما مسعود فان التونتاش توهم منه بما قيل له . ففتك به وبولده . وصار الامر كله فى يده . ووزر للملك بورى برس عماد الملك أبو القاسم بن نظام الملك فوضع ورفع . وفرق وجمع . وخرق ورقع . وضيق وأوسع . وصاف بورى برس أخاه ارسلان ارغون وصدمه . وحط عليه وحطمه . وهز طوده وهزمه . فعاد ارسلان ارغون الى بلخ مكسوراً مخسورا . وأقام بورى برس بمكانه منصوراً مسروراً . ثم

أرسل ارسلان ارغون الى الاطراف والاوساط وحشد وحشر ونهض الى مرو وفرض مروتها . وحط ذروتها . وفتحها عنوة وهدم سورها . وقتل جمهورها . وبرز بورى برس من هراة لقصد لقائه . وحفظ البلاد من بلائه . فزحف العسكر الى العسكر . وطن الذباب فى المغفر . وضبح الثعلب فى لبة الغضنفر . وجنى ثمر النصر من ورق الحديد الاخضر . وطارت فراخ الجماجم الى أوكار المقل . وأدمت لواحظ السهام من الخدود . مواضع القبل وبرز البوار لبوري برس وكسر . وأدرك وأسر . وحمل الى اخيه ارسلان ارغون فما رق له ولا رفق . فاعتقله في ترمذ ثم خنقه . وأخذ وزيره عماد الملك ابن نظام الملك وصادره على ثلثمائة الف دينار ثم قتله . ولم يترك سوءاً الا عمله لا جرم أخذه الله وأقدر عليه قدره . وساط على صفوه كدره . فانه عاد الى مرو وظن انه ملك . وان خصمه هلك . فقال له منجمه « أرى عليك قطعاً . وأنت لا تملك لما قدر دفعاً . والحزم تحرزك وتحرسك الى أن تؤمن المخافة . ولا تخشى الآفة » فاحتجب عن اصحابه . واغلق رتاج ابوابه . ولم يدع الا مملوكا صغيراً كان به يأنس فانتظره . وانكر تأخره . فلما حضر عاتبه كيف ابطأ . وعاقبه حيث اخطأ . فضربه الغلام بسكين معه وصرعه . فقضى موضعه . فلما قيل للمملوك لم فعلت مافعلته . وعلام قتلته . قال « اردت ان اريح الخلق من ظلمه . وكان هذا بقضاء الله وسابقاً في علمه » وقتل ارسلان ارغون فى سنة ٤٩٠ وسنه ٢٦ سنة

وكان السلطان بركيارق لما عرف استيلاء عمه على خراسان قلدها اخاه ابا الحارث سنجر . ورتب معه العسكر . فوصل الخبر بمقتل عمه فكفى قتاله . واستصوب انفاذ اخيه وارساله . وسار ومعه سنجر فلما وصل الى دامغان

وصله الخبر ان اصحاب عمه قد اجلسوا مكانه ولدا صغيراً له . فلما علموا بمقدم سنجر نهضوا بالصبي وهو ابن سبع سنين وطلبوا من السلطان بركيارق لما عرفوا قربه منهم له الامان . واظهروا له الاذعان . واحضروه عنده فاكرمه . واحترمه وقدمه . وكان وصول الصبي فى خمسة عشر الف فارس وقد استصغروه . ونهبوا خزانته وافقروه . واقطعه السلطان بركيارق فى نواحى الرى وهمذان . ودخل بركيارق الى خراسان . وبلغ الى ترمذ واستولى على جميع بلاد خراسان ونفذ فى سمرقند امره . وولاها الخان سليمان تكين ثم لمحمود تكين بعده . ثم اقرها على هارون تكين وحده . وأطاعه ابراهيم صاحب غزنة . وأعطاه الله فى البسيطة المكنة . وبقى سنجر معه لا متولياً متحليا . ولا موليا متخليا . بل عليه اسم الولاية . وعقد الرأى والراية . حتى سمع السلطان بركيارق عن العراق بما تم من التتوق . وماوهى به من عقد الوثوق .

ومضى مؤيد الملك بن نظام الملك الى جنزة . لبعث السلطان محمد بن ملكشاه على طلب المملكة . وحثه على الحركة . فسار محمد الى الرى وبركيارق بها . فلما وصل محمد اليها فارقها . وأخذت امه زبيدة خاتون فحبسها السلطان محمد وخنقها . ومضى بركيارق الي بغداد على طريق خوزستان وواسط واتصل به سيف الدولة صدقة بن منصور . وعاد الى بلده بوفر ووفور . وحباء وحبور . وعاد اليه كوهرائين وكربوقا فخرج على طريق شهرزور واجتمع عليه من التركمان خلق كثير وحارب أخاه محمداً بموضع يقال له كور شنبه فانهزم . وانفل حده وانثلم . وسار فى خمسين فارساً الى أسفرائين ثم تم الى نيسابور . واستنجد الامراء واستجدّ الامور . وقبض على وجوه البلد وأماثله . وأخنى على أعيانه

وأفاضله . ومات فخر الاسلام أبو القاسم بن الامام ابى المعالي الجويني فى اعتقاله . وكان السلطان سنجر حينئذ ببلخ مع رجاله . ومعه الامير كندكز وأرغش وكان قد استولى على معظم بلاد خراسان رجل يقال له حبشى بن التونتاق . وقد شق العصا بالعصيان والشقاق . وهو مقيم بالدامغان . وتحت استيلائه أكثر بلاد خراسان وطبرستان . وجرجان . ومعه قلعة كردكوه . وقد تطارق منه المكروه . فنهض سنجر فى أرغش وكندكز الى قتاله . وهو فى عشرين الفاً من رجاله . ومعه خمسة آلاف فارس من الباطنية أصحاب اسمعيل الكالكى صاحب طبس . وقويت قلوب السنجرية بوصول السلطان بركيارق فاقدموا اقدام الليوث . واستهلوا استهلال الغيوث . وصدموا الاطواد بالاطواد . وأنكحوا الهام بنات الاغماد . وكانت الكرة عليهم ثم صارت لهم . واستحلوا قتالهم وقتلهم . ووقع حبشى فى الهزيمة الى بعض القرى فاخذ وأثخن . وحمل الى الاميرين أرغش وكندكز فاعتقلاه . وبذل عن نفسه مائة الف دينار فلم يقبلاه وقتلاه

وعاد السلطان بركيارق الى العراق واتصل به جاولي سقاوو وايتكين النظامى واصبهبد صباوه ثم جاء الامير اياز فى خمسة آلاف فارس مدرع مقنع . وقصد همذان وهو فى خمسة عشر الفاً وأخوه السلطان محمد بها فى سبعة آلاف فاصطدما والتقيا . واحتدما واصطليا . وتجلت الوقعة عن هزيمة السلطان محمد . وأفلت منها بجمع مشرد . وأسر مؤيد الملك وقتله بركيارق بيده تشفيا منه بقتله . لما سبق اليه من سيئات فعله . وانتزح السلطان محمد الى جرجان واتصل الخبر باخيه سنجر فاغتم له واهتم . وساء ماتم . وأنفذ اليه مالاً كثيراً من نيسابور . ثم سار لالقياه ولقيه بجرجان وصحبه الى بغداد .

وجملا دار الخلافة المعاذ والمعاد . وجلس الامام المستظهر لهما . وأفيضت الخلع عليهما . وعقد الخليفة لهما اللواء بيده . واستقام كلاهما من الملك على جدده . ورحل سنجر على سمت خراسان عائداً . وتأهب محمد لقتال بركيارق عامداً . وتصافا بقرب روذراوَر ثم افترقا من غير قتال . واتفقا بعد ذلك على صلح وإصلاح حال . ثم انفسخ بينهما عقد السلم . وجرى كلاهما من قصد أخيه على الرسم . ووقعت بينهما بالري وقعة أخرى . واتصلت بين العسكرين رسل المنايا تترى . وحوصر السلطان محمد باصفهان فراسله الملك مودود بن اسمعيل ابن ياقوتي بن ميكائيل يعده بالاتصال به . واسعافه في تصرفه بمطالبه . فخرج السلطان محمد من الحصار ومضى صوب أرّانية واخترم مودود قبل اجتماعه به . وقوي محمد بعسكره . فسار بركيارق لحربه والتقيا على باب خُوَى في جمادى الآخرة سنة ٤٩٦ وانهزم محمد الى بلد آني . ثم توسط بين الاخوين الاقاصي والاداني . وقسم الملك بينهما قسمين واستقر ان يكون للسلطان محمد ماوراء النهر الابيض المعروف باسفيذروذ مع الموصل والشام . وعاد الملك بهذه القسمة الى النظام . وخطب لبركيارق ببغداد واصفهان وجميع العراق . وسائر الاقطار والآفاق . فلما سكن الى قدرته حركه القدر . ودنا من ورد عمره الصدر . وتوفي ببروجرذ في شهر ربيع الآخر سنة ٤٩٨

عود الى حديث سنجر

قال واستمر أمره بخراسان وقويت سلطنته . وتسلطت قوته . فقدر قدر خان صاحب ماوراء النهر . انه ان عبر الى بلاد خراسان ملكها بيد القهر . وطمع فى سنجر لصغر سنه . ودار تسويل هذا السؤال فى ظنه . وكان الامير كندكز يكاتبه . وعلى التأخر يعاتبه . فعبر النهر فى مائة الف يضيقون الفضاء الواسع . ويحققون القضاء الواقع . وهو لقصد سنجر مصمم وللقائه مقدر . فاتفق ان قدر خان خرج عن عسكره متجرداً . وبخواصه متفرداً . وبعد عن مخيمه في ثلثمائة فارس متصيداً . فعرف سنجر الفرصة فيه فأدركها وانتهزها . واعتد انفراده غنيمة فملكها واحرزها . وأنهض اليه برغش اسفهسلار عسكره فى عدة منتخبة فتصيده من متصيده . ووقع فى يده وقد سقط فى يده . وسهل على سنجر من أمره ما عده عسيراً . وحمل قدر خان وأحضر بين يديه أسيراً . ثم أمر به فضرب عنقه وتفرق جمعه . وانطفأ شمعه . وعاد السلطان سنجر الى مقره . وطلع فيلقه بفلقه . وذلك فى حياة أخيه بركيارق قبيل أيام وفاته . وساعده السعد من جميع جهاته

ثم استمرت سعادته وسعدت أموره . وأنارت مطالعه وطلع نوره . وقصده برامشاه من أولاد السلطان محمود بن سبكتكين اليه لاجيا . ولانجاده راجيا . ولشقيقه المستقر على سرير ملك غزنة مشاققا مداجيا . فرعى وفادته . ورأى افادته . وآثر ايثاره في اجارته واجابته . واختار اختياره

فى اغاثته واعانته . فجعل غزنة مغزاه وبلغ الخبر الي السلطان محمد فلم يحمده وكتب اليه ان « هذا بيت كبير فلا تقصده » فرد نصح الاخ . واستمد لاصراخ المستصرخ . وذلك فى سنة ٥١٠ وخرج صاحب غزنة وجر ذيوله . وأجري سيوله . وصف خيوله . وزف فيوله . وجاء سنجر والجتر على رأسه خافق . والنصر لميمنه مصافق . وكان لصاحب غزنة خمسون فيلا قد صفها بين يدي صفوفه . وألفها قدام الوفه . وعليها الكماة الحماة . وذوو الحمية الرماة . وكادت تصح على سنجر الكسرة فان الخيول نفرت من الفيول . حين أقبلت كالسيول . فترجل الامير أبو الفضل صاحب سجستان . وتهور فى الاقدام . ودخل بين قوائم الفيل الاعظم فشق بخنجره بطنه فصاح الفيل وولى ظهره . واتبعت الفيلة أثره . فانهزم العسكر الغزنوى . وانتصر الحرب السنجرى . واحتوي على أموال غزنة وخزائنها . وحصل على ظواهرها وبواطنها . وكان ملك آل محمود من اول عهده بكرا لم يفتض . وختما لم يفض حتى اتى سنجر وكسر سكره . وهتك ستره

فلما استصفى أموال غزنة وفرغ خزائنها المملوة . ونفض كنوزها المحشوة . نصب بهرام شاه على سريرها وأمره . وقد خربها بتعميرها وشغل ذمته بما يؤديه اليه كل سنة من قرار . وهو مائتان وخمسون الف دينار . وكتب الى أخيه السلطان محمد ببشرى الفتح . ويسرى النجح . فوجم لذلك وكان في مرضه الذى شفله . وسقمه الذي نهكه وانحله . وتوفى بعد ذلك بسنة وقوى سنجر . واجتمع عليه العسكر . وقصد بعد ذلك بسنتين سمرقند . واجتنى جناها الجند . وذلك بعد تطويل حصر . وتضييق عصر . وكان صاحبها احمد خان . الكبير الشأن . الاثير السلطان . وهو الذى كان له اثنى عشر الف

مملوك تركي وكان لا يترك غزو الترك يتوغل فى بلادهم مسيرة شهرين . وينثني ظافر اليد قرير العين . ثم أصابته علة الفالج . وأعيى طبه على المعالج . وبقي سنجر ستة اشهر يحاصره . ويضايقه ويصابره . الى أن اخرج اليه احمد خان . فى محفة يحملها الغلمان . فاجلس بين يديه ساعة . وهو لا يجد للكلام استطاعة . ولعابه سائل . وشدقه مائل . ثم حمل الى دار الحرم للقرابة التى بينه وبين تركان خاتون زوجة سنجر . وولى نصر خان مكانه . وأحيي به سلطانه

ثم غدر صاحب غزنة الملك بهرامشاه بعهد سنجر ونكل عن ضمانه . فعزم على التوجه الى غزنة ثانيا . ولاعنة جيوشه وجنوده اليها ثانيا . ونهض اليها ولما بلغ الى بَسْت عسر عليه الوصول . وحالت الوحول . وتعذرت المألوفات . وكان التبن اعز من التبر . والشدة جاوزت حد الصبر . فما اكترث بذلك وتهور وأقدم فبهر بهرامشاه رعبة . وابعده الى لهاوور قربة . ووصل سنجر الى غزنة مغيراً . ولكأس الدوائر عليها مديراً . وسلبت أموال وأرماق ونهبت محال واسواق . ولما انحسر الشتاء ورتب امور غزنة عاد الى خراسان ولما توفى اخوه السلطان محمد بالعراق فى سنة ٥١١ وتولى ابنه محمود السلطنة وحدثت تلك الحوادث احتاج سنجر الي الالمام بالعراق فجرت الوقعة التى قدمنا ذكرها . واوضحنا عرفها ونكرها . وما عاد سنجر الا وقد خطب له بالعراقين وبالشام والموصل وديار بكر وديار ربيعة والحرمين . وضربت الدنانير باسمه فى الخافقين . ويلقب بالسلطان الاعظم معز الدنيا والدين . وولى ابن أخيه محمود بن محمد عهده بالعراق ونعته بمغيث الدنيا والدين . وقد ذكر وصول سنجر الى العراق في أيام محمود نوبتين . وفى عهد طغرل وفى عهد مسعود دفعتين . لكنه فى زمان مسعود لم يتجاوز الريّ

ذكر وزراء السلطان سنجر بخراسان

قال رحمه الله: كان من كتابه المخصوصين به في صغره العميد أبو الفتح ابن أبي الليث وصل معه الى بغداد في ثامن شوال سنة ٤٨٩ ومع سنجر آتابكه كج كُلاه وذلك في عهد أخيه بركيارق وابتداء خلافة الامام المستظهر واستوزر عند مضيه الى خراسان فخر الملك المظفر بن نظام الملك وكان مبر المبرة . سري الاسرة . منصور الصحبة . مصحوب النصرة . ورزق التأييد والتمكين . ومشي الامور عشر سنين . وقتل يوم عاشوراء من سنة ٥٠٠ واستوزر بعده ولده صدر الدين محمد بن فخر الملك فكفى المهم . وشفى الملم . ونظم المنثور . وضم المنشور . وقتل ببلخ غداة الاربعاء لسبع بقين من ذي الحجة سنة ٥١١

ذكر السبب في ذلك

قال: كان للسلطان سنجر مملوك يقال له قايماز قد استحسنه واستخصه واشتهر بحبه واستخلصه . وقد أصبح به صباً . وشغفه حباً . وتسحب على السلطان بدلاله وادلاله . وما صار يبالي لعمله باشتغال باله به بشغل باله . وكان هذا المملوك يعرف بكج كلاه . اى مائل القلنسوة . وكان الوزير ابداً ينهاه . ويرده الى نهاه . وقال له يوما « ان عقلت والا دبرت في تسويتك وقومت ميل قلنسيتك » فقال له غير مكترث بوعيده . وقابل تهديده

بتهديده «اما ان تسوى قلنسوتى وإما ان أسوى عمامتك» فاتفق ان السلطان كان فى ضيافة الوزير واصطبح واغتبق عنده ثلث ليال . فلما كان فى اليوم الثالث والسلطان فى سورة راحه . وسكر اصطباحه . وقدذهب ذهنه . وضعفت قوة تميزه . وعينه فى عين المملوك ويده في يده وقد ملكه بغمزته وتغميزه . فغافله ونزع خاتمه . وساره امره وكاتمه . وقام ومضى وهو حاقد والوزير في حجرته راقد . وقال « استأذنوا لى عليه فقد جئت من عند السلطان بمهم اليه » ولجّ حتى ولج . وكل من كان حاضرا بدخوله خرج . فلما استخلى المجلس . واصغى الوزير له واستأنس . حز رأسه وعلقه من يده ودخل على السلطان ووضعه بين يديه فصحا سنجر وهاله ماجرى من اجترائه واجتراحه . وأخافه ماتم من اقتحامه واقتحاه . واستدعى الامير قماجا . وهو أوضح اصحابه في الرأى منهاجا . وقال له سرا « انظر الي ما صنعه هذا المؤاجر بوزيرى . وقد نغّص علىّ سرورى وسريرى . فاخرجه من عندى على وجهه سحباً . وقطعه اربا اربا » فقال له « هذا أمرٌ فظيع . وصنع شنيع . وحفظ الناموس يوجب ان لايعرف احد من رعية بلدانك . ان مثل هذا الامر يتم فى سلطانك . بغير استئذانك . فاظهر انه جرى باذنك . وصن جاهك واحذر من وهنك . واركب الآن الي دارك . وارجع الى قرارك » فقبل النصيحة وكتم الفضيحة . ثم أمر بعد مدة بقتل ذلك المملوك اسوأ قتلة . ومثل به أقبح مثلة

واستوزر بعده ابن أخي نظام الملك وهو شهاب الاسلام . عبد الدوام . ابن الفقيه عبدالله بن على بن اسحاق وكان ذا فضل وافضال . وقبول واقبال . وبأس ونوال . متبحراً فى علم الشرع . متكلما في الاصل والفرع . وصارت

للفقهاء في زمانه سوق . وظهرت بهم حقائق وحقوق . ولم يزل مقصدا للفضلاء ومفضلا على التصاد . سديد الامر آمرا بالسداد . وتحلى الملك بحلاه . وتجلى بسناه . الى ان توفى بسَرَخْسَ يوم الخميس السابع عشر من المحرم سنة ٥١٥

وتولى الوزارة بعده أبو طاهر سعد بن على ابن عيسى القمى وكان وجيه القدر . نبيه الذكر . وكانت وفاته يوم الاربعاء الخامس والعشرين من المحرم سنة ٥١٦

وتقلد الوزارة بعده الكاشغري وصرف عنها فى صفر سنة ٥١٨ وتقلد الوزارة بعده معين الدين مختص الملك أبو نصر أحمد بن الفضل بن محمود وقد تقدم ذكر فضله . وشكر نبله . ولقد كان أمجد الاجواد. وأجود الامجاد . وهو الذي حسب أيام عمره . ورد كل مظلمة جرت على ذكره . واستدعاه السلطان سنجر لافتقار ملكه اليه وعول فى وزارته عليه . وفتكت به الباطنية يوم الثلاثاء التاسع والعشرين من صفر سنة ٥٢١

وقلد الوزارة بعده نصير الدين أبو القاسم محمود بن أبى توبة المروزى وكان أوزر الفضلاء . وأفضل الوزراء . ولم يزل للافاضل جامعاً . وللاراذل قامعاً . وقصده أهل الفضل . وآواهم بالاحسان الوافر الى وارف الظل . وخدمه العلماء بمصنفاتهم . وخصوه بمضافاتهم . وصنف له عمر بن سهلان كتاب البصائر النصرية . وهو الكتاب الذى لم يصنف مثله فى فنه . ولم يسبق الى احسانه فيه وحسنه . قال : وأنشدنى باصفهان شيخنا جمال الدين عبد الرحيم بن الاخوة الشيبانى البغدادي من مدائحه فيه عند سفره الى خراسان . واجتدائه منه الاحسان . قوله من قصيدة مدحه بها بنيسابور

ليلة عيد الفطر سنة ٥٢٥

خَلِّ الظَّلامَ لأيدي الضُّمَّرِ القُودِ   يهتكن ما انبث من أثوابه السود
اللَّيْلُ والنَّاجياتُ الضمرُ أخلقُ بي   اذا تصاريف أزماني جنت عودي

ومنها

وَللقواضب مني هيبةٌ وسمتْ   بهنَّ ما ازورَّ من هامِ الصناديد
قَرْعُ الظبي بالظبي أشهى لسامعتي   من مُسمِعٍ خنث الاعطافِ غريد
والأعجبان وأحوالُ الورى عجبٌ   غُمْرٌ معنّي وحُرٌّ غيرُ مكدود
ومنتشين على الأكوار رنحهمْ   سكْرُ الكرى لا مجاجاتُ العناقيد
اذا اطمأنتْ بهم أرض نبتْ بهم   حاجٌ تلاعبُ بالمهرية القُود
شاموا بُروقَ الغني واشتفَّ أنفسهم   تَطلّعٌ نحو لا بأسٍ ولا جُود
حتى أطَبَّاهم وقد كانت عزائمهم   ندى الوزير نصير الدين محمود

لين السجايا وفي أثنائها شرس   والماء والنار يكتنان في عود
والمرء والسيف مالم يبديا أثراً   حي كميت ومسلول كمغمود
فذاك والافق مغبر هياد به   أروى لعافيك من وطف المراعيد
كما يراعك والهيجاء كالحة   يغني عن السمهريات الاماليد
اذ اعتلى صهوة القرطاس ضاحكة   آثارك البيض في آثاره السود
فدم بما يكمد الاعداء مغتبطاً   يفضي بك السعد من عيد الى عيد

قال: وصرف عن الوزارة في سنة ٥٢٦ عند وصول سنجر الى العراق بعد وفاة ابن اخيه السلطان محمود بن محمد وترتيب السلطنة لاخيه طغرل بن محمد مكانه. وكان القوام ابو القاسم الدركزيني مستولياً على الدولة وسأل

السلطان سنجر أن تكون وزارته باسمه. وتجرى رسومها برسمه. ويكون هو بالعراق لشغل طغرل مدبراً. وعلى توفر ماله وجاهه متوفراً. ويستنيب في الحضرة السنجرية من يكفل باٴمورها ويكفي. ويكلف بمصالحها ويشفي. فاجيب سؤله وأصيب سؤله. وعزل العالم وولي جهوله. وصرف ذلك الفاضل بهذا الناقص. وراج المغشوش بكساد الخالص. وتقلد نيابة الوزارة عن الدركزيني ظهير الدين عبد العزيز الحامدى. وكان عبد العزيز هذا يسكن اليه سنجر لامانته وديانته. وهو المعول عليه فى خزانته. وهو يناظر الوزراء في قرب مكانه ومكانته. وانما فوض اليه الدركزيني نيابته لانه علم ان الامر بغيره لا يتمشى. وان ثوب الملك بدون طرازه لا يتوشى. ولما صلب الدركزيني وضربت رقبته بالعراق. تقلد الوزارة السنجرية ناصر الدين طاهر بن فخر الملك بن نظام الملك فى جمادى الاولى سنة ٥٢٨. واستمرت وزارته الى آخر العهد. وكان في تقويم ماتأود واصلاح مافسد باذلا للجهد. وتوفى بعد مجيء الغز فى ذى الحجة سنة ٥٤٨

ذكر جماعة من خواص سنجر ومماليكه احبهم ثم سلاهم ووضعهم بعد ان أعلاهم

قال رحمه الله : كان من عادة سنجر ان يشتري غلاما اختاره ثم يتعشقه ويشتهر بحبه . ويستهتر بقربه . ويبذل له ماله وروحه . ويجعل معه غبوقه وصبوحه . ويملكه حكمه . ويوليه سلطانه . فاذا نسخ الليل نهاره . وسيج البنفسج جلناره . سلاه وقلاه . وتخلى عنه وخلاه . وانتهي فى مقته الى ان لا يرضى بهجره بعد وصله . ورأى الراحة منه فى قتله . ومن جملة أولئك مملوك كان لصير فى اسمه سنقر . فعشقه سنجر قبل رؤيته فاشتراه بالف ومائتى دينار ركنية . بعد تشريف لمالكه وعطية سنية . وحكي عن ظهير الدين عبد العزيز خازنه انه قال استدعاني سنجر يوما وقال انى آمرك بما هو اوفق خدماتك . وأوثق لحرماتك . فانهض فيه بثباتك . وأنت فيه الممكن بوأتك . فأجبته بالسمع والطاعة . وبذل الوسع والاستطاعة . فقال « هذا مملوكي سنقر الخاص قرة عيني وثمرة فؤادي . وريحانة روحى ونتيجة مرادي . وهذه خزانتى تحت ختمك . ومالى بحكمك . وحمول غزنة وخوارزم قد وصلت فاقبضها . وبذول الممالك قد عرضت فاستعرضها . وهذه خدمتي التى آمرك بها في حقه لا ترفضها وافترضها . ولا تستأذنى فى شيء ولا تستأمر . وقدم هذا المهم واستخر الله فيه ولا تستأخر . اريد ان تضرب له سرادق كسرادقى . وتجرى له سوابق كسوابقى . وتشترى له ألف مملوك

يمشون فى ركابه . ويعشون الى جنابه . وتحل اقطاع من رأيت حل اقطاعه وتعقده عليه . وتأخذ بلد من شئت وتفوضه اليه . وتجمل له خزانة كخزانتي بالمال مملوءة . وباجناس الصياغات الذهبية والفضية مجاوة . وتجعل له ديوانا مجملا باماثل الكتاب . وأفاضل النواب . بحيث يكون بعد اسبوعين صاحب عشرة آلاف فارس» . قال فاستمهلته ثلاثة أشهر فما أمهل . وأمر بترك الريث واستعجل . فما زلت به حتى فسح لي فى مهلة شهر ونصف وشرعت فى الامر وأنفقت على ماقدره فى عشرين يوما سبعمائة الف دينار ركنية . وذلك سوى مانقلته اليه من الخزانة من الآلات الحربية . والثياب المعدنية . وذلك سوى الاقطاعات . والولايات والتقريرات . ثم أخبرته ولم يمض الشهر بانه قد استمر الامر فركب السلطان سنجر فرأى العساكر صفوفا . والخيل صفوفا . حول سرادق سنقر الخاص فرأي رواء ظاهرا . وبهاء باهرا . قال : فعانقني وشكرني . ونوه بي وذكرني . وفوض الي أمر خزانته . وأمرني بتحصيل مطالبه . ووصى كلا منا بصاحبه . قال : فلم يمض سنتان حتى اشتعلت نار خده فى الدخان فشنف . وأنف . وعاف وعزف وسنقر يزيد فى التسحب عليه والتبسط . ويستديم مع عادة التسلي عنه عادية التسلط . وزاد فى غيظ الامراء . واستحقار العظماء . واستصغار الكبراء . وهو لا يبالى بسنجر اذا توعده . ولا يلتفت اليه اذا تهدده . فاستدعى السلطان يوما جميع أمرائه الي حجرة مفردة مفردين . ومن جميع أصحابهم سوى سلاحى واحد مجردين . وقال لهم واذا دخل سنقر الخاص اليكم ضعوا فيه بأجمعكم السكاكين فبادروا الي ماأمروا به وامتثلوا . ووثبوا اليه ومثلوا . وعاد ذلك الضياء ديجورا . وذلك البهاء هباء منثورا

قال : ومنهم قايماز كج كلاه قاتل وزيره . وقد آل تعظيمه الى تصغيره . ومن جملة من حباه بحبه . واختصه بقربه . الامير المقرب الاجل اختيار الدين جوهر التاجي وكان مملوك أمه ومن خواص خدمها وكانت توفيت أم سنجر في شوال سنة ٥١٧ فانتقل هذا الخادم الى خدمة سريره . ثم غاب حبه على ضميره . فغلب بذلك على تدبيره . ورقاه الى ذروة لم يتسنمها أحد قبله . وأسماه الى رتبة لم تر فيها عين مثله . وبلغ عسكره ثلاثين ألفاً ثم مل السلطان طول مدته . ودبر في أخلاق جدته . وضاق مجال احتياله . فدس الباطنية لاغتياله . ونمى الى جوهر تعرض جوهره لان يصير عرضاً . وعلم ان غرض السلطان ان يصير لسهم الحتف غرضاً . فاخفى التي علمها . وأسرها في نفسه وكتمها . فقال السلطان له يوما (ياجوهر اني أخشى عليك هؤلاء الملاعين فتحرز منهم وتحفظ . وتحزم لامرك وتيقظ) فقال له (لو أمنتني من نفسك ما خفت أحداً . وما أردت في دفع غائلة القوم مدداً) فاحتمل السلطان مقاله . ورأى احتماله . وركب جوهر ضحوة من داره . وخرج خروج القمر من سراره . وفي ركابه الف سيف مسلول . فلما نزل في دهليز دار السلطان وكماته حواليه . وحماته من ورائه وبين يديه . قفز اليه نفر من الباطنية . وضربوه بالسكاكين وأزاروه قادم المنية . ولما ارتفع الصياح قال سنجر وهو في دار حرمه (هذا جوهر قد قتل) فعلم ان ذلك باذنه عمل

قال : وكان عاقلا متأنيا . أريباً متهديا . ومن نكته المستحسنة ان السلطان كان أمره ببناء قبة عالية في مرو يكون فيها ضريحه . وينضد عليه بها صفيحه . فوصل الى مرو ورآها غير مفروغ منها فقال (ياجوهر متى تتم هذه القبة)

فقال (لا أتمها الله) فابكى الجماعة بما ذكره . ولطف موقع قوله عند السلطان وعذره

﴿ ذكر علو همة السلطان سنجر وكرمه

واسهام أصحابه وأمرائه من نعمه ﴾

قال : كان حليما حييا مليا . بالعرف وفيا . كبير النفس اريحيا . معاديا للملهوف . مسديا للمعروف . مفرقا بالاقلام ما جمعه بالسيوف . ذكر عنه انه اصطبح خمسة أيام متواليات ذهب بها فى الجود كل مذهب. وأتى على معظم مافى الخزائن من عرض وذهب . فبلغ ما أعطاه من العين سبعمائة الف دينار أحمر . وجاء ما وهبه من الخيل والخلع أكثر . وعوتب على اسرافه فقال «اما رأيتمونى افتح أقليما يشتمل على اضعاف ما وهبته من المال . واهبه بكلمة واحدة لمن أراه قبل السؤال . فهذا بالاضافة الى ذلك الكثير قليل . وما للملام الىّ فى نهج هذه السبيل سبيل . »

ذكر عن ظهير الدين عبد العزيز صاحب خزانته انه قال أحببت أن يشاهد السلطان سنجر ما اشتملت عليه خزانته . لتظهر كفاية متوليها وأمانته . فقلت له أخدمك بالف ثوب أطلس حتى تبصره . وتستعرض صامته وناطقه فسكت وظننت انه رضى بما ذكرته . فجئت الى الخزانة وأبرزت مافيها واظهرته . وكان فيها مالم يجتمع قط فى خزانة سلطان قبله من طرائف يعز وجودها . وجواهر تجل عقودها . وصرر اكياس قد ملأت الفضاء نقودها . واعلاق

لا يعرف لها قيمة . وصناديق لآلئ كلها يتيمة . فلما نضدته وأبرزته .. ولفقت كل جنس ونوعته وميزته . جئت وقلت له « اما تبصر مالك . وتشاهد حالك . وتشكر الله الذى خصك به وانالك » فقال « يقبح بمثلي ان يقال عنه انه مال الى المال . او نظر اليه او اخطره بالبال ففرق ما جعلته لى من الثياب الطلس على الامراء . واعرض عليهم ما فى الخزانة من تلك الاشياء . وقل لهم يقول لكم سنجر قد ادخرت هذا لكم . وجمعته لافرقه فى قمع عدوكم وجمع شملكم » قال : ففعلت ذلك ففرحوا واستبشروا . وحمدوا وشكروا . وكان سنجر لا يدخل خزانته ولا يميرها ناظره . ولا يوجد بخاطره منها خطرة . وكان لكرمه يحسن الظن بنوابه . ويسلم حكم القلم الى كتابه . مفضلا على اصحابه . ويقول « ان الدنيا فانية فندعهم يرتعون معنا . ويسعهم من النعم ما وسعنا » وكانت جواهره فى طبول مختومة بختمه . محفوظة باسمه . فاذا اراد منها شيئاً استحضرها . وفض خواتيم اقفالها وأخذ منها . ثم أعادها بختمها الى حالها .

ذكر سبب اختلال ملكه وانحلال سلكه

قال : لما امتدت مدة حياته وأمدت بالطول مادة عمره . تسلط الامراء على سلطان أمره . وتسحبوا على قدره . وحقر الصغير حق الكبير . وتأخر الكبير لتقدم الصغير . واستخف الوقور ووقر الخفيف . وصرف القوى وصرّف الضعيف . ووقع التحاسد بينهم والتحاقد . وارتفع وانحل

التساعد والتعاقد . وكان أكابر الدولة في ذلك العهد سنقر العزيزي وير نقش هريوه وقزل واضرابهم وأقدم منهم قماج وعلى الجتري وقد اختلفت آراؤهم وآرابهم وركب كل منهم ام رأسه . وعض على الاضرار باضراسه . فأول خطا أصاب سنجر كسر الكافر الخطائى له ولعسكره . ورد صفو ملكه الى كدره

ذكر السبب فى ذلك وانكسار سنجر فى حربه مع الخطائية

قال : كانت خيول قزاق فى نواحى سمرقند وقد وفرت اموالهم وانتشرت مواشيهم . وانتشبت غواشيهم وحواشيهم . وخيفت مضرتهم . وخشيت معرتهم . فأشار الامراء على السلطان سنجر بأن يتوجه لدفعهم . ويتنبه لردعهم . والقوم مستمرون على الصلاح لو خلوا . مستقرون من الفلاح على ما اليه دلوا . فمضوا اليهم وضايقوهم فى مراعيهم . وقايضوهم عن محاسنهم بمساويهم . وأسرفوا فى سرقة نسائهم وذراريهم . فانفذوا الى السلطان سنجر وبذلوا له الخدمة بخمسة آلاف جمل وخمسة آلاف فرس وخمسين الف رأس غنم . ليتمسكوا منه باقوى ذمم . وأوفى عصم . وليامنوا على أهاليهم ونسائهم وذراريهم . فلما لم يقبل خدمتهم . ولم تحصل عصمتهم . حملتهم الحمية على الاحتماء بالتحمل . وآل بكبارهم الترحم والحنو على صغارهم الى الترحل . ودخلوا الى بلاد الترك قاصدين حضرة اوزخان صاحب خطا وختن ونعما . ولم يكن في الكفار الخطائية أوسع منه ملكا . وأنظم سلكا . وأوفر عددا . وأكثر عددا . وكان أمره

ينفذ الى حدود الصين فلما وصلت القرلقية اليهم اقلقتهم. وشوقتهم الى الملك وشوقتهم. وأطمعت الكفر في الايمان. واستصرخت على أهل العدل باهل العدوان. وقالوا له « ان الممالك بخراسان وما وراء النهر مشمرة. وان السعادة من سلاطينها متنمرة. وان سنجر قد تخالف عسكره. وكسف معروفه منكره » فوسع الخطائي خطى وسمه. ودبت عقارب كتائبه للسب الدين ولسعه. وأقبل فى سبعمائة الف مقاتل ووصل فى قطع من ليل الكفر المعتكر. ووقع من سيل البؤس المنحدر. والسلطان سنجر فى سبعين الف فارس. لكن التوفيق عليه ساخط. والتايد من حزبه ساقط. فشهد المشركون وحملوا بكراديسهم. واستشهد المسلمون وحملوا الى فراديسهم. وبقي سنجر فى عدد قليل. ومدد كليل. فقال له الامير أبو الفضل صاحب سجستان «قد أحدقت بنا العساكر ودارت علينا الدوائر. فانج بنفسك لاقف مكانك تحت الجتر» فوقف ووقع فى الاسر. واسرت خاتون زوجة السلطان وبقيت فى الاسار. الى أن فديت بخمسمائة الف دينار.

واسر الامير قماج وبلى بكل عسف. ولقى كل عنف. حتى فدي بمائة الف دينار واما الامير ابو الفضل فانه علم الكافر استيلاء اولاده على بلاده: والاحتواء على طرافه وتلاده فحقق اقتراحه. واطلق سراحه. وقال «مثل هذا البطل الهمام. والشجاع المقدام. يجب الابقاء عليه. والاحسان اليه» وهذه الوقعة كانت فى سنة ٥٣٢

قال: واستولى هذا الخطائي على بلاد ما وراء النهر. وحصل المسلمون معه تحت القهر. واستشهد على يده الامام حسام الدين بن البرهان بن مازه رضى الله عنه ببخارا. ولقد كان فى علم الشرع لايبارى ولا يجارى. وهلك اوزخان

وتوات اخته بعده. وتولى تخته وبخته. واستمرت مملكة الخطائية في ما وراء النهر. الى هذا العصر. والولاة مسلمون من قبل ولاية الكفر. قال الفتح بن على بن محمد البندارى الاصفهاني مختصر الكتاب: وتمادت مدتهم فى تلك البلاد. واستيلاءهم بها على العباد. الى أن قيض الله تعالي استئصالهم على يد السلطان السعيد علاء الدنيا والدين محمد خوارزمشاه بن السلطان تكش بن ايل ارسلان بن اتسز بن محمد فانه جرد عزيمته لقطع شأفتهم وقلع ارومتهم واعتنى بشن الغارات عليهم. وتوالى الركضات اليهم. حتى اخرجهم من بلاد ما وراء النهر. وصب عليهم سياط القسر والقهر. ثم توغل ديارهم. وجاس بلادهم حتى قتلهم اجمعين. ولم يبق من الخطائية نافخ ضرمة فى الارضين. وذلك بعد سنة ٦٠٠.

ثم اخذ فى قهر جنس آخر من كفار الترك وهم التتارية وممالكهم تنتهى الي آخر بلاد الصين. فلم يزل عليهم ظافر الجند. منصور الجد. متوغلا مسيرة خمسة اشهر من خوارزم الى بلادهم. باسطا يد السبي والنهب فى ذراريهم ونسائهم. وطرافهم وتلادهم. الى ان اجتمعوا واحتشدوا وخرجوا فاحجم عنهم السلطان فأخذوا بجميع بلاد ما وراء النهر. ثم دخلوا الى بلاد خراسان فخربوا ارباعها. وأخذوا قلاعها وسبوا نساءها. وقتلوا رجالها. وانتهبوا ذخائرها واموالها. وانحاز السلطان عنهم الي بلاد الجبل فتتبعوا أثره الي حدود اصفهان. واخذوا الرى وقزوين وهمدان. وقتلوا جميع من كان فى هذه البلاد. وما تاخمها من الاغوار والانجاد. وكان ابتداء دخولهم الى بلاد خراسان فى اوائل سنة ٦١٧. وجرى منهم على المسلمين من القتل والاسر والقهر مالم يعهد مثله ولم يرد ذكره ابد الدهر. وطالت مدتهم فى بلاد الاسلام وأقاموا فيها على وتيرة واحدة

لايفيقون من سفك الدماء وشن الغارات ثلث سنين الى ان خرجوا من طريق آذربيجان مخربين للبلاد . سافكين دماء العباد . وتوغلوا منها الى بلاد اللان . ومنها الى ارض قفجاق ثم عادوا من تلك الطريق الى بلادهم . والله تعالى يكفى المسلمين شر معادهم . ولا يمكن استيفاء شرح معرتهم . وذكر ماجرى على الاسلام من مضرتهم . الا فى مجلدات طوال لكننا الممنا بذكرها ههنا على اجمال . والحمد لله على كل حال .

عاد الحديث

﴿ ذكر انتعاش سنجر بعد ان عثر وانتقاشه وانجباره ﴾
﴿ بعد ان شيك وانكسر ﴾

قال : وكان عند اتجاه سنجر لجهاد الكافر وقتاله . انتهز خوارزمشاه أتسز بن محمد بن نوشتكين فرصة اشتغاله . فر الى مرو ودخلها عنوة وقتل وجوه أهلها . وحرق بالجور مجاورى حزنها وسهلها . وجلس على سرير سنجر ومد الطغراء ووقع ونهى وأمر ونقل من الخزانة السنجرية صناديق جواهره ولما عاد السلطان عن وجهته عرف خوارزمشاه ان القدر غير مظاهره فرجع الى خوارزم . واستوبل ذلك العزم . ووصل سنجر الى دار ملكه فاستجد الجد وجمع الجنود ونهد الى خوارزم ووصل الى قلعة هزارسف فحصرها . ورمى بالحجر حجرها . وكان له خندق عريض عميق بجمله همه . وكان الماء قد طما به فطمه . وقسم السور على أمرائه فحسروا لثامه . وحققوا انثلامه .

وفتحت القلعة عنوة . وأضحت لما يرام فتحه من القلاع أسوة . وذلك بعد
ان قتل عليها وفيها ألوف . وجدعت أنوف . وتعرفت نوب ونابت صروف
ثم وقع الصلح . واسفر بعد تلك الظلمة الصبح . ورد خوارزمشاه على سنجر
صناديق جواهره التي أخذها من الخزانة بمرو بختمها . وحقق سلامة نفسه
بحق سلمها . وركب ووقف بازاء سنجر من شرقي جيحون . وقد سير
في البر والبحر عسكره المجرور وفلكه المشحون . ونزل بحيث يرى وقبل
الارض . وتقبل الفرض . وعاد سنجر الى خراسان وهو عنه راض
والقدر بنصره قاض . ولم يزل أمره يتمشى . وبرد ملكه بالحسن يتوشى .
الى أن أراد الله شت الشمل . وبت الحبل . فسلب العز . وسلط
الغز . وتحللت عقود الدولة . وتفللت حدود الصولة . وانقضى الدهر .
وقضى الامر

ذكر نوبة الغز وذلك في سنة ٥٤٨

قال رحمه الله : الغز من التركمان طائفة . للضيم عائفة . وكانت في اهتمام
الامير قماج . وهي تحمل اليه ما عليها من الخراج . وأميراها قرغود وطوطي
بك يخدمان الحضرة . ويحضران الخدمة . ومازالت شوافعهم مقبولة .
وذرائعهم موصولة . حتى تجنى عليهم الامير قماج ذنباً تنصلوا منه فلم يقبل .
وتحيلوا في تحليل عقد سخطه فلم يتحلل . وأرضوه بكل طريق وطريف فلم

يرض وضيق عليهم من واسع البسيطة الطول والعرض . واضطرهم الى مضرته . ودفعهم الى الشر لدفع معرته . فاوحشوه وناوشوه . وهارشوه وهاوشوه . ولم يتركوا في جلاده جلداً . وقتلوا له في تلك الوقعة ولداً . فازدادت ضراوته . وثار ثاره . والتهب ناره . وأبرق وأرعد . وأرغى وأزبد وغض غضبه من حلمه . وسد جهله سبيل علمه . وحضر صلحاء القوم في اصلاحه . وانتهوا في البذل الى غاية اقتراحه . وبذلوا له احضار قتلة ولده . وايقاعهم في يده . فابى الا قتلهم وقتالهم . وقلعهم واستئصالهم . وماج قماج في بحره الزاخر . وصرف الى قصدهم أعنة العساكر . فركبوا اليه وأكربوه . والتهبوا به وألهبوه . وهزموه وهشموه . فجاء الى سنجر وهو قلق حنق . وكأنه بالغيظ مختنق . وقال له « قد اختل الملك . وانحل السلك . فان قعدت عنهم أقاموك . وان لم ترمهم ولم ترمهم راموك ورامو ك . فانهض اليهم بجنودك . ورد نحوسهم بسعودك » فلم ير أحد من أولئك الامراء اثارة أحد لذلك الامر . وما شاروا بالشر . وقالوا لسنجر « ان هذا قماجا قد شاخ . وباخ . وخشي وخاب . وأخطأ الصواب . فان أنجدته خذلت . وان هويت هواه لذعت وعذلت » فأنف قماج وشنف وعنف ولم يزل بسنجر حتى صفى صفوه . ونحا نحوه . وأمر أمراءه بالتأهب . وأضرى ضرمه بالتلهب . وسار في جمع كالخضم زاخر . وسواد كليل المحب بلا آخر . فلما عرف الغز انهم غزوا . والى الشر عزوا . وصلوا وتوصلوا . وقالوا نخدم السلطان بخمسين الف رأس . من جمال وأفراس . وبمائتي الف دينار ركنية . وبمائتي الف رأس غنم تركية . ونحضر قتلة ولد قماج . ونلتزم كل سنة بخرج وخراج . وخشعوا ولانوا . وخضعوا واستكانوا . فأغلق سنجر باب

القبول فى وجوه هؤلاء الوجوه . وأبي ان يعاملهم بغير المكروه . فتوهلوا وتوجلوا . وتعزلوا واستقتلوا . ولجأوا الى أرض لايسلك اليها الا فى واد لايسع عرضه أكثر من مائة فارس وأعدوا فى الطرقات الطوقان . على رسم قتال التركمان . ونشروا المصاحف يطلبون أمان أهل الايمان . ثم اشتدوا وشدوا . وأعدوا واستمدوا . وجعلوا الخركاهات كالاسوار محدقة . ونيران النصال من ورائها للحدق محرقة . وصبروا حتى لابسهم العسكر . وفى قلبه سنجر . وامتلأ الوادى بسيل الخيل . واجتاب النهار لباس الليل . وكانت فى المقدمة أمراء خاروا وخاموا . وهموا بنا وهموا وهاموا . واغتنم الغز اضعافهم . وركبوا أكتافهم . يقتلون ويأسرون . ويصدمون ويكسرون . وعز المخلص من المضيق . وفرشت جثث القتلى على الطريق . وقتلوا الامير قماجا وولده وأتوا على العسكر وأفنوا عدده وعدده . وخلصوا الى السلطان سنجر وهو فى خف من خواصه . وجواده قد بخل بخلاصه . فأحدقوا به احداق الاهداب بالحدقة . وحصل في وسط تلك الحلقة المحدقة . وبقى كالمركز فى الدائرة . ووقع فى الايدى الجائرة . ونزل أميرهم وقبل الارض وأمسك بعناده عنانه . وأطلق بدعائه لسانه . وقال « ان قومك فتحوا بالاذية . ولم يحسنوا رعاية الرعية . ونحن خولك حولك . نقول بقبولك ونسمع قولك » وافردوه عن أصحابه . وعوضوه عن عز جماحه بذل أصحابه . ومكث معهم ثلث سنين كالاسير . وقد ارضوه من طعامه وشرابه باليسير . لكنهم يجلسونه على السرير . ويقفون ماثلين بخدمته سوي قرغود وطوطى بك الامير وانتشروا فى البلاد انتشار الجراد . ودب دباهم بالفساد . وأذهبوا الاموال والنفوس . وأعدموا النعم وأوجدوا البؤس . وخربوا مدينة نيسابور وقتلوا

أهلها تحت العذاب . وسفكوا دماء العلماء والائمة فى المحراب . وكانوا يستصحبون سنجر معهم . وهو لايقدر ان يردعهم . وربما خشن عليهم فى القول ونهاهم ونهرهم . وسبهم وسبعهم . وهم لايجيبونه اذا نجههم بالمكروه وأسمعهم

ولما ييس الباقون من عسكر سنجر من خلاصه . ورأوا مضيقاً عليه فى قفص اقتناصه . فرقوا وتفرقوا . وخفقوا وأخفقوا . فهرب منهم فى آخر عمره ووقع الى ترمذ . وأرهف حد العزم وشحذ . فأصابه سهم الاجل ونفذ . فاحضر عسكره سليمان شاه ابن أخيه محمد ليتولى مكانه . ويجد سلطانه فلم يفلح ولم ينجح . ولم يصلح ولم يصلح . فبعد الى الرى ومنها الى بغداد . ولم يجد امره للنفاذ النفاذ . واجمع العسكر على الاتفاق فى تولية محمود خان ابن اخت سنجر واقام بنيسابور متكمنا . حسنا فى هيئته محسنا . وذلك فى ايام السلطان محمد بن محمود بن محمد بن ملكشاه . فكتب له العهد من همذان وولاه . ثم استولي الامير المؤيد آي ابه بنيسابور وأخذ محمود خان واعدمه . وتولى الامور وبقى الغز بمرو وبلخ وسائر البلاد ضالين عن نهج الرشاد . عابدين للجوو جائرين على العباد

ذكر الحوادث بالعراق بعد انفصال السلطان محمد بن محمود عن بغداد بعد حصارها فى سنة ٥٥٢

قال رحمه الله : قد سبق شرح الحصار . وما قوى الله به أمير المؤمنين المقتفى من الانتصاب والانتصار . وكان من أقوى الاسباب فى دفعهم ان الخليفة راسل آتابك شمس الدين ايلدكز ان ينهض بعسكره الى همذان حتى اذا عرف السلطان محمد ان سريره قد فرغ . وان سروره قد رفع . ارتحل عن بغداد فسار آتابك ايلدكز بالسلطان ملكشاه بن محمود الى همذان ودخلها واستولى على ذخائر الملك بها ونقلها . وأجلس ملكشاه على السرير . وقام بين يديه بالتدبير . فلما عرفت العساكر المنازلة لبغداد ان منازلها بهمذان نزلت . وان ولاتها فى ولاياتها عزلت . تشوشت خواطرها . واستوحشت ضمائرها . واتفق عن بغداد انفلاتهم وانفلالهم . وقدر انفصامهم وانفصالهم وعادوا الى همذان ولما أحس ملكشاه بقرب أخيه محمد انصرف وانحرف . وقدناه آتابك ايلدكز وما توقف . وكان قد استوزر المظفر بن سيدى من زنجان وكان كبير الاصل . كثير الفضل . وله نظم رائق . ونثر فائق . فمن ذلك قوله فى شمس الدين أبى النجيب وزير السلطان محمد .

أبا النجيب وما فى الحق مَغضَبةٌ أأنت مثلى فاين العلمُ والحسبُ
وأنت أنت وهذا الوفر منتقلٌ الى سواك وهذا الامر منقلبُ

وقوله

إني وتيجان أسلافى وتلك لنا أليـة برّة لاتمتري فيها

لأحظُ الملكَ الطاغي بِصَولتهِ ... شزراً وأُعرِضُ عن غشيانه تيها
يبغي الوزارةَ قومٌ يكثرون بها ... وقد تصاغر قدري فى توليها
قلدتها مكرهاً والقومُ فى قلق ... يراوغون تمنوا فى مراقيها
وعفتها طائعا والدولة اضطربت ... من بعد من هو بعد الله يحميها
وردَّ نفسى الى التقوى تيقنُها ... أنّ التقى هو من اجدى مراميها
وأسأل الختم بالحسنى اذا انقلبت ... نفسى الى الله مولاها ومُوليها

قال : وبقى السلطان بعد ذلك سقيم الامل قسيم الالم . عديم الشبه فى سيرته لكنه شبيه العدم . متوجع الجسم متعوج الرسم . معضوض النشاط مقبوض الانبساط . وكان فى عصره أكابر الدولة من الفحول . وذوى الهمم والعقول . عز الدين سنماز وناصر الدين آقش وأمين الدين أبو عبد الله أمير الدولة ومن الخدم شرف الدين كردبازو ونجم الدين رشيد وهؤلاء مازالوا أكابر فى الدول . مقدمين ذوى العديد والجيوش والخيول . يلازمونه فى السفر والحضر . ويثبتون معه في سبيل السلامة . وودع أخاه ملكشاه وعقد له على خوزستان فما تمكن منها منهاجه . ولا تم بها ابتهاجه . لاستيلاء الامير ايذغدى ابن كشطغان المعروف بشمله عليها وتغلبه وتبطل أمره بتطالبه . فبقى فى البلاد دائرا حائراً . صابرا بالبلاء والى الضيق صائرا . وأما السلطان محمد فانه مع تكسره . وامتزاج صحة مزاجه بسقمه . ووقوف رصد المنون على لقمه . رغب فى التزوج بابنة ملك كرمان فخطبها معما هو فيه من خطبه . وبذل وحمل . واتحف واحتفل . ووردت الخاتون الكرمانية فزينت لقدومها القصور ووفر لحضورها الحبور وهم اذا

بهمذان واستقبلها السلطان لمرضه فى المحفة . وأحلها فى كنفه . وتركها لايقدر منها على متعة . ولايطيق الالمام من روضها برتعة . فما اقتضت باقتضاضها قدرته . ولا اقترنت باقترائها مسرته . بل عجز عن البناء عليها . وقصرت يد صحبته عن الامتداد اليها . وبقيت فى جنابه مخيمة . وفى حياته متأيمة . وعرضت للوزير شمس الدين أبى النجيب هيضة غربت بها شمسه وفاضت نفسه . وغاض بفيضه رمسه . وانقطع غده ونسي يومه أمسه . ولقد كان أقوم قومه سيرة . وأمثل امثاله وتيرة . وكان بالتواضع حاليا . ومن التكبر خاليا . وقلد السلطان وزارته ضياء الدين بن مجد الدين بن علجة الاصفهانى فنقله الى الوزارة من منصب الطغراء . وزف عروس تلك المرتبة منه امثل الاكفاء . ولقد كان فى السيادة عريقا . وبالرئاسة لبيقا . لكنه جاءته الوزارة وهو مشارف الوجل . ومشار الاجل . فما قرب من الوسادة حتى قبر ووسد . وما قام خطه بقدره حتى قاومه القدر واقعد . فحزن السلطان موته . وحزبه فوته . وكان قد طالت له صحبته . وأدالت منه لذته صحته . وهو يعده بالوزارة ويعرضها المطل . وجادت بوصل حين لاينفع الوصل .

ومكث السلطان بعد ذلك لاحيا فيرجى ولاميتا فيسجى ثم انه توفى يوم السبت لانسلاخ ذى القعدة سنة ٥٥٤ وكثر عليه الترحم . وزاد بمصابه التألم . فانه كان أوقر السلجقية حلما . وأوفرهم علما وأحبهم للعدل . وأحباهم للفضل واختلف من بعده الامراء فاجتمعت آراؤهم على استدعاء الامير اينانج صاحب الرى . ونشروا من الامر المستور بمالاته ما كان فى الطي . ثم تعارضت آراؤهم وتناقضت أهواؤهم فمنهم من مال الى ملكشاه أخي المتوفى . ومنهم من رأى الارسال الى الملك ارسلان لمكان اتابك ايلدكز

زوج امه . ومنهم من أشار بتمليك سليمان عمه . وكان الامير أيناج يومئذ أكثر جندا . وأكثف جمعاً وأرهف حدا . ومال الى سليمان وقال هو أسلم جانباً وأوطاه . وأثبت عن الاذية رأيا وابطاه . والخليفة كان قد ولاه ووالى اليه الجميل وأولاه . فاذا أجلسناه قام الخليفة بتربيته . ورضى بتوليته

قال وكان سليمان بالموصل فى اعتقال على كوجك فاتفق الامير ايناج وناصر الدين آقش وشرف الدين كردبازو على ارسال الامير مظفر الدين الب ارغون صاحب قزوين الى الموصل للوصول به . وكوتب صاحبها فى طلبه . وكان زين الدين على كوجك اطلقه عند علمه بوفاة السلطان محمد وجهزه بعد التوثقة منه بالايمان . فقدم واستقر بهمذان على سرير الملك ودخل في طاعته سراة الترك وانتظم أمره . واضطرم جمره . ووافقه مخالفوه . ووفاه مخالفوه . وأصبح بالامير ايناج حل الدولة وعقدها . وبيده حبلها . وبأيده وصلها . وصار مظفر الدين الب ارغون بن يرنقش صاحب قزوين . الامير الحاجب الامين . وقلد وزارته شهاب الدين محمود بن الثقة عبد العزيز النيسابورى وكان وزير ايناج فنفذت فى الاقاليم اقلامه . ومضت بالاحكام احكامه . وأعاد الى وجه الوزارة ماءها الذاهب . وأوضح فى انارة افاقها المذاهب . ولما رأى انه ليس في الاكابر اعظم من اتابك شمس الدين ايلدكز وان الملك ارسلان بن طغرل معه . وانه ربما قصد سليمان ليدفعه سير اليه بولاية ارانية منشوراً . ونظم وضم ما كان هناك منثوراً . منشوراً وجعل ولاية العهد للملك ارسلان بعد سليمان . وتذلل الصعب وهان . وحسبوا ان السلطان بعد غموضه ينبه . ولكأسه يريق . ومن سكره يفيق فبقى على الشرب مكباً . وللعب محباً . وللعقل هاجراً . وللحم زاجراً . فلا

جرم حالت حاله وساء ماله . وسنذكر ذلك بعد ذكر بعض الحوادث في أيامه . ونصل افتتاحه بافتتاحه

ذكر وفاة الامام المقتفي لامر الله وجلوس ولده الامام المستنجد بالله أبي المظفر يوسف امير المؤمنين

قال رحمه الله : كان الامام المقتفي لامر الله بعد الحصر آثر ان يخرج الى البلاد ليراها . ويثري ببركة حركته ثراها . فاحضر طرفا الا خضره وما نظر كنفا الا نضره . وكان في اقامته عسكره طال ام قصر سفره الاخباز والاغنام والحوائج والعلائق تفرق على عدد الناس والدواب . وعساكره مجرون من جراياتهم . ونفاقاتهم واعطياتهم على المبار والمحاب فما ينفق لأحد فرس الا اخلفه عليه . ولا يلتمس صاحب معونة ولا مئونة الا عجل بها اليه . واجناده يتمنون ان تطول اسفاره . ليدوم اصبح سعاداتهم بعطاياه اسفاره . ووصل الى واسط فى أواخر صفر سنة ٥٥٤ وانا نائب الوزير ابن هبيرة بها وخرجت في أصحابي للتلقي . وكنت من زحمة اللقاء على غاية التوقي . فبصرت بموكب الخليفة وقد أقبل فى أفواجه . كأنه البحر فى امواجه . فنزلت وتقدمت اليه . وقبلت الارض بين يديه . فوقف لاركب اشفاقا على من الزحمة . وكانت فطرته مجبولة على الرأفة والرحمة . وقال له مخلص الدين ابن الكيا الهراسي هذا الذى يقول فى أمير المؤمنين من قصيدته كأنه يصف هذه الحالة

لما شفعت العزم وهو مؤيد　　بالحزم أسفر بالمنى منك السفر
وبرزت مثل الشمس تشرق للورى　　وسناك يحجب عنك ناظر من نظر
بمظلة سوداء تحكى هالة　　وجه الامام يضيء فيها كالقمر

وقال الوزير هذا صاحبي وقد وليته . وأصحبته وأوليته . وبهج بخدمتي ونجح . وبذخ بنيابتي ورجح . فوصى الامام وزيره بي . وأعجبه سمتي وأسلوبي . وسار على رسله ودخل الى دار الديوان . وجلس ساعة فى الايوان . ثم قام وجلس الوزير فى الدست وكتب ووقع . وقال واسمع . والناظر حينئذ فى واسط الامير شمس الدين أبو الفضائل فاتن وهو من أكابر الخدم الذين لهم المزايا والمزاين . ثم انتقل الخليفة الى سرادقه . والوزير الى مضاربه . ونزل أرباب الدولة كل منهم على مراتبه

قال : وحضرت بميدان واسط والمقتفى رضى الله عنه حاضرا ومعه أولاده ولي العهد المستنجد يوسف وأبو عليّ وابو أحمد وولده المستنجد أبو محمد وهو المستضيء الذي تولى بعده ولعبوا بالكرة . ولم يلبث بواسط ثلاثة أيام حتى عاد الى بغداد سريعاً وكان وصوله للانحدار الى النعمانية فزاد الماء زيادة منعت العبور فرجع على نية الرجوع . وعند عودته غرقت بغداد وذلك فى شهر ربيع الاول سنة ٥٥٤ وذلك لان الماء زاد في تلك السنة على خلاف عادته وتهور به بثق القورج وتفور . وغلب وبلغ السور من صوب الظفرية وتسور . وطاف بتلك النواحي طوفان نوح . وراح شبح كل بناء بغير روح . وكان ذلك منظرا هائلا . وقدرا نازلا . وطارقا كثرت طرقه وفتقا عسر رتقه . وركب الوزير وأرباب الدولة فصدوه وسدوه . وردعوه وردوه . واتفق انه نقص ووقف . وغرق معظم ما من ذلك الماء العظيم

غرف . ولما انصرم الصيف وانكسر الحر وصل المقتفى الى واسط مرة أخرى وانحدر الي ناحيـة الغراف وعزل عن ولايتها ظفرا خادمه وولاها أبا جعفر بن البلدي وقبض على ابن افلح وزير ظفر وعاقبـه . والزمه بما استخرجه من دفائن ابن حماد وطالبه . وكبا به الفرس فى بعض تلك الدواق فوقع وتألم . واعتذر بصحته اليه القدر مما تجرم . وذلك في شهر رمضان من السنة

ولما دخلت سنة ٥٥٥ خرج الخليفة الى هيت وكان مقطعها نور الدولة ابن الامير العميد فخل عنه الاقطاع . والزمه شحه المطاع . واقبل من سفره سافر الاقبال . ظافر الآمال . فما عاد حتى عاده سقم . والمّ به ألمٌ . فتوفى فى يوم الاحد ثانى شهر ربيع الاول سنة ٥٥٥ وانتقل الى جوار الرب . طاهر الذيل نقى الجيب . أمين الغيب . بريًا من العيب . ولما عرف ولده وولى عهده الامام المستنجد بالله أبو المظفر يوسف ان والده قد وقع اليأس عنه أشفق من اتمام الامر لاخيه ابى على . وانه للعهد غير ولى . وهجم الدار . وقبض الكبار والصغار . وعقل واعتقل . ونقل وانتقل . وبويع له بالخلافة يوم وفاة والده . واحتوى على طارفه وتالده . وقبض عدة من الامراء الحيلية مماليك الخليفة المقتفى واعدمهم . وانتخب جماعة من مماليكه وأمرهم وقدمهم . وأخذ القاضي سديد الدين بن المرخم أخذا شديدا . وردد العذاب عليه ترديداً . الى ان فاضت نفسه . وغاض به رمسه . وحبس المخلص ابن الكيا الهراسى مدة ايام خلافته . وحرمه حظ عاطفته ورأفته وأقر عضد الدين ابن رئيس الرؤساء على استاذية الدار . ورفع قدره على الاقدار . وأقر عون الدين ابن هبيرة على وزارته . وبقى ماء الدولة به على

غزارته . واستولى على دولته مملوكه قايماز . وعز بالاستظهار وظهر بالاعزاز

ذكر مراسلة الخليفة للسلطان

قال : وأرسل الخليفة الي السلطان سليمان . يسأله الطاعة والاذعان . ويطلب منه ان يخطب له فى جميع البلاد . ويقوى رجاءه منه فى نيل المراد . ويذكره باحسان الامام المقتفى اليه . وأفضاله عليه . فبادر السلطان الي التثام الارض . وامتثال الفرض . وقبل كتابه وقبله . وكتب الي البلاد ليخطب له . وظن ان بغداد قد وصلت الى بغيته . وحصلت فى قبضته . وانها فى انتظار نهضته فرتب القاضى نبيه الدين ابا هريرة الهمذانى رسولا . وكان مقبلا فى سمته وسمته مقبولا . وهو من أعيان المملكة وأماثلها . وعلماء الامة وأفاضلها . وندب معه الامير ابن طغايرك ليكون ببغداد واليا . ويعيد ما رخص ونزل من قدم السلجقية غاليا عاليا . فعزم في عدة . وزعم انه على عدة . وسار القاضى والامير ومن معهما مع رسول الخليفة وهو الحاجب سونج النظامى ذو النطق واللسن والرأى الحسن . والعلم والفصاحة . والحلم والحصافة . فاستصحب القاضي والامير ووصل . على ظن انه بالمراد حصل . فلما قربا قربا . وبالرغائب رغبا . واقيمت الوظائف . ووضعت اللطائف . واقاما مدة للتقرب والترقب . ثم قاما للتطلب والتغلب . وقالا انما حضرنا للتعرف والتصرف . لا للتوقى والتوقف . فقال لهما الوزير ما بالكما . وما حالكما وبم ارسالكما . وفيم سؤالكما فقالا ما جئنا لنذهب . وانما جئنا لنخاطب ونخطب . فقيل لهما ما أنتما الا سفير الاهتداء . واهداء

وخفيرا ولاية وولاء. والتعرض للخطبة تعرض للخطوب. ولا رغبا فى الخطبة ان رغبتما فى الولاء المخطوب. فقال رسولكم بها وعد فقيم اخلاف العدة والالاف الجدة. واثارة الثائرة الموجدة للموجدة. فقيل لهما ما كان لرسولنا ان يقول مالم نشربه. وفيم رضانا عن مرسلكما امن شربه وسربه. وغدا يوافقكم رسولنا على انه لم يقل ماقلتماه. ولم يعقد ولم يحل فيما به عقدتماه. فافترقوا للاجتماع فى غد والمعاودة لموعد.

فاتفق ان رسول الخليفة وهو الحاجب سونج النظامي فى تلك الليلة توفى. واخمد سراج حياته واطفى. وكتم سره تحت التراب واخفى. وكان هذا من اعجب الغرائب. واغرب العجائب. حتى تحدث الناس بذلك الحادث. وانبعثوا لذكر ماتجدد عليه من المباحث. وقيل انه خير بين ان يقتل صبرا. او يشرب سما وما فيهما حظ لمختار. وقيل بل بقضاء من الله جار. وأجل. وفوت بمقدار. فلم يجر بعد وفاته لتلك المواعدة معاودة ولا موافاة. ووقعت من الرسولين منافرة ومنافاة. فاتفق ان القاضى أباهريرة أحد الرسولين توفي بعد أسبوع من وفاة سونج. ولم يكن دينه أيضا من القدر بمنج. فرجف الناس وأرجفوا. وتحدثوا بما عرفوا وبما لم يعرفوا. واستشعر الرفيق الآخر وقال ما فى الاقامة خلاص. وأفلت راحلا وله خصاص. فانه غلب على ظنه انه ان أقام قضى. ولحق بمن مضى. فتلاشت تلك الرسالة لعدم رسلها. ولروعة مثل ذلك الحادث لم يرجعوا الى مثلها. ووقعت فى انفسهم من بغداذ الهيبة. ومن حصولها الخيبة. فلم يقدم ملك اليها. ولم يقدم سلطان عليها

قال: وفى هذه السنة وهي سنة ٥٥٥ توفى ملكشاه بن محمود بن محمد وذلك انه لما عرف ملكشاه ان عمه ملك. وان حساب الممالك به تفذلك.

وانه يتمود خلوته . ولا يخلي عادته . ويريد هواه ولا يهوى ارادته . نهض وافر المدد . وافى العدد . وجاء الي جيّ . بلالئ . ووفر حبور أهل اصفهان بحضوره . وأذعنوا لاوامره اذعنوا بأموره . واستبشروا وأنسوا ببشره . ونشروا الطيب وطابوا بنشره . وقالوا عاودتنا الالطاف الالهية . وعادت علينا الايام الملكشاهية . وأقام وسير الكتب الى الاطراف . بالاستمالة والاستعطاف . وخطب اللهو ولها عن الخطب . وغفل عن اسراع الذوى الى عوده الرطب . وكان مغروراً بالشباب مشبوب الغرار . مقدرا اللامن آمناً من الاقدار . فلم ينقض عليه شهر حتى اشتهر انه قضي ومضي . وان برقه ويومه مضى . وذلك فى يوم الاثنين الحادى عشر من شهر ربيع الاول من غير مرض سبق ولا عرض عرض . بل كانت له مغنية قد استهوته واستغوته . وخبلت خلبه وسلبت لبه . فصار يا كل من يدها ويشرب . ويجيء بحبها ويذهب . وقيل انها بغت موته فمات بغتة . وقيل بل اصابه سكتة . وانها قد رغبت حتى سقته سما . وكان قدرا حتما . قد احاط الله به علما

ذكر ما آل اليه امر السلطان سليمان . وكيف جفاه زمانه وخان

وكيف قبض من مجلس ملكه . ونقل الى منزل هلكه

قال : لما اتسع ملكه . واتسق سلكه . ظن الامراء انه قد لاحف الفلاح . وصالح الصلاح . فلم يضنوا بالاحسان اليه لحسن ظنهم فيه ومازالوا فى تقرير اسبابه وتسبيب قرار مساعدته ومساعفته حتى بدالهم ابداله فان الامير ايناج عاد الى ربه . والسلطان سليمان انهمك فى غيه . وأخل مظفر الدين صاحب قزوين بموضع الحجبة . وثبت الباقون من الامراء على الفتك بالسلطان فانه اشتغل بلهوه ولها عن شغله . وجد حبل جده بجبله . وقالوا الصواب ضبطه وربطه . وقبضه لا بسطه . ومكثوا مدة يتشاورون فى خلعه . ويتوامرون فى وضعه . ويكاتبون شمس الدين ايلدكز ليقدم بابن زوجته الملك ارسلان بن طغرل وانهم لا يقطعون أمرا حتى يصل وأحكموا العهد وأبرموا العقد . واتفق انه حدث بالسلطان سليمان مصرع لصرعة من فرسه . فقضت بضيق نفسه ونفسه . فعادوه لالمه وعادوه فى امله . واعتقلوه فى قصر من الدار السلطانيه ووكل كل امير به من ثقاته جماعة . واعقدوا على اضاعته عهدا واعتقدوا لعهده اضاعة . وذلك فى شوال سنة ٥٥٥ ثم انهم نقلوه الى قلعة همذان وجرعوه كاسا مسمومة . وازاروه ميتة مذمومة . وكانت وفاته فى ثالث عشر شهر ربيع الاول سنة ٥٥٦ بعد جلوس ابن اخيه فى السلطنة

﴿ ذكر جلوس السلطان ركن الدنيا والدين ابي المظفر ارسلان ﴾

﴿ ابن طغرل بن محمد بن ملكشاه بن الب ارسلان ﴾

قال : وصل ارسلان الي همذان بعد اعتقال عمه في ذى القعدة من السنة وجلس على سرير سروره . واجتاب حبر حبوره . ونعت شمس الدين ايلدكز باتابك الاعظم . فتقدم وأقدم . وأهان وأكرم . وكان السلطان تحت سلطانه . يرتوى من احساء احسانه . ويأكل من خوانه مع اخوانه . فان أولاد آتابك ايلدكز بنو أمه . وصار واسطة عقدهم ورابطة عقدهم بنظمه اليهم وضمه . وسعى سعد آتابك ايلدكز بقدم التقدم . وجدّ جدّه في التوسع والتوسم . وتصاغر له الكبراء وأتمر له الامراء . وتقررت الوزارة على شهاب الدين محمود بن الثقة عبد العزيز . والحجبة على طغرلتكين اياز وأقاموا بهمذان شهرين ثم توجه السلطان الى اصفهان وجعل ساوه مسلكه . واستصحب معه ايلدكز آتابكه . ووصل اليه في ساوه الامير ايناج بك سنقر صاحب الريّ فابتهج بلقيته ولقى منه بهجة . وأقام بايضاح محجة خلوصه على حكم طاعته حجة . وصار بينه وبين آتابك ايلدكز مصاهرة وتمت بذلك للسلطان معهما مظاهرة . وزوجت ابنة ايناج بابن ايلدكز الاكبر وهو نصرة الدين بهلوان محمد وهو أخو السلطان لامه . واقوم أهل الدولة بمهمه . ثم اكرموا ايناج وردوه الى ولايته غير انه باق على عتوّه . راق في غلوّه . متكره بتكثر ايلدكز متكرث . متأثر قلبه من تقدمه متأرث

صحيفة

صحيفة

صحيفة

تمت